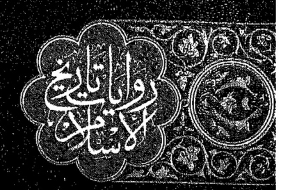


صلاح الدين الأيوبي

تأليف
جرجي زيدان

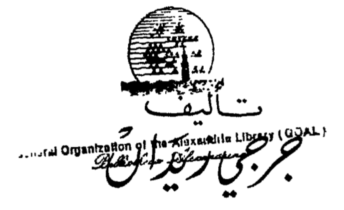
دار الجيل
بيروت - لبنان

روايات

تاريخ الإسلام

صلاح الدين الأيوبي

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية المعروفة بجماعة الحشاشين



تأليف

جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

* الخليفة العاضد	: آخر الخلفاء الفاطميين
* ست الملك	: اخت العاضد
* السلطان صلاح الدين الايوبي	:
* نجم الدين	: والد صلاح الدين
* بهاء الدين قراقوش	: وزير صلاح الدين
* عماد الدين	: من خاصة صلاح الدين
* عيسى الهكاري	: من خاصة صلاح الدين
* ابو الحسن	: محتال طامع في الخلافة
* السلطان نور الدين زنكي	: صاحب الشام
* راشد الدين سنان	: زعيم الاسماعيلية (الحشاشين)

مراجع رواية صلاح الدين الايوبي

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ تاريخ ابن الاثير
★ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
★ تاريخ المقريزي
★ حسن المحاضرة
★ كتاب الروضتين
★ ابن خلكان
★ تاريخ الدولة السلجوقية
★ الهلال مجلد ١٩
★ طبقات الاطباء
★ تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان
★ Burckhardt, Travela in Syria and Holy Land London 1822 10

- ١ -

فذلكة تاريخية

كان دخول مصر في حوزة الفاطميين او العبيديين سنة ٣٥٨ هـ على يد القائد جوهر ، فبادت بذلك دولة الاخشيد وخرجت مصر من حوزة الدولة العباسية ، لانها كانت في زمن الطولونيين والاخشيديين — مع استقلال هاتين الدولتين بالحكومة — تحت رعاية الخليفة العباسي في بغداد ، فكان هو يثبتهم على الامارة ويبعث اليهم بالخلع او بكتاب التولية (الفرمان) على نحو ما كان يفعل السلطان العثماني بأمراء مصر، اما ادارة الحكومة الداخلية وسائر اعمالها فكان يجريها الامير الطولوني او الاخشيدي مستقلا دون مراجعة بغداد ، وهو يشبه ما يعبر عنه كتاب هذا العصر بالاستقلال الاداري ، على تفاوت في درجات ذلك الاستقلال.

فلما دخلت مصر في حوزة الفاطميين تغيرت حالها السياسية وأصبحت دولة مستقلة استقلالا تاما ، لا تراجع احدا ولا تعترف بسيادة احد غير الخليفة الفاطمي المقيم بالقاهرة .

وهي اول مرة استقلت فيها مصر بالسيادة بعد الاسلام . وبقيت الخلافة العباسية في بغداد كما كانت ، وظهرت الخلافة الاموية بالاندلس

في بني مروان . فأصبحت المملكة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء ، كل منهم يجعل لنفسه الحق في الخلافة الحقيقية وينكرها على الاخرين . وكان النزاع على أشده بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة . كما كان بينهما اختلاف في المذهب ، فالخلافة العباسية سنية ، بينما الفاطمية شيعية . وهو في اصله تنازع سياسي ادخلوا فيه الدين وسيلة لتأييد دعواهم .

والدولة الفاطمية اول دولة شيعية تسمي ملوكها بالخلفاء . وعاصرتها دولة اخرى شيعية في العراقين وفارس ، وهي الدولة البويهية ، لكن ملوكها لم يسموا انفسهم خلفاء ولا ادعوا نسبا قرشيا يؤهلهم لذلك ، بل حافظوا على الخلافة العباسية مع اعتقادهم ان اصحابها اغتصبوها من مستحقيها . وانما استبقوها ليحكموا بها العامة ، وأشار بعضهم على معز الدولة البويهي بعد قيام الدولة الفاطمية ان ينقل الخلافة الى الفاطميين او الى غيره من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلا : «ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت وأصحابك انه ليس من اهل الخلافة ، ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك !» . فرجع معز الدولة عن عزمه .

استقرت الخلافة الفاطمية بمصر ، والخلفاء العباسيون في بغداد ، وأتباعهم السنيون في انحاء العالم ينكرون على الفاطميين صحة انتسابهم الى فاطمة الزهراء وهم لا يبالون . وانما كان يهمهم تأييد سلطانهم بالسيف والدهاء ولاسيما في اوائل دولتهم . فان المعز لدين الله لما بنى له جوهر مدينة القاهرة ودعاه اليها خرج الناس للقائه فاجتمع به الناس من الاشراف وفيهم عبدالله بن طباطبا المشهور ، فتقدم الى الخليفة المعز وقال له : «الى من ينتسب مولانا ؟» . فقال له : «سنعقد مجلسا نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا» . ولما استقر المعز في القصر جمع

الناس في مجلس عام ، وجلس لهم وقال : «هل بقي من رؤسائكم احد؟» قالوا : «لم يبق معتبر» . فسل سيفه وقال لهم : «هذا نسبي» . ونثر عليهم ذهبا كثيرا وقال : «هذا (حبسي)» . فقالوا جميعا : «سمعنا وأطعنا » !

وقد توالى على مصر من الفاطميين احد عشر خليفة ، حكموا مائتي عام ونيفا (من سنة ٣٥٨ حتى ٥٦٧ هـ) أولهم المعز لدين الله ، وآخرهم العاضد لدين الله . ومرت الدولة في اثنائها بثلاثة أدوار : كانت في اول امرها قائمة بالعرب والبربر وهم الذين فتحوا مصر مع جوهر فكان النفوذ مشتركا بين هذين العنصرين . ثم صار الى البربر ، ثم الى الاتراك . كما انتقل النفوذ في الدولة العباسية من العرب والفرس الى الاتراك .

وكان السبب في تكاثر الاتراك بمصر انه لما مات الخليفة الحاكم بأمر الله وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر ، وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر ، كانت امه امة سوداء فاستكثرت في جنوده من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان ابنها يستكثر من الاتراك ، فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ. والى التنافس الى حرب اتعبت مصر واضطر الخليفة الى استنصار صاحب الشام فأتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا ، وهو ارمني الاصل، فقتل اهل الدولة وأقام بمصر جندا من الارمن والاتراك ، وصار معظم الجيوش منهم ، وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها وأكابر اهلها .

وكان السلاجقة في اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت

دولة آل بويه وضعف امر الشيعة هناك ، وولي السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات واستقل كل منهم بولايته ، ومنهم نور الدين زنكي في الشام • وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد ، منهم : نجم الدين ايوب ، وأخوه اسد الدين شركويه ، وقد بلغنا عنده منزلة رفيعة • وكانت خلافة مصر قد افضت سنة ٥٥٦ هـ الى العاضد لدين الله بن يوسف ، وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا في الاستئثار بالنفوذ وطال تنافسهم حتى خربوا البلاد ، والخليفة لا يستطيع عملا •

وكان في جملة المتنافسين وزير اسمه «شاور» غلب على امره ، فذهب الى نور الدين زنكي واستنجده على رجل اخر كان ينافسه في الوزارة ، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر وأنجده بأسد الدين شركويه في جند من المماليك ، فرد الوزارة الى شاور ، وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين •

وكانت الحروب الصليبية في تلك الفترة قد احتدمت فزاد تدخل نور الدين في شؤون مصر ، ونائبه فيها شركويه ومعه ابن اخيه «يوسف ابن نجم الدين» وهو صلاح الدين الايوبي •

ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وسمي وزيرا ، فاتخذ صلاح الدين ذلك وسيلة الى الاستقلال بسلطنة مصر لنفسه • وهو ما تبسطه هذه الرواية •

- ٢ -

الخليفة العاضد وصلاح الدين

قال العم حسن لعمر المكاري : «انهض يا اخي ، أما كفاك نوما

والقاهرة تضج والناس يتراكضون ؟» قم وانج بحمارك» •

فأجاب عمر قائلا : «الى اين ؟ ولماذا ؟» هل أحرقوا القاهرة كما احرقوا الفسطاط ؟» ام هناك ضربة جديدة علينا ؟» تركت مواقف القاهرة وأتيت بحماري الى هذا الموقف خارج باب الفتوح لاتخلص من عدوانهم وعدوان هؤلاء الاتراك والاكراد و ••»

فقاطعه العم حسن بقوله : «اسكت يا عمر ان هؤلاء الاكراد كل الخير منهم • هل نسيت ما كنا نقاسيه من العذاب قبلهم حتى ان احدنا لم يكن يتحرك ما لم يضربوا عليه ضريبة ؟» ومن كان يجسر ان يذكر ابا بكر او عمر رضي الله عنهما ؟»

قال : «صدقت • ان والدي ندما على تسميتي بهذا الاسم ا• لكن ماذا جرى الان يا عم حسن ؟ هل نقدر ان نتحرك وها انت ذا تقول لي : قم انج بحمارك ؟!»

قال : «اقول ذلك لان الخليفة العاضد لدين الله خارج من قصره في موكبه ، وستتبعه طائفة من الاتراك وغيرهم ، فربما سطا احدهم على حمارك فيركبه • وربما اخذه لنفسه ا»

قال : «الخليفة خارج من قصره ؟» وأين نحن وقصره ؟» اننا خارج القاهرة ا »

قال : «انه آت الى هنا وسيخرج من باب الفتوح هذا» •

قال : «من هذا الباب ؟» الى اين ؟!»

قال : «انه خارج لاستقبال نجم الدين ايوب» •

قال : «الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين ؟ ومن هو نجم الدين هذا ؟!»

قال : «هو والد الوزير صلاح الدين بن يوسف ، جاء من الشام لزيارة ابنه» •

قال : «الله الله يا دنيا!» الخليفة امير المؤمنين ابن بنت الرسول، وظل الله في الارض ، يخرج من قصره الى خارج بلده لملاقاة والد وزيره متى كان الخلفاء الفاطميون يفعلون ذلك يا عم حسن ؟»

قال : «تغيرت الاحوال يا صاحبي . ان الخليفة لم يبق له من الخلافة الا الاسم ، وصار النفوذ الى هذا الكردي . مسكين العاضد !»

قال : «مسكين ؟ بل نحن المساكين ، ولعل هذا الكردي احسن منه».

قال : «الكردي احسن من الخليفة ؟! لا ..»

قال : «وما الذي يصيبنا من هؤلاء الحكام ؟ انهم يختصمون على الاستبداد فينا ، وماذا يهمني ان كان حاكمي كرديا او عربيا او هنديا. انما المهم ألا يظلمني .. أليس كذلك ؟»

قال : «اسكت ، انهم قادمون ، ألا تسمع الابواق والصنوج ؟ الج بحمارك ، او خبئه في مكان وتعال» .

قال : «ها أنذا ذاهب وسأرجع اليك على عجل لارى موكب الخليفة. لقد طالما سمعت بهذا الموكب وما يحف به من الفرسان وما يلبسه الخليفة من الجواهر والحرير و ..»

قال : «انا في انتظارك» .

قال : «لا . لا . الاحسن ان تتبعني انت لنضع الحمار في هـــذا البيت ، ثم نصعد الى سطحه فنكون أقدر على المشاهدة وأبعد مـــن الخطـــر » .

قال : «اذن هيا بنا» .

ولما صعدا الى السطح وأشرفا على الموكب قال عم حسن : «انهـــم قادمون من القصر . وبعد قليل يصلون الى باب الفتوح هذا فنراهم وهم خارجون . ألا تسمع الضوضاء وقرقعة اللجم» . قال : «نعم أسمـــع وأخاف ان يكون علينا خطر» . قال : «لا خطر ، اراك تخاف مـــن

خيالك» . قال : «لا تؤاخذني يا عم حسن ان الملدوغ يخاف من جـرة الحبل ، وهؤلاء الجنود لم يخرجوا بمثل هذه الحركة ألا تعدوا علينـــا وأخذوا دوابنا» .

قال : «اتى الموكب ، انظر نظرة عامة اليه في هذا الشارع الداخلي قبل خروجه» .

قال : «اني ارى الاعلام تخفق ، والخيول تصهل ، والرماح تتلألأ ، والسيوف تلمع ، والشارع يموج بمن فيه كالنيل في فيضانه . يـــا حفيظ ! أشكرك يا عم حسن على هذه الفرجة .. قل لي الان وقد اخذوا يخرجون من باب الفتوح ، من منهم هو الخليفة ؟ هل هو هذا الراكب على هذا الفرس الاشهب وعليه الثياب القصبية ؟»

قال : «يظهر انك لم تشاهد احدا من رجال الدولة في حياتك . ان الذين يتقدمون موكب الخليفة كثيرون . وهل تظن الخليفة يلبس القصب؟ انه لباس بعض أتباعه . اما الذين تراهم في مقدمة الموكب فهم الامراء وأولادهم وأخلاط من العسكر ، ووراءهم أرباب القصب ثم أربـــاب الاطواق والاساتذة وهم اكبر رجال الدولة . انظر الى ألبستهم الفاخرة التي تأخذ بالابصار والى سروج خيولهم المفضضة ومن في ركابهم من الخدم الاتراك وغيرهم . ان ذلك كله ليس شيئا بالنظر الى موكب الخليفة. انظر . انظر ، هذا هو موكب الخليفة عند تلك المظلة» .

قال : «ان المظلة تغطيه فلا اراه جيدا . وانما ارى فرسه وما يحدق بها من الاعلام والفرسان بجانبه ، من هم ؟»

قال : «لا تستعجل في الاستفهام . ان الموكب يسير ببطء وأنـــا شارح لك كل شيء . هل ترى فرس الخليفة ؟ تأملها جيدا ان سرجها من الديباج الاحمر مصوغ بالذهب ومنزل فيه الميناء ، ولو تأملت مقـدم السرج لرأيت عليه أحجارا كريمة . وفي عنق الفرس قلائد الذهب ، ولو

استطعت النظر الى قوائم الفرس لرأيت حولها الخلاخل الذهب . ويقدرون كل فرس بما عليها من العدة بألف دينار ، وأفراس الوزراء والامراء ايضا في مثل هذا الترتيب وهي كلها في الاصل هدية من الخليفة يهبها لامرائه في الاعياد» .

قال : «هنيئا لك يا عم حسن لا بد انك ذقت الركوب على هـــذه الافراس وأنت من غلمان القصر الكبير» .

قال : «ذقت يا بني اشياء كثيرة كدت انساها الان . ورأيت جواهر ومصوغات تبهر العقل . فكيف بما يلبسه الخليفة ؟ انظر الى هذه المظلة فانها تشبه الهرم بشكلها وهي من الديباج الازرق السماوي وثـــوب الخليفة تحتها في هذا اللون ايضا . ولو كانت حمراء لكان ثوبه احمر . انظر الى الاهلة الذهبية التي تتدلى من حواشي المظلة وكيف ان أضلاع المظلة او قوائمها ملبسة بالذهب . وفي قمتها رمانة ذهب كبيرة فوقهـــا رمانة ذهب صغيرة مرصعة بالجواهر . انظر الى لمعانها فانه يخطـــف البصر » .

قال : «صحيح . ولكنني لا ارى حامل المظلة . وكيف يستطيع حملها وهي ثقيلة ؟»

قال : «ان حاملها راكب فرسه بجانب فرس الخليفة . وللمظلة قناة يركزها ذلك الفارس في قربوس فرسه . وهمه في اثناء الركوب ان يراقب موقف الخليفة من جهة الشمس بحيث لا تقع أشعتها عليه» .

قال : «وماذا يحدث اذا وقعت الاشعة عليه ؟. ها أنذا ارى رأس الخليفة فان صاحب المظلة انحرف عنه . ما هذا الذي على رأسه ؟» قال: «تمهل لأتم حديثي . انظر الى هذه العمامة على رأس الخليفة فانهـــا بيضاء وشكلها اهليجي . وفي أعلاها فوق الجبهة حلية بشكل الهلال من ياقوت احمر ليس له مثال في الدنيا ، وفي وسط الهلال جوهرة عظيمة

مشهورة يقال لها اليتيمة لا يعرف لها قيمة . ويقال ان وزنها ٧ دراهم ووزن الهلال كله ١١ مثقالا وبدائرة اليتيمة قصبة زمرد ذبابي لـــه قدر عظيم» .

قال : «يا حفيظ ! يا حفيظ ! أتكون مثل هذه الجواهر عند هــذا الرجل بلا فائدة والناس في مملكته يتضورون جوعا وهو يأخذ اموالهم ظلما ؟ آه يا عم حسن لقد أوجع قلبي هذا المنظر !»

قال : «اسكت يا شيخ ان النعم من عند الله يؤتيها من يشاء . ولعلك لو عرفت ما في قلب هذا الخليفة لم تحسده على هذه الجواهر . لكن مالنا ولهذا الان . اسمع ، ألا ترى الفارس الذي الى يسار الخليفة وفي يده منديل ابيض ؟»

قال : «نعم اراه ماذا يوجد في هذا المنديل ؟» . قال : «في هــذا المنديل الدواة الثمينة التي هي من اعاجيب الزمان فانهـــا من الذهب وحليتها من المرجان . انظر الى يمين الخليفة تر فارسا اخر يحمل سيفـا حليته من الذهب مرصعة بالجوهر وهو معمد لا يظهر الا رأسه وحامله يقال له (حامل السيف) وهو من اصحاب الرتب العالية . وانظر الى حوالي فرس الخليفة فانك تجد عشرات من الصبيان وعليهم المناديــل وأوساطهم مشدودة بمناديل وفيها السيوف ، وفي أيديهم الحـــراب مشهورة ، وهم بجانبي الخليفة كالجناحين . وبينهما فسحة امام وجـه الفرس ليس فيها احد . وبالقرب من عنق الفرس صقلبيان يحملان المذبتين وهما مرفوعتان كالنخلتين لذب ما يسقط من طائر او غيره» .

قال : «اني ارى فارسا فخما يذهب ويجيء الى يسار الموكب ويأمر وينهي ، من هو ؟»

قال : «هذا والي القاهرة يحافظ على ترتيب الموكب ليسهل مروره ويمنع الازدحام . انظر الى الذين وراء دابة الخليفة . هنالك جماعة من

الصبيان يقال لهم صبيان الركاب يحملون الصماصم المصقولة المذهبة بدل السيوف المحدبة ، وبأيديهم الدبابيس من الكيمخت الاحمر والاسـود ورؤسها مدورة مضرسة ، وبعضهم يحملون عمد الحديد وبين أيديهم لواء الحمد المختص بالخليفة وحوله ٢١ راية على كل منها كتابة بالحريـر تختلف الوانها ، اما الكتابة فهي (نصر من الله وفتح قريب) الم تقرأها ؟»

فضحك عمر وقال : «من اين لي ذلك ؟ ان اهلي لم يضعوني فـي الازهر لان التعليم فيه على مذهب الشيعة وأهلي سنيون» .

فقطع العم حسن كلامه وقال : «فالآن صرت تقدر ان تتعلم ، لان صلاح الدين جعل التعليم فيه عاما لكل المذاهب» .

قال عمر : «لقد تأخر علي بهذه النعمة ، وهل بعد الاربعين من العمر تعليم ؟ فلنترك ذلك لاولادنا . قل لي من هذا الذي اراه ؟ ان موكبه لا يقل عن موكب الخليفة في شيء وأرى عليه لباسا افخر من لباسه !»

قال : «هذا هو يا صاحبي صلاح الدين الوزير . وهذا الثوب الذي عليه هو خلعة السلطة خلعها عليه هذا الخليفة نفسه منذ ثلاث سنوات . وهي كما ترى عمامة بيضاء من نسج تنيس . لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقي بطراز ذهب . وكذلك الجبة التي عليه فان طرازها من الذهب، وفوق ذلك طيلسان مطرز بالذهب . وانظر في عنقه هل ترى العقد ؟ انه من الجوهر يساوي عشرة آلاف دينار ، والى جانبه سيف محلى بخمسة آلاف دينار ، وتحته فرس قيمتها ثمانية آلاف دينار . وعليها سرج مذهب وفي رأسها مائتا حبة جوهر ، وانظر الى قوائمها فان حولها اربعة عقود جوهر وعلى رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . هذا هو صلاح الدين . ان منظره يدعو الى الهيبة اكثر من منظر الخليفة . انظر الى هيبته وكيف ان الشجاعة ظاهرة في وجهه ولا يراه انسان الا احترمه وخافه . والحق يقال ان الامور الان في يديه وهو الآمر الناهي كما قلت

لك . وانظر الى الرجال المحيطين بموكبه ، وفيهم قوم يقال لهم صبيان الزرد من اقوياء الاجناد يختارهم لنفسه . وهم مئات يمشون الى الجانبين وبينهم فسحة امامه مثل فسحة الخليفة . ووراءه الطبول والصنوج والصفافير ألا تسمع صوتها يدوي به البر ؟ ووراء موكب الوزير يأتي حامل الرمح . تأمله فانه رمح لطيف في غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان قصير بحلية من الذهب . ومعه درقة بكوامخ يقولون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه» .

كان عمر الحمّار يسمع كلام صديقه العم حسن وقد اخذته الدهشة، فلما سمع قوله درقة حمزة بغت وقال : «درقة حمزة ؟! حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ؟!» .

قال : «نعم هكذا يقولون . وقد آن لي ان أختصر لك الوصف لان الموكب لا يزال طويلا . فانظر الى ما وراء موكب الوزير انك تجد فرقا من الاجناد المختلفة زمرة زمرة في عدة وافرة تزيد على اربعة آلاف . ثم اصحاب الرايات ووراءهم طوائف من العسكر على اختلاف أجناسهم الاتراك والاكراد والديلم وغيرهم» .

فقال عمر : «قف بالله قليلا وأخبرني عن فارس اراه راكبا بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاخرة» .

قال : «انه من بعض خاصته ، ولكنه يحبه كثيرا ولا صبر له على فراقه واسمه عماد الدين» .

فبغت الحمّار عند ذلك وقال : «ما بال هؤلاء لا يسمون اسما الا منسوبا الى الدين . هؤلاء ثلاثة ذكرت لي اسماءهم : نور الدين وصلاح الدين ونجم الدين ، وهذا عماد الدين» .

فقال العم حسن : «تلك عادتهم في التسمية . ها قد انتهى الموكب وقصصت عليك خبره فأذن بانصرافي» .

فقال : «مع السلامة أكثر الله خيرك» .

وانصرفا ، وسار الموكب على هذه الصورة بعد خروجه من باب الفتوح والناس في أثره راكبين او مشاة ، وآخرون وقفوا على أسطح المنازل يشرفون على الموكب وقد تصاعد الغبار حتى حجب وجه السماء وغشي الرؤوس والمناكب ، ولم تبق فتاة ولا غلام الا خرجا الى الشارع او صعدا الى السطح ، والبسطاء يستغربون خروج الخليفة لاستقبال ذلك الكردي ، والعارفون لا يرون فيه غرابة لضعف امر الخلافة .



ما زال الموكب سائرا على هذه الصورة حتى وصل الى مسجد التبر (في اخر الحسينية) ، وأتت البشائر باقتراب نجم الدين فالتقوا به هنالك . وحالما تقابلا ترجل نجم الدين احتراما للخليفة وكذلك فعل رجاله الذين معه وفيهم اخوه شمس الدين . وترجل صلاح الدين وقبل يدي والده . فقبله والده ، ولما رأى ذلك الموكب وما على ابنه من الخلع لم يتمالك عن البكاء من الفرح وشكر الله على نعمه . وكان نجم الدين عاقلا مدبرا فترامى على يد الخليفة يقبلها ويظهر امتنانه من ذلك الاكرام والخليفة يجيبه بلطف ، لكنه لم يتحول عن فرسه . ثم عاد الموكب بجلاله نحو القصرين ، وقد ركب نجم الدين الى جانب ابنه وبجانبهما عماد الدين الشاب الشجاع وتحادثا مليا . وكان حديثهما بلغة لا يفهمها رجال العاضد وهي اللغة الكردية . وكان اكثر الحديث عن نور الدين صاحب الشام وعن العاضد صاحب مصر .

اما الخليفة العاضد فلو دنوت منه تحت المظلة وتفرست في عينيه لرأيت الدمع يترقرق فيهما . ولو جسست قلبه لسمعت خفقانه الشديد من الاسف والغم ولاضطراره الى الخروج في هذا الموكب لتكريم رجل

يخافه على حياته كما يخافه على منصبه • ولكنه لم ير بدا من مسايرته، فكظم غيظه وخرج لاستقبال والده • وذلك أثقل على قلبه من الجوع والعري • ولعله يتمنى ان يكون من بعض العامة ولا يتحمل ذلـــك الضيم •

ووصل الموكب قبيل الغروب الى القصر الكبير الشرقي مــن قصور القاهرة • وهو مجموع قصور ربما زاد عددها على بضعة عشر قصرا ، منها قصر الزمرد ، وقصر المظفر ، وقصر الاقبال ، وقصر البحر ، وقصر الحريم ، وقصر الشوك ، ودار الوزارة ، ودار الضيافة ، ودار الضرب، وخزانة البنود ، وخزانة الكتب ، وحجر الصبيان الحجريـــة وغيرها • وتسمى كلها معا القصر الكبير الشرقي • كما كانت تسمى قصـــور عبد الحميد في الاستانة قصر يلدز •

وموضع القصر الكبير الشرقي الان في شرقي القاهرة القديـــة وشماليها فيما بين الازهر وباب الفتوح ، ويدخل في ذلك خان الخليلي وبيت القاضي والجمالية والنحاسين • وقد سمي هذا القصر بالشرقـــي تمييزا له عن قصر اخر أصغر منه كان غربي القصر الشرقي ، وبينهمـــا ساحة يقال لها الميدان بين القصرين • ووراء القصر الغربي نحو الغرب متنزه كبير يقال له البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة ، وعلى هذا الخليج كانت متنزهات الخلفاء الفاطميين •

وكان في جملة ابنية القصر الكبير الشرقي بناء يسمونه قصر الذهب، كان الخليفة يجلس فيه للناس في يومي الاثنين والخميس من كـــل اسبوع ، فوقف الموكب عنده •

فترجل الخليفة ودخل القاعة المعدة للاستقبال وتسمى قاعة الذهب، يدخل اليها من باب يسمى باب الذهب (حيث المارستان المنصوري فـــي النحاسين) • فجلس على سرير من الذهب في صدر القاعة ، يزن ألوف

المثاقيل ، وحوله ستر محلى بطراز من الذهب المرصع بالجواهر فيـــه خمســائة وستون قطعة جوهر مختلفة الالوان • وفوق السرير مظلة من ذهب وزنها ثلاثون الف مثقال • وأكثر جدران الغرفة مغطاة بستـــور الديباج المزركش • حتى ان الناظر اليها يحسب نفسه في حلم ؛ ولاسيما متى نظر الى ما فوق عمامة العاضد من الجواهر المتلألئة •

وبعد جلوس الخليفة على سريره دخل الوزير صلاح الدين . فجلس في مرتبة خاصة به • ولم يؤذن في الدخول يومئذ لاحد من رجال الدولة وانما جعلت الجلسة خاصة باكرام نجم الدين • فأمر صاحب البـــاب باستقباله وادخاله عليه . فدخل نجم الدين وكان بهي الطلعة عظيم الهيبة فوقع من نفس العاضد موقعا عظيما فأشار اليه بالجلوس ورحب به ، فقعد نجم الدين باحترام • وكانت العادة اذا دخل الوزير على الخليفة الفاطمي ان يقبل يد الخليفة ورجله ، ولم يفعل صلاح الدين ذلك ولا جعل والده يفعله ، ولم يستغربه الخليفة •

وكان في جملة الحضور في تلك القاعة كهل ربعة دقيق العضل ممتقع اللون قاعد في مجلس اقارب الخليفة قعود من يريد الاستتار ويود الا ينتبه اليه احد ، لكن صلاح الدين لمحه فعلم من مجلسه انه من بعــض الامراء ولم يكن رآه من قبل •

ولما استقر بالجالسين المقام بدأ العاضد بالكلام وهو يومئذ شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره مع انه تولى الخلافة منــذ عشر سنين (سنة ٥٥٦ هـ) لانه كان عند مبايعته في الحادية عشرة من عمره، والذي يراه الان يحسبه في حدود الاربعين لكثرة ما كابده من الهموم وتحمله من الاحن • وكان لا يقع نظره على صلاح الدين الا ندم على استنجاده بنور الدين زنكي صاحب الشام !

* * *

لما جلس القوم ، وجه الخليفة كلامه الى نجم الدين قائلا : «عسى ألا يكون القائد نجم الدين قد تعب في اثناء الطريق» •

قال : «كلا يا سيدي ان سفري كان غاية في الراحة ؛ وخاصة لاني أتوقع التشرف بلقيا الامام أعزه الله» •

فابتسم الخليفة ابتسامة مصطنعة وقال : «اهلا وسهلا بكم قد نزلتم على الرحب والسعة • وقد امرت ان تعد لمقامكم منظرة اللؤلؤة وهي اجمل قصورنا بل احد متنزهات الدنيا فعسى ان تجدوا فيها راحة» •

فتأدب نجم الدين في مجلسه وأبدى الاحترام وأثنى على الخليفة ثناء كثيرا • ثم قال صلاح الدين : «ان تنازل مولانا الامير بالخروج للقاء والدي نعمة لا انساها له ؛ ونحن حينما كنا فاننا ندعو له بطول البقاء » •

فحك الخليفة عثنونه بسبابته وتناول قضيب الخلافة من فوق الوسادة التي الى جانبه (وهو قضيب مغشى بالذهب) وتشاغل بالنظر اليه• ثم سعل والتفت الى نجم الدين وقال : «كيف فارقت صديقنا الاتابك نور الدين ؟»

فأجاب وهو يتأطف قائلا : «فارقته في خير وقد حملني سلاما كثيرا ومودة لمولانا العاضد حفظه الله ، وهو يدعو بطول بقائه ودوام سلامته»•

قال : «اني مسرور من صداقته وأرجو دوامها» •

قال : «ان ذلك شرف عظيم له وقد كلفني ان ابلغ مولانا أعزه الله انه هو ورجاله في خدمته لنصرة الحق» •

فوقع هذا الكلام موقعا مؤلما من نفس العاضد لانه ذكره بالسبب الذي جره الى هذه المتاعب فانها تبدأ من استنصاره نور الدين • لكنه تجلد ، والتفت الى نجم الدين ، ثم قال : «لقد نصرنا غير مرة جزاه الله خيرا • وقد كفينا الان مؤونة الاستنصار بوجود ولدكم الملك الناصر »

وأشار الى صلاح الدين .

فقال نجم الدين : «ان ولدنا من مواليكم يا سيدي ولا يدخر وسعا في خدمتكم والاخذ بناصركم» .

فمد العاضد يده الى عنقه واستخرج عقدا من الجوهر يشبه العقد الذي في عنق صلاح الدين وقدمه الى نجم الدين وهو يبتسم وقال : «هذه هدية منا تتذكرون بها هذه الزيارة ايها القائد الباسل . وقد استحققت عندنا ان ندعوك (الملك الافضل) وستحمل اليك الالطاف والهدايا الى قصر اللؤلؤة ونوليك الاقطاعات السنية فانك اهل لاكثر من ذلك » .

فوقف نجم الدين وتناول العقد وهو يقبل يد الخليفة . ثم قبل العقد ووضعه في عنقه وهو يقول : «لقد غمرتني يا مولاي بنعم لا أستحقها . ان اللقب الذي خلعته علي فوق قدري و ...»

فقطع الخليفة كلامه قائلا : «بل انت الملك الافضل ، كما ان نجلك الملك الناصر» ، فكرر نجم الدين شكره وجلس متأدبا .

ولاحت من صلاح الدين التفاتة الى الكهل المتقدم ذكره فرأى في وجهه اهتماما وقد ابرقت عيناه وكادتا تتقدان من التفكير فشغله امره لحظة ، وأدرك الخليفة اشتغاله بذلك وأراد تحويل الاذهان عن هديته فوجه خطابه الى صلاح الدين وقال وهو يشير بيده الى ذلك الجليس : «أظنك لا تعرف الشريف ابا الحسن ، انه من أعمامنا . كان في سفر وقد جاءنا من عهد قريب» . والتفت الى ابي الحسن وقال : «لا أظنك تحتاج الى التعريف بوزيرنا الباسل ابي المظفر صلاح الدين» .

فأشار ابو الحسن بعينه ورأسه ويديه انه شاكر لهذا التعريف ، وانحنى كأنه يهم بالقيام فقال صلاح الدين : «سررت كثيرا بمعرفة هذا الشريف ويكفي انه متصل النسب بمقام الخلافة» .

وكان نجم الدين في اثناء ذلك ينظر الى ابي الحسن نظر المتفرس ولم يعجبه ما في سحنته من الدهاء وما في عينيه من المكر • لكنه تجاهل وتوجه الى الخليفة يبدي شكره على هذا التعريف •

ثم وضع العاضد قضيب الخلافة من يده على الوسادة ففهم القوم انه قد آن الذهاب ، فاستأذن نجم الدين بالانصراف وهم بوداع الخليفة • ثم تقدم صلاح الدين وودع الخليفة وأظهر انه يهم بتقبيل يده • فاجتذب الخليفة يده تلطفا •

خرج نجم الدين وابنه من مجلس الخليفة ورجالهما ينتظرونهما خارج القصر بالافراس والسلاح ، وفيهم الشاب عماد الدين الذي كان راكبا بجانب صلاح الدين في الموكب ، يختصه بالالتفاف لما يراه فيه من البسالة • وهو شاب في مقتبل العمر قلما يفارق ركاب صلاح الدين الا لامر مهم • ولم يكن يراه احد الا احبه لجماله وبسالته مع ذكاء وفصاحة • فلما خرج صلاح الدين صاح : «اين عماد الدين ؟» • فتقدم الشاب وعيناه تتكلمان قبل لسانه ، وقد لبس ثوبا من أثواب الحرس الخاص بصلاح الدين وهو مؤلف من سروال قصير ، وحول الخصر منطقة من جلد فيها عروة مذهبة ، وفوقها دراعة مطرزة بالقصب • وعلى رأسه عمامة صغيرة كالطاقية مزركشة بالقصب ، وقد علق بمنطقته سيفا قصيرا وغرس فيها خنجرا • فلما وقف بين يدي صلاح الدين قال له : «هلم بنا الى منظرة اللؤلؤة فقد أمر الخليفة ان ينزل والدي هناك وأنا انزل معه الان» •

فقام عماد الدين بارشاد الركب الى المنظرة على خليج القاهرة • فقطعوا الميدان بين القصرين ومروا بجانب القصر الغربي الى البستان الكافوري وانتهوا منه الى المنظرة على ضفة الخليج اليمنى اي من جهة قصور الخلفاء المتقدم ذكرها • وهي تشرف على الخليج من الغرب ،

ووراء الخليج غربا بركة كان يقال لها بطن البقرة ووراءها ارض الطبالة وبستان المقسي (الفجالة وباب الشعرية وما يليهما الان) ووراءها بركـة الازبكية الى مجرى النيل .

وكانت المنظرة المذكورة من اجمل متنزهات القاهرة ، انها حديقـــة تتصل بالخليج فيها الاشجار والرياحين والازهار . وفيها القاعـــات والمقصورات في اجمل ما يكون من الفرش الثمين الذي يشبه ما كان للخلفاء في قصورهم ، من ستائر الديباج المطرز بالذهب ، والبســط المحوكة بالذهب ، وسائر الآنية من العاج وخشب الصندل ، وفيهـــا الارائك والوسائد . وقد سرح في البستان مئات من الطيور الداجنة على اختلاف انواعها وألحانها بعضها في الاقفاص والبعض الاخر مطلق. وعلى ضفة الخليج مجالس من الخشب كالشرفات قد فرشت بالسجاد عليها المساند المزركشة وفوقها مظلات من الخشب تعرش على النبات ، وكل ما في المنظرة ثمين يستوقف النظر وناهيك بأنها كانت متنزها للخلفاء الفاطميين في ابان دولتهم .

وصل نجم الدين وابنه ومن في ركابهما من الحاشية ، فتلقاهم غلمان المنظرة بالاطياب والبخور ، فدخلوا الى قاعة كبيرة للاستراحة ومعهم بعض الخاصة من رجالهم . جلسوا ساعة لم يدر فيها من الحديث غير العام المتعلق بالاسفار وما قد يراه المسافر في طريقه من التعب او الراحة . وتخلل الحديث طبعا ذكر الافرنج (الصليبيين) الذين كانوا يومئذ اصحاب السيادة في نواحي سوريا وفلسطين وكثير من مدنها .

ثم مالت الشمس الى المغيب وقد أعدت مائدة العشاء ، فتناوله معهما طائفة من الخاصة وفيهم شمس الدين . فلما رفغوا من الطعام انصرف الخاصة كل منهم الى فراشه في المنظرة وتركوا نجم الدين وابنه علـــى حدة ، لعلمهم ان نجم الدين لم يأت الى مصر الا لامر مهم يريد ان يسره

الى صلاح الدين .

اختلى نجم الدين بابنه في غرفة أنيرت بالشموع الضخمة وفيها ما تزن عدة أرطال . وقد رأى نجم الدين في قصور القاهرة ما لم ير مثله في دمشق الشام . وما كاد يخلو بصلاح الدين حتى اتكأ على وسادة وأشار اليه ان يقعد بين يديه وقد تخففا بلباس الرقاد . وفي يد نجم الدين أنبوبة حرص عليها منذ بدل ثيابه .

فلما قعدا قال نجم الدين : «سرني يا يوسف ما رأيته من منزلتك عند هذا الرجل . ولكنني رأيتك لا تحترمه كثيرا وهو يرى نفسه خليفة وملكا » .

فضحك صلاح الدين وقال : «هل يخيفك يا ابي ان يرى نفسه كذلك ونحن نعلم انه اسيرنا وصنيعنا ؟»

فقطع نجم الدين كلامه قائلا : «ولكن الامر لم يتم لنا بعد فلا ضرر من المجاملة ومراعاة العادات الجارية . على انني اراك من الجهة الاخرى تحاذر غضب رجاله وأنصاره رغم ما يأتيك من لدن نور الدين في امر البيعة والدعوة للخليفة العباسي» . قال : «وكيف ذلك يا أبت ؟» . قال: «ألم نكتب اليكم منذ عام ان تدعو للخليفة العباسي على منابر القاهرة؛ ولماذا هذا التأخير ؟»

فأطرق صلاح الدين لحظة وقد ظهر الاهتمام في محياه ، ثم رفع بصره الى ابيه وقال : «تدعوني الى المجاملة ثم تعاتبني على تأخير الدعوة. وليست تلك الدعوة الا اعلان سيادة العباسيين على مصر وسقوط دولة الفاطميين . ولا يخفى عليك ما يكون من تأثير ذلك في نفس هـذا الخليفة المسكين . وما الذي يهمنا من مصر غير ان يكون لنا فيها الكلمة النافذة والصوت المسموع والريع المطلوب ؟ لنترك هذا الخليفة الشاب يفرح بألقاب الخلفاء ومجاملاتهم حتى نرى ما يأتي به القدر . ان اعلان

سيادتنا على مصر امر ميسور متى شئنا • وعهدي بك انك تحب التؤدة» •

قال : «نعم يابني ولكن نورالدين يلح في ذلك ، وقد وعد الخليفة العباسي المستنجد بالله ان يدعو له على منابر مصر • فلما تأخرت الدعوة بعث الخليفة اليه يستبطئه فكتب نور الدين اليك خطابا يستحثك فيه على ذلك • وقد أوفدني لتبليغك هذه الرسالة وهذا هو كتابه» • ودفعه اليه•

فتناول صلاح الدين الرسالة ، وقرأها ، وأكثر من الامعان في فحواها ولاسيما قوله بعد التحريض على اعلان الدعوة : «وهذا امر تجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت • ولاسيما ان امام الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من هم أمنيته» •

وأطال صلاح الدين النظر في ذلك الكتاب ، وأبوه يراقب ما يبدو في وجهه من التغيير وقد أدرك ما في خاطره فقال : «ما بالك يا يوسف وما الذي تحدثك نفسك به ؟»

قال : «تحدثني نفسي بأمر لا تجهله يا سيدي» •

قال : «لا بد من اعلان الدعوة العباسية ، هل ذلك صعب عليك ؟»

قال : «كلا • ولكنني اراك تتجاهل امرا اخر أضمره» •

قال : «فهمت مرادك انك تفكر في امر نور الدين ؛ وهل اذا اعلنت الدعوة في المساجد للعباسيين تكون مصر ملحقة بالشام تابعة لنور الدين ام ••• »

فأبرقت أسرة صلاح الدين ولمعت عيناه وأتم كلام ابيه قائلا : «أم لصلاح الدين وحده ؟»

فابتسم ابوه وقال : «انك تتعجل امرا لا بد من التؤدة فيه ، انما يهمنا الآن الدعوة» •

قال : «اما الدعوة فسننظر في امرها ولكنك لم توضح لي رأيك من

الوجه الاخر» . قال : «وما هو ؟» . قال : «انت تعلمه ولكنك تريد ان تسمعه من فمي فاسمع . اني قد دبرت امر مصر وضبطت شؤونها بسيفي وتدبيري وبسيف عمي من قبلي . ونور الدين قاعد في قصره بدمشق ومملكته واسعة ومماليكه كثيرون . فهل من العدل ان تكون مصر له ايضا ونبقى نحن من خدمه او قواده ؟. ما الذي يمتاز به نور الدين عنا. هل ابتاعنا بماله ؟ نحن لسنا من مماليكه . اننا قواد . وهـــذه مصر يستحيل عليه اخضاعها بدوني . فأنا لا أبايع للخليفة العباسي الا على ان اكون انا صاحب مصر وليس نور الدين» .

وما أتم كلامه حتى بان الغضب في جبينه مع الاهتمام ، وتفرس في وجه ابيه ليرى رأيه في ذلك . فابتسم نجم الدين وقال : «بورك فيك يا يوسف انك تطلب السيادة ، وأنت اهل لها ، ولكن لكل أجل كتاب».

قال : «احب ان اعلم رأيك ، ألا ترى لي حقا فيما اقول ؟»

فضحك نجم الدين ضحك استخفاف ، وعبث بلحيته يمشطها بأصابعه ثم قال : «ان الحق يا بني للقوة ، تلك هي قاعدة اصحاب السياسة ، والا لوجب علينا ان نخرج من هذا البلد ونتركه لاهله لان صاحبه انمـــا استنجد الاتابك نور الدين لينصره على رجل من خاصته تمرد عليه ، فأنجده بعمك اسد الدين وأنت معه ، وكان ينبغي لكما ان تخرجا من مصر بعد الفراغ من تلك المهمة وقبض ما تستحقانه من الاجر علـــى نصركما . فبقاؤك هنا سواء أكان باسم نور الدين ام باسمك انما هـــو جشع . وانما تعده حقا اذا كنت قادرا على تنفيذه فالحق هو القوة يا بني. تلك هي شريعة الفاتحين» .

وكانت حجة نجم الدين قوية الى درجة لم يقو معها صلاح الدين على المدافعة وكاد يفحم . لكنه طامع في البلد ويريد ان يتذرع بأية وسيلة كانت لبلوغ غايته . فنهض وهو يتشاغل باصلاح عمامته الصغيرة ، ثم

اخذ في فتل شاربيه وهو ينظر الى احد جدران الغرفة التي كانا فيها ويتأمل صورا ملونة مرسومة هناك لم يشاهدها من قبل • وكان بجانب كل صورة رف لطيف مذهب • فتقدم نحو الجدار وتفرس في الصور فرأى تحت كل صورة اسم صاحبها • واذا هم من شعراء الدولة الفاطمية الذين كانوا يفدون على الخلفاء في ايام مجدهم • وهنا تذكر حديثا سمعه عن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي . ذلك انه لما بنى منظرة بركة الحبش صور الشعراء على جدرانها كل شاعر وبلده : ونظم كل واحد منهم يومئذ قطعة من الشعر في المدح نقشوها عند رأسه في الصورة • وبجانب صورة كل منهم رف مذهب • فلما دخل الآمر وقرأ الاشعار امر ان يوضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده •

وقف صلاح الدين هنيهة عند تلك الصورة وهو غارق في الهواجس، فأدرك ابوه ما يجول في خاطره فسكت ليرى ما يكون منه : وتشاغل بالنهوض ايضا ثم أظهر انه يهم بالذهاب الى الفراش وصلاح الدين لا يستطيع رقادا قبل ان يوافقه ابوه على الطلب • فالتفت اليه وقال : «تمهل يا أبتاه • ان هذا الخليفة دعانا الى نصرته على الافرنج ، وأهل القاهرة انفسهم راسلوا نور الدين وبذلوا له ثلث بلاد مصر اقطاعا وان يقيم عمي اسد الدين عندهم وله الاقطاع هو ورجاله ايضا • لا ان يقضي مهمته وينصرف كما تقول • ثم نكث وزيره شاور ولم يف بما وعد فقتلته انا بيدي فصفا لنا الجو • ولو لم أقتله لم يكن لنورالدين اقطاع ولا ••• »

فقطع نجم الدين كلامه وهو يمشي نحوه وقال بلهجة الشيخ الوقور: «انك تخاصم نور الدين على غنيمة لا تزال في حوزة اصحابها ، ولا يحق التنازع بينكما عليها الا بعد اخراجها من قبضتهم • وهذا لا يكون الا

بنقل الدعوة من الفاطميين الى العباسيين ثم نرى بعد ذلك . وهـــذا يكفي الآن» .

وكان لنجم الدين نفوذ على ابنه مثل نفوذ السحر ، فاكتفى صلاح الدين بما سمعه وتحول وهو يقول : «أظنك في حاجة الى الرقاد يا ابي» . وأمر الخدم ان يهيئوا الفراش وذهب كل الى منامه .

- ٣ -

ابو الحسن والحشاشون

تركنا الخليفة العاضد في قاعة الذهب ، بعد خروج نجم الدين وابنه، ولم يبق معه الا ابو الحسن . فلما خرج الكرديان أمر الحاجب ان يأتي بصاحب اللباس لينزع عنه ثيابه وحلاه لانه في حاجة الى الراحة وألا يأذن لاحد في الدخول . فأتى صاحب اللباس وأخذ في نزع العمامة ومـا عليها من الجواهر ووضع كل قطعة في علبة خاصة بها وجاءت الوصائف يحملن الثرب الاخر ليلبسه الخليفة وقد تغيرت سحنته وانقبضت اساريره واحمرت عيناه وشعر ببرد طقطقت له اسنانه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فبادر ابو الحسن اليه فأسنده وبالغ في التخفيف عنه . ولكنه حالما لمس يده أحس بحرارتها ، فعلم ان الخليفة مصـــاب بالحمى لكنه لم يشأ ان يخوفه .

ولما فرغ الخليفة من تبديل الثياب ، القى نفسه على السرير وقد أحس بانحطاط عزيمته . فقال ابو الحسن : «بماذا يشعر مولاي امـــير المؤمنين» .

قال : «أشعر بارتعاد مفاصلي وببرد يتمشى في ظهري ، لا أظنه الا من عواقب الكظم وتحمل الضيم ، آه يا ابا الحسن» . قال ذلك بصوت مختنق وترقرق الدمع في عينيه .

فبادر ابو الحسن الى التهوين عليه فقال: «لكل أجل كتاب يا مولاي. ولا بد من زوال هذه الازمة» .

فقال وهو يلهث من شدة الحمى : «شعرت بهذه القشعريرة منذ ركبت في هذا الموكب لملاقاة هذا الكردي . آه كيف اقوى على احتمالهم وقد سلبوني ما في يدي من سيادة وثروة ؟ وأنا مع ذلك لا أقدر الا ان أجاملهم وألاطفهم وأرحب بهم» .

فمشط ابو الحسن لحيته بأنامله ثم قبض عليها وهو يتمتم كأنه يدعو او يصلي ويظهر التقوى وسعة الصدر وقال : «لا بد من الصبر يا مولاي ولا شك ان الله سامع دعاءنا . فاني أصلي ليل نهار وأطلب اليه تعالى ان ينصفك من هؤلاء الظالمين» .

فقال : «الى متى الصبر يا ابا الحسن . كأنك لم تعلم بما فعلوه معي. ولم تسمع الا مجاملتهم لي بالكلام ومخاطبتي بالامارة . انهم لم يتركوا لي من هذه الامارة الا لفظها . ان يوسف صلاح الدين هذا قد منع المؤذنين من الاذان بجملة (حي على خير العمل) كما كانوا يفعلون في دولتنا . وعزل قضاة مصر لانهم من شيعتنا وولى قضاة شافعية على مذهبه ، وقبض على مرافق البلاد بيد من حديد ، وتقول لي اصبر ! اين الصبر ؟» . قال ذلك وغص بريقه .

وكان ابو الحسن صفراوي المزاج لمفاويه ، لا يبدو في سحنته شيء من التأثرات مهما يبلغ من تأثيرها في قلبه . او لعل قلبه لا يتأثر الا مما يريده ، او هو قادر على التظاهر بما يشاء من غضب او فرح او حزن بغير ان يكون ذلك ناتجا عن تأثر قلبي . فلما سمع قول الخليفة تنحنح

وأظهر الاهتمام وقال : «لا ازال اقول لك اصبر . اتكل علي فاني باذل نفسي في سبيل هذا الامر وهو يهمني كما يهمك . أليست الدولة دولتنا والشيعة شيعتنا وفي حياتها حياتنا وفي موتها موتنا . ثق اني فاعل ما تريد ، ولولا خوفي من ان أثقل عليك لذكرت لك التفاصيل . لكنك الان في حاجة الى الراحة فامض الى فراشك اذا شئت . وسأقص الخبر على الشريف الجليس وهو يقصه على مولاي» .

قال الخليفة وهو يتململ من القشعريرة : «افعل . اني ذاهب الى دار النساء» . قال ذلك ونهض فأعانه ابو الحسن على القيام وأتى بعض الخصيان تعاونوا على حمله على محفة في دهليز يؤدي الى دار النساء، فودعه ابو الحسن وقال : «انا ذاهب بأمرك الى الشريف الجليس أقص عليه ما يسرك ثم يلحق هو بك الى دار النساء» .

فأشار الخليفة ان افعل . وكانت دار النساء قصرا قائما بنفسه لكنه يستطرق الى قاعة الذهب بممر مسقوف لانتقال الخليفة اليه متى شاء. وللقصر باب خاص عليه الحرس من الخصيان ، وكان رئيسهم من عهد غير بعيد خصيا يسمى مؤتمن الخلافة فأتى عملا أغضب صلاح الدين فقتله وجعل مكانه الطواشي بهاء الدين قراقوش احد رجاله المخلصين .

وحالما صار العاضد في تلك الدار انزلوه من المحفة ، فمشى وهو يتوكأ على بعض الغلمان وهم يظنونه يطلب الذهاب الى حجرة احدى نسائه . فاذا هو يشير اليهم ان يأخذوه الى حجرة اخته سيدة الملك ، وكانت عاقلة حازمة يرتاح العاضد لحديثها ويستأنس بآرائها . كأنه وهو في تلك الحال أحس بحاجته الى رأيها .

ساروا به في رواق يؤدي الى غرفتها وهي منفردة عن سائر غرف القصر ، ولما بلغها نبأ قدومه خرجت لاستقباله ، وأعانته على الدخول الى غرفتها فجلس على مقعد وهي تقول له : «ما بال امير المؤمنين ؟ ومـــم

يشكو ؟ روحي فداه» .

قال : «اشكو من برودة وقشعريرة . اصرفي الخدم ؛ فاني احب السكينة وألا يبقى في هذه الغرفة غيرنا» .

ففعلت . وكانت سيدة الملك جميلة الخلقة طويلة القامة صبوحة الوجه ذهبية الشعر جذابة المنظر اذا نظرت في وجهها شعرت بهيبة تتجلى في عينيها . وهي اكبر من اخيها الخليفة ببضع سنين اذ انها في الخامسة والعشرين من العمر .

فلما خلت به جلست بجانبه على السرير وطوقت عنقه بيدها وهي تقول : «مم يشكو اخي حماه الله من كل اذى . اذا اعتل امير المؤمنين اعتل الناس جميعا !»

فأسند رأسه الى كتفها وتنفس الصعداء وهو يقول : «اشكو حسب الظاهر من حمى تنتابني ، لكن العلة الحقيقية في هذا القلب» وأشار الى صدره . ثم ارخى يده من شدة الحمى فجستها فرأتها شديدة الحرارة فقالت : «هل ادعو لك الطبيب ؟»

قال : «كلا . ان هذه الحمى ستنصرف الليلة ، ولكن اذا كنت تعرفين طبيبا ينقذني من اولئك الاكراد فعلي به» .

فأظهرت انها تمازحه وقالت : «لو عرفت طبيبا في الهند وعلمت انه يشفيك لذهبت اليه بنفسي ولكن ..»

فرفع رأسه عن كتفها ليعاتبها بنظره . فوقعت عمامته فمد يده ليتناولها فتناولتها هي ووضعتها على رأسه فقال : «انك تتجاهلين يا سيدة الملك . انك أفطن من ألا تنتبهي الى مرادي» .

فضحكت وقالت : «هب اني فهمت مرادك فأنا لا ارى الامر يستوجب الاهتمام الى هذا الحد . اصبر لا بد من الفرج» .

فتنهد وهو ملق رأسه على كتفها ، وحول عينيه نحو وجهها وقال :

«لم اجد بين رجالي من يسعفني في هذا الامر الا ابن عمنا ابا الحسن فانه تقي غيور . وقد أكد لي انه باذل جهده في هذا السبيل» .

فلما سمعت اسم ابي الحسن اجفلت وكادت البغتة تظهر في وجهها لو لم تبادر الى التجلد . ولو اتنبه العاضد وهو مستلق على صدرها لشعر بتسارع ضربات قلبها حالما سمعت ذلك الاسم . لكنه تطرق شاغل من امر نفسه . اما هي فتجلدت وقالت : «كيف أكد لك ذلك ؟»

قال : «أكده لي اليوم وسيذكر تفصيله للشريف الجليس وهو يقصه علينا متى جاء بعد قليل» .

قالت : «هل تصدق هذا الرجل ؟» . وبان الكدر في عينيها .

قال : «كيف لا أصدقه . انه رجل محب مخلص ومن ذوي قرابتنا وأنت تعلمين غيرته على دولتنا» .

فهزت رأسها وسكتت ، ولسان حالها يقول : «انه منافق» .

فاعتدل العاضد في مجلسه لان الحمى اخذت في الهبوط واشتدت عزيمته ، وقبض على يد اخته وهو يقول : «ارى الحمى تخف وطأتها عني أليس كذلك ؟ انت يا سيدة الملك سيئة الظن في هذا الرجل منذ عرفناه لغير سبب او دليل ، فانه من ابناء عمنا . نعم انه ليس من أحفاد الحافظ لدين الله جدنا . ولكنه من أحفاد الآمر بأحكام الله فهو من أعمامنا» .

قالت : «فليكن ما شئت» . وتشاغلت بطرف ضفيرتها الذهبية تفتله بين اناملها وبان الغضب في وجهها .

فقال : «وما الذي يغضبك من ذكره ؟. انك تكرهينه بلا سبب وهو بعكس ذلك . لم أسمع منه الا التعلق بك . انه يتفانى في سبيل ارضائك » .

فنظرت اليه شزرا نظر العاتب وقالت : «أكثر الله خيره . اني لا ألتمس هذا الرضا» .

قال : «لا حاجة بنا الى التمسك بالرفض وهو ابن عمنا» .

فقالت بصوت المرتاب : «ومن يؤكد لنا صدق انتسابه الى الآمر ؟ ليس عنده دليل غير شهادته لنفسه .. دعنا منه انه لا يستحق هـذا الاهتمام » .

قال : «انك تظلمينه بهذا الحكم» . وأراد ان يتم كلامه فاذا بأحد الغلمان دخل ووقف فعلمت سيدة الملك انه آت بخبر فقالت : «ما وراءك؟» قال : «ان الشريف الجليس بباب القصر يطلب المثول بين يدي مولانا امير المؤمنين ، والطواشي بهاء الدين قراقوش يمنعه» .

فالتفتت الى الخليفة وسألته اذا كان يشعر براحة تؤهله لمجالسـة الشريف الجليس فقال : «اني اشعر براحة فليأت» .

فالتفتت الى الغلام وقالت : «امض الى الطواشي انبئه ان امـير المؤمنين هنا يريد ان يرى الشريف الجليس فلا يمنعه من الدخول» .

فمضى الغلام . وأحست سيدة الملك باستياء اخيها من معاملة بهاء الدين ولكنها تجاهلت . وبعد قليل جاء الجليس وهو شيخ طاعن فـي السن يجالس الخليفة ويؤانسه ويحدثه وهو مستودع اسراره .

فلما رآه الخليفة هش له وأمره بالجلوس بين يديه . ولم تحتجب سيدة الملك عنه لانه من المقربين وقد عرفته من صغرها ، فاكتفت بتغطية شعرها والالتفاف بمطرف من الخز فوق أثوابها وجلست على كرسـي بجانب سرير اخيها .

اما الخليفة فنظر الى الجليس نظر استفهام عما جاء به ، فأدرك هذا غرضه فقال : «جئت للسؤال عن صحة مولاي . فقد بلغني من الشريف ابي الحسن انك اصبت بحمى . لا أصابك الله بسوء وأرواحنا فداك» .

فابتسم وقد استلطف عبارة الجليس وقال : «اني بدعائك وحسن نيتك قد زال عني كل بأس ، جس يدي ، قد ذهبت الحمى . ما الذي

جئتنا به غير ذلك ؟» . فجس يده وأشار بعينيه اشارة الاقتناع وان لم يقتنع وقال : «نحمد الله على ذلك» .

فقال الخليفة : «قل ما الذي جئتنا به ؟» . قال : «خيرا ان شاء الله». وظهر في ملامح وجهه انه يكتم شيئا لا يستحسن ذكره بين يدي سيده الملك .

فأدركت ذلك ونهضت وقالت : «اذا كان وجودي يمنع الجليس من الكلام فاني خارجة» . فأمسك اخوها بثوبها وقال : «اجلسي . لست ممن يكتم عنهم ، تكلم يا عماه قل ما الذي جئت به ؟»

قال : «اني جئت بأمر ذي بال . هل تأذن ان اقول كل شيء ؟»

قال : «قل ولا تخف . ما الذي اطلعك عليه ابو الحسن من مساعيه في سبيل مصلحتنا ؟ انه محب غيور» .

قال : «اصبت يا سيدي ان أبا الحسن شديد الغيرة على منصب امير المؤمنين وهو ساع في انقاذنا من هذا العدو المقيم» .

قال الخليفة : «سمعته يقول ذلك لكنه وعد بتفصيله . فهل فصله لك ؟ »

قال : «فصله تفصيلا أعجبني» .

فتوجه الخليفة نحو الجليس بلهفة وقال : «وما هو ؟»

★ ★ ★

قال الجليس وهو يخفض صوته ويتطاول بعنقه كأنه يحاذر ان يسمعه احد : «يرى ابو الحسن يا مولاي ان العقدة التي يطلب حلها انما هي يوسف صلاح الدين هذا . فاذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور .. وأبو الحسن يسعى في انقاذنا منه» .

فقال العاضد : «وكيف ينقذنا ؟»

فأشار الجليس بكفه على عنقه اشارة الذبح يعني انه يقتله • فبان الاستغراب في وجه الخليفة وقال : «من يقتله ؟ ليس في مصر كلها من يجسر ان يمد يده اليه» •

قال : «ليست هذه خطته • انه سيقتل هذا الرجل بدون ان يعرف القاتل » •

قال : «وكيف يمكن ذلك ؟»

قال : «ألا يعرف مولاي جماعة الباطنية او الاسماعيلية !»

فأجفل العاضد عند سماع ذلك الاسم وقال : «نعم اسمع بهم وأسمع انهم من أنصارنا» •

قال : «اصلهم من شيعتنا ولكنهم الان قوم شغلهم القتل» •

فقطع الخليفة كلامه وقال : «ليس هذا شأنهم اليوم فقط • أظنك حدثتني عن أفعالهم غير مرة • ألم تقل لي انهم قتلوا الملك الافضل امير الجيوش وزير الآمر بأحكام الله • وكان رئيسهم يومئذ يدعى بهرام • وهم قتلوا نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي وقتلوا غيره ؟»

قال : «نعم يا سيدي ، لقد قتلوا كثيرين • هذا هو شغلهم» •

فقال العاضد : «من هو زعيمهم الان وأين هم ؟»

قال : «ان اصلهم يا سيدي من أتباع الحسن بن الصباح في زمن جدك الحاكم بأمر الله رحمه الله اي منذ اكثر من مائة وخمسين سنة• فأقام حسن هذا في قلعة ألاموت قرب قزوين • وألف جمعية من الفدائيين الذين لا يخافون الموت ، ويعرفون بالحششة او الحشاشين نسبة الى عقار مخدر يتناولونه يسمونه الحشيشة • وتوالى عليهم زعماء كثيرون في بلاد فارس والعراق والشام • وزعيمهم الان يقال له راشد الدين سنان يقيم في جبل السماق من أعمال حلب يعتصم هناك بالقلاع وعنده رجال مجربون يطيعونه حتى الموت • اذا أمر احدهم بقتل

ملك او سلطان بادر الى الطاعة حالا . وقد قتلوا كثيرين كما ذكرت . وللشريف ابي الحسن صداقة شخصية مع سنان هذا بالنظر الى نسبة الشريف وله عليه دالة ، فاذا امره ان يبعث رجلا يقتل هذا الرجل فعل».

فبان البشر في عيني العاضد يخالطه الاستغراب وقال : «وكيف يستطيع القاتل ان ينجو من هذا المعسكر . وكيف يصل الى يوسف ودون الوصول اليه سدود وعراقيل كما تعلم» .

قال : «ان هؤلاء الفدائيين يتنكرون عادة بألبسة السياس او الخدم ويختلطون بالخدم زمنا يترقبون الفرص فاذا سنحت فرصة فعلوا فعلهم ثم لا يهمهم ماذا يصيبهم بعد ذلك ولا يبالون بالموت لانهم يرون القتل في هذا السبيل حياة سعيدة» .

فالتفت الخليفة الى اخته يلتمس مشاركتها اياه في الاعجاب . فرآها مطرقة تفكر فقال لها : «أرأيت اهتمام هذا الشريف بمصلحتنا ؟»

فظلت ساكتة ولم تجب .

فالتفت الى الجليس وقال : «هل اخبرك متى يباشر هذا العمل ؟» فتشاغل الشيخ بحك عثنونه وسعل وتنحنح وبان الارتباك في عينيه فلم ينتبه الخليفة له . اما سيدة الملك فلم يفتها ما ينطوي تحت تلك الحركات ، فأخذت تختلس النظر وتصيخ بسمعها فاذا هو يقول : «انه مولاي يشترط علي هذا العمل شرطا واحدا . وان مولاي يعلم ان أبا الحسن عريق في النسب الشريف . وهو اكبر ابناء عمكم المرشحين لولاية العهد سنا ... و ...»

فلحظت سيدة الملك غرضه فبادرت قائلة : «أظنه يشترط ان يكون وليا للعهد بعد امير المؤمنين» .

فأجاب الشريف بسرعة كأنه يعتذر عن تطاول ابي الحسن قائلا : «ان طلبه هذا من قبيل الجنون . ولا معنى له لان مولانا امير المؤمنين اطال

الله بقاءه وعجل موتنا قبل ان يصاب بسوء ما زال شابا في مقتبل العمر، وأبو الحسن في حدود الكهولة . ولكنه يشترط ذلك ترضية لنفسه على تحمل تلك المشقة ، مع ما يحدق بها من الخطر . ومن يدري هل يبقى حيا يوما واحدا بعد تنفيذ مهمته ؟»

فقال الخليفة : «يشترط ان يكون ولي عهد الخلافة بعدي ؟»

قال : «أطال الله عمر امير المؤمنين . ان الرجل لا يرجو ان يتولـى الملك ولكنه يحب ان يتمتع بولاية العهد فقط على ما يظهر» .

فأطرق الخليفة وهو يعمل فكره ، والتردد ظاهر في عينيه ، ثم رفع بصره الى الجليس وقال : «وما رأيك ؟» . قال : «اذا أذن لي مـولاي فاني ارى ان يوليه الولاية ويشترط في عقدها ان تكون بعده الى نجلكم سيدي الحامد لله الامير داود ولي العهد الحقيقي ، فاذا استطاع انقاذنا من هذا الكردي واعادة النفوذ الى مولاي امير المؤمنين فانه يكون قد استطاع عملا لم يستطعه سواه وتكون ولاية العهد ترضية معنوية له» .

★ ★ ★

ولحظت سيدة الملك ان اخاها اوشك ان يقبل وظهر لها من خلال حديثه انه راض ان يزوجها به وهي لا تقدر ان تتصوره بل هي تكرهه كرها شديدا لغير سبب سوى الشعور الذاتي . فانها تتصور فيه الخبث والخيانة ، ثم هي منصفة لا ترى صلاح الدين يستحق القتل لانه لم يعمل عملا يستوجب ذلك ، وانما هي نعرة السيادة تحمل طلابها على انتحال الاسباب الباطلة . فنظرت الى اخيها وقالت : «تريد ان تقتل صلاح الدين وتستبدل به ابا الحسن هذا ؟ »

قال : «لا . لكنه اذا استطاع قتله سميته ولي العهد» .

قالت : «وماذا تفعل بداود ابنك ؟»

قال : «يكون وليا للعهد بعده» •

قالت : «ولماذا هذا العمل • ولماذا تريد التخلص من صلاح الدين ؟ وترتكب كل هذه الآثام والاخطار في سبيل قتله • ماذا فعل ؟»

قال : «تسألينني عما فعله كأنك لا تعلمينه ؟»

قالت : «ربما كنت أعلمه لكنني احب ان اسمع ذلك من امير المؤمنين » •

قال : «انه جعل كل النفوذ له ولم يبق لي من السيادة غير الاسم» •

قالت : «وهل كان النفوذ اليك قبله ؟ ألم يكن الوزراء هم اصحاب النفوذ ، وكلهم من الاجانب الارمن او الاتراك • وهذا كردي ، وما الفرق بينهم ؟»

فقال : «لكنه استبد وغير وبدل و ••»

فأحست انها فازت عليه بالبرهان ، فلم تصبر حتى يتم كلامه فقالت: «اذا كان قد استبد فانما استبد في رفع الظلم عن الناس • كانت المكوس لا تحتمل فرفعها او خففها • ألأجل ذلك تدس الدسائس عليه وتكيد المكايد لقتله ؟ ان الساعين في ذلك هم طلاب السلطة • وهم يحسدون الرجل على مكانته ، ولذلك يثيرون غضب امير المؤمنين عليه • واذا شاء اخي ان يعرف حقيقة منزلة هذا الكردي فليتذكر الطريقة التي استنجدنا بها سلطانه نور الدين • ألم ترسل شعورنا مع كتاب الى نور الدين تقول فيه : (هذه شعور نسائي في قصري يستعنن بك لتنقذهن من الصليبيين؟) فالرجل لبى الطلب وأنجدك بأسد الدين وابن اخيه هذا يوسف صلاح الدين • هل يستنجد قائد بطريقة أذل من هذه ؟ ان شعري لا يزال ينقص تلك الخصلة التي قطعتها منه» • قالت ذلك وجست ضفائرها كأنها تتحقق من ذلك • ثم عادت الى الحديث فقالت : «ومع ذلك فقد اشترطنا لنورالدين ان نعطيه ثلث البلاد اقطاعا غير اقطاع رجاله • ولما اتوا

وأنقذونا من الافرنج نسينا جميلهم وصار وزيرك شاور يدافعهم ويماطلهم فقتلوه . ويشهد الله ان صلاح الدين أحسن قلبا وأشد اخلاصا لك من شاور هذا . لكننا لم نستفد من هذا الحادث فشجعنا الخصي مؤتمن الخلافة قيم هذه الدار على مناهضة صلاح الدين ورجاله حسدا منه . ألا يعلم مولاي وأخي ماذا فعل مؤتمن الخلافة ؟ انه اتفق مع جماعة من المصريين على مكاتبة الصليبيين ليتحد معهم على قتل صلاح الدين . فهل فعل ذلك غيرة عليك او على الدولة ؟ وبلغ خبره الى صلاح الدين فقتله، فغضب خصيان القصر لمقتله لانهم سود من جنسه فاجتمع منهم خمسون الفا وناهضوا رجال صلاح الدين ، والتقى الجيشان امام هذا القصر ونحن فيه . لا انسى هول ذلك اليوم ولا انسى امير المؤمنين يومئذ وقد جلس في المنظرة يشرف على المعركة ، ويشجع العبيد . فاشتدت عزائمهم وخاف صلاح الدين ان تعود العائدة عليه وعلى رجاله ، فأمر النفاطين ان يرموا قوارير النفط المشتعل على المنظرة وعلى القصر و ...»

فقطع الخليفة كلامها قائلا : «ولكنني شجعت رجال صلاح الدين فأرسلت زعيم الخلافة يقول : (دونكم والكلاب العبيد أخرجوهم من بلادكم) . فامتنعوا عن ارسال النفط» .

قالت : «ولكنك لم تقل ذلك الا خوفا على المنظرة من الحريق» .

وكانت سيدة الملك تتكلم بحماسة وكل جوارحها تتكلم معها وقد توردت وجنتاها وأبرقت عيناها . فلما وصلت الى ذكرى الحريق امتقع لونها وتغيرت ملامحها كأنها فوجئت بذكرى محزنة فتوقفت عن الكلام . فاستغرب اخوها تغيرها فجأة والتفت الى الجليس فرآه ينظر اليها ايضا.

اما هي فتجلدت وعادت الى الكلام قائلة : «ولم يكن كلامك وحده الذي اوقفهم» .

قال : «وكيف ذلك ؟»

قالت : «دعنا من هذا الموضوع الان ، لان في تذكره ما يؤلمني ويؤلمك ، وأنت أحوج الى الراحة والسكينة» . وتشاغلت باصلاح نقابها على رأسها ، فجس العاضد يده وقال : «اني في خير ولا بأس بي وقد زالت الحمى والحمد لله . قولي ما هو السبب الاخر» . فمدت يدها الى جيبها واستخرجت خصلة من الشعر ذهبية من اون شعرها ودفعتها اليه وهي تقول : «هل تعرف هذا الشعر ؟»

فأجفل وقال : «هو شعرك. هذه هي الخصلة التي قطعتها من شعرك وأرسلتها في جملة شعور نسائي الى صاحب دمشق . من اين اتتك ؟ وكيف وصلت اليك ؟» . قالت : «وصلت الي في ذلك اليوم الذي نشبت فيه الحرب بين عبيدنا ورجال صلاح الدين !» قال : «وكيف ذلك ؟» قالت : «قد ذكرت انت الان ان صلاح الدين منع رجاله من ارسال قوارير النفط قبل ان ينطلق منها شيء على القصر . قد يكون هذا هو الواقع، لكنني أعلم اننا ونحن في هذا القصر وقلوبنا ترتجف هلعا والسهام تترامى علينا من رجال صلاح الدين رأيت قارورة مشتعلة وقعت في الدار قرب حجرتي هذه لا أدري من اين اتت ، فذعرت وصحت بالخدم ان يتلافوا خطرها فلم يسمعني احد لاشتغال الرجال برمي النشاب بعيدا عني . وبينما انا في ذلك وأهل القصر كل منهم في شاغل من نفسه ، اذ رأيت رجلا متنكرا بثوب الخصيان قد غطى وجهه باللثام وثب من داخل الدار لا ادري كيف دخلها . فذعرت ولكنني ظننته أسرع الى نجدتي فما عتمت ان رأيته أمسك بيدي وجذبني نحوه كأنه يريد ان أتبعه فتخلصت منه ، فعاد وأمسكني ثانية وجذبني اليه كأنه يريد ان يحملني ويطير بي. ولم يكن في هذه الغرفة احد يراني فصحت واستغثت فلم يسمع صوتي لان الضوضاء كانت قد ملأت هذا الفضاء ، ثم جاء رجل اخر اعان الاول على اجتذابي وهما يشيران الى ان أتبعهما ، وهددني احدهما بخنجر

استله من منطقته فأثر في ذلك المنظر وخارت قواي . وكدت أغلب على امري وقد ذهب نقابي وانحل شعري . واني لفي ذلك اذ رأيت شابا وثب نحوي يظهر من لباسه انه من رجال صلاح الدين فأيقنت انه سيعين ذينك الرجلين علي ، واذا به صاح بهما صيحة الجبارين وخنجره مسلول في يده وأوشك ان يقتلهما ، فلما رأياه خافا وتركاني وعمدا الى الفرار . وظل هو واقفا كالاسد ونظر الي بلطف وقال : «من هم اولئك الانذال ؟»

قلت : «لا أعلم . ومن انت وما تريد مني ؟»

فقال : «لا تخافي يا سيدتي اني من رجال صلاح الدين المحاصرين لهذا القصر ، ورأيت ذينك الرجلين يعذبانك وحالما رأيت شعرك الذهبي علمت انك من نساء الخليفة فبادرت الى انقاذك وأحمد الله اني قد فزت» .

فسألته : «هل يختشى علينا من الاحتراق» . فأكد لي انهم لم يلقوا نفطا علينا وانما كان ذلك من بعض اللصوص رموا النفط من جهة اخرى لغرض لهم . ولعلهم ارادوا ان يشغلوا الناس بالنار ويختطفوك» .

ولما وصلت سيدة الملك الى هذه العبارة تغيرت سحنتها وتوردت وجنتاها وبلعت ريقها وهي تلهث من التأثر .

وكان الخليفة والجليس يسمعان كلامها ويراعيان الحماسة التي كانت تتجلى في محياها ، ولحظا التغير الذي طرأ عليها عند ذكر ذلك الشاب ولم ينتبها لما يخالج قلبها من جهته . فلما سكتت قال العاضد : «من هو هذا الشاب وكيف عرف انك من نساء الخليفة ؟. انه لامر غريب كيف يعرفك شاب غريب وأنت لا تخرجين الا محتجبة ؟ وهو مع ذلك من رجال صلاح الدين . قولي الحق» .

قالت وهي تنظر اليه شزرا : «انك تتهمني يا امير المؤمنين . ولا مكان للريب . قد سألت هذا الشاب كيف عرفني فمد يده الى جيبه واستخرج

هذه الخصلة ودفعها الي وقال : (أليست هذه من شعرك) وأدناها من شعر رأسي فاذا هما بلون واحد» •

فابتدرها الخليفة قائلا : «مس شعرك بيده ؟»

قالت : «لم يمسه ولكنه ادناها من شعري • انه شاب غير متهم وأنا مدينة له بحياتي وشرفي ولولاه لذهبت فريسة ذينك الخائنين» •

قال : «ألم تعرفي من هما ؟»

قالت : «لم اعرفهما يقينا ، ولكنني كدت أعرف احدهما» •

قال : «من هو ؟» • قالت : «لا اقول • لاني اخاف ان يخطىء ظني فأجلب الاذى لرجل بريء • ولولا ذلك لاطلعتك على هذا الحادث من ذلك اليوم وقد مضى عليه الان اكثر من سنة ، ولم أذكره لك لئلا ألقي الشك في خاطرك» •

فصاح العاضد وقد امتقع لونه من شدة الغضب : «لماذا لم تخبريني حتى الان • أيصيبك مثل هذا الامر وتكتميه طول هذه المدة ؟ من تجاسر على هذا العمل ؟• من تظنين ذلك الرجل ؟ قولي»

قالت : «لا تغضب يا اخي • اني لم اقل ولا اقول الان خوف الوقيعة بالابرياء وقد نجوت والحمد لله • ولكنني قصرت في حق ذلك الشهم الذي أنقذني» • قالت ذلك وأبرقت عيناها ، ولو تفحص اخوها صدرها لرأى قلبها يخفق خفقانا سريعا • لكنه لم يفقه ذلك فقال : «لا تعرفين اسم الذي انقذك ، من هو ؟»

قالت : «لم اسأله عن اسمه وكنت أتوقع ان يأتيك في اليوم التالي ويقص عليك ما وقع فتكافئه ، انه لم يفعل • وأنا لم أتسكن من رؤيته، اما هو فبعد ان اطمأن علي وتحقق نجاتي من الخطر دفع الي هذه الخصلة وهو يقول : (خذي يا سيدتي هذه الخصلة من شعرك ، صيانة لها من ان يمسها غير مستحقيها • ولم يكن يجدر بالخليفة ان يرسلها وسيلة

للاستغاثة» . قال ذلك وانصرف مسرعا سرعة البرق ولم اعد اراه من ذلك الحين» .

★ ★ ★

غلا صدر الخليفة من شدة الحنق ونسي ضعفه في ذلك اليوم ، ونهض بسرعة فقبض على الخصلة واجتذبها من يد سيدة الملك وجعل يتفرس فيها ويقابلها بسائر الشعر فاذا هي منه فالتفت الى الجليس وقال: «ماذا ترى يا عماه ؟» كيف يدخل الغرباء قصري ومعهم شعور نسائي . ولكن آه ! انا المذنب لاني تسرعت في الاستغاثة فأرسلت شعور نسائي الى صاحب دمشق ولكن كيف وصلت هذه الخصلة الى هذا الشاب وكيف احتفظ بها حتى عرف صاحبتها ؟»

وكان الجليس يسمع ويرى وقد اخذته الدهشة فلما رأى غضب الخليفة وشدة تأثره قال : «خفف عنك يا سيدي . لكل شيء سبب ولا يهمنا سبب وصول هذه الخصلة الى ذلك الكردي بقدر ما يهمنا معرفة الرجل المتنكر الذي اراد اختطاف مولاتي سيدة الملك . من يجسر على ذلك ؟ »

فالتفت العاضد الى اخته وقال : «قولي . قولي من تتهمين ؟.. من هو ذلك النذل الذي تجاسر على دخول قصري وخرق حرمتي ؟» قال ذلك وهو يلهث وقد احمرت عيناه وأرجع الخصلة اليها ورجع الى مقعده وقد أحس بانحلال قواه .

فتقدمت اخته نحوه وأخذت تخفف عنه وتمسح جبينه وتقول له : «لا تغضب يا اخي . اسمح لي ألا اذكر اسم الرجل الذي أتهمه لاني اتهمته بالظن وبعض الظن اثم . وأنا واثقة ان هذه التهمة مهما تكن

ضعيفة فهي تكفي لايقاع الاذى بصاحبها • فحرام علي ان أعرض نفسها للهلاك » •

قال : «وحياة رأسي ألا قلت من هو ذلك الخائن وأعدك ألا أسارع الى الانتقام الا بعد التبصر» •

فأطرقت وهي تصلح نقابها على رأسها ، ثم جعلت تلاعب خصلة الشعر بين اناملها وأخوها شاخص فيها ينتظر نطقها ، فلما استبطأ جوابها قال : «ما بالك لا تقولين ؟» • قالت : «بالله دعني • سأقول لك ذلك بعد الان ، دعني أفكر قليلا ••»

فالتفت الشيخ الجليس الى العاضد وقال : «دعها يا مولاي الان ولا تغضبها • وستقول لنا • وليس في الامر ما يدعو الى العجلة ولنرجع الان الى ما كنا فيه من امر النجاة من هؤلاء الاكراد • ماذا رأى مولاي فيما عرضه علينا ابن عمه ابو الحسن ؟»

فلما سمعت سيدة الملك ذلك الاسم مرة اخرى اقشعر بدنها ولكنها تمالكت وصبرت لتسمع ما يقوله اخوها فالتفت الى الجليس وقال : «هو يعدنا بقتل الرجل ويطلب ولاية العهد مكافأة له • فنحن نعده بذلك» •

قال : «وعد امير المؤمنين يكفي وقوله حجة لكن ابا الحسن لا يصدقني فهل تكتب له كلمة ؟»

قال : «لا • لا • يكفي ان تقول له ذلك شفاها» •

فقال : «حسنا ، سأقول له ذلك ، ولكن هناك ••» • وسكت وهو يتشاغل بحك لحيته كأنه يكتم امرا اخر يخاف المجاهرة به •

فقال العاضد : «ولكن هناك ماذا ؟ قل» •

قال : «اخاف ان تغضب سيدتي الاميرة لانها •••» • وسكت •

فقالت : «ما الذي يغضبني ، كيف عرفت انه يغضبني ؟»

فتبسم وقال : «قد ادركت من حديثك انك لا تحبين ابا الحسن» .
فابتدرته قائلة : «ولماذا احبه ، وهل هو يتطلب مني ذلك ؟»
قال : «لا . لكنه يلتمس التقرب من امير المؤمنين والتشرف بـ ..»
قالت : «بماذا ؟»
فالتفت الجليس الى العاضد وقال : «هل اقول يا مولاي ؟»
قال : «قل بماذا يريد ان يتشرف ؟ أظنني علمت مراده لانه طالما لمح الى ذلك في حديثه معي ، والحق يقال انه كفؤ لما يطلبه ..»
وتنحنح ، ثم حول وجهه نحو سيدة الملك .
وتنحنح ، ثم حول وجهه نحو سيدة الملك .
فأدركت ما يعنيه . وكان قد ذكر لها مرة قبل هذه رغبة ابي الحسن في الزواج بها فرفضت . فلما سمعته يشير الى ذلك تجاهلت وقالت : «أفهم مرادك . ماذا تعني ؟» . قال : «أظنك فهمت ما أعنيه» . والتفت الى الجليس وقال : «ما هو رأيك في هذا الامر يا عماه ؟» اني لا ارى اكفأ من ابي الحسن لأختي» .
فاعتدل الجليس في مقعده وقال : «لا ريب انه خير كفء لما يتصل به من النسب الشريف ، فضلا عن تعقله ودهائه . ويكفي ما رأيناه من تفانيه في مصلحة مولاي لانقاذه من هؤلاء القوم . والذي اراه ان نوافقه على هذا الطلب فيهون عليه السكوت عن الشرط الاخر . أعني اذا كان جواب مولاي من حيث خطبة مولاتي له بالايجاب لا أظنه يشدد في طلب الشرط بولاية العهد بل يكتفي بهذا لانه شديد الاحترام لسيدة الملك ، ويعد حصوله عليها منة كبرى . وعند ذلك يكون هو عونا لنا فيما نريد بلا شرط» .
فلما سمعت سيدة الملك ذلك التصريح قالت وهي تتصنع خفض صوتها : «هو يطلب ان يتزوجني وأنت تستحسن ذلك ؟ وأحب ان أعرف

رأي اخي امير المؤمنين ايضا» .

فظنها تعني ما تقوله حقيقة وهو يريد ان تقبل طمعا في النجاة من صلاح الدين فقال : «وهذا هو رأيي ايضا كما تعلمين من قبل» .

فأجابت ببرود : «لكنه ليس رأيي انا» . وحولت وجهها عنه .

فقال العاضد : «يظهر انك ما زلت على خطتك . ان أبا الحسن ليس في اهلنا جميعا من هو اكفأ منه لك ــ هذا الى تفانيه في خدمتنا» .

فقالت : «اني لا اطلب كفؤا ولا غير كفء ، قلت لك من قبل اني لا اطلب الزواج . دعنا من هذا الان ، وليطلب النصيب من طريق اخر» .

فقال الجليس : «ولكن يا سيدتي ، اذا قبلت فانك تخدمين مصلحة مولانا امير المؤمنين لان أبا الحسن أقدر انسان في الدنيا على انقاذه» .

قالت وهي تنظر اليه نظر الاستخفاف : «ان ابا الحسن كاذب ، انه لا يستطيع شيئا من ذلك» .

فضحك الجليس ضحك استعطاف وقال : «قد ظلمته بهذا الحكم يا سيدتي لاني على يقين من تفانيه في خدمة مولانا ، وهو صادق الغيرة على شرف آل البيت لانه من صميمهم» .

فقالت : «وهو كاذب في هذا ايضا . ان آل البيت عرفوا بصدق اللهجة والاخلاص وهذا رجل منافق وكفى» .

فامتعض العاضد من حكمها بهذه الصراحة وقال : «لا دليل على ما تقولين غير قولك ، وقد عرفت الرجل منذ بضعة أعوام ولم أر منه الا كل مودة واخلاص ، ولا أعلم كيف جاز لك الحكم عليه بالكذب والنفاق ؟»

قالت : «اما انا فأعلم . وستبدي لك الايام صدق قولي . أظنك قد تعبت يا اخي وأتأسف لاننا شططنا بالحديث الى هذا الحد . وأنت منحرف المزاج فاذهب الى فراشك وسترى في الغد اني اقول الحق» .

وكان العاضد قد تعب فعلا وكان لقولها تأثير شديد فيه .. فرأى

ان يطيعها ويؤجل الامر الى فرصة اخرى • فنهض ونهض الجليس وذهب كل الى فراشه والخليفة أحوج الجميع الى الرقاد •

★ ★ ★

كان الجليس أقلهم رغبة في الرقاد لما اصابه من الفشل في المهمة التي كلفه ابو الحسن بقضائها • وكان الجليس شيخا حسن الظن قد استهواه ابو الحسن بدهائه ومواعيده ، وأقنعه ببرهانه وذلاقة لسانه ان انتقال ولاية العهد اليه خير للدولة وله ولكل من فيها • ولم يكن عند الجليس شك في اقتدار ابي الحسن على انقاذ الدولة من صلاح الدين • فلما كلفه بهذه المهمة سعى فيها من كل قلبه وصمم على ترغيب العاضد فيها وهو يعتقد انه يخدم بها مصلحته •

فلما عاد بالفشل اصبح لا يدري كيف يبلغ ابا الحسن نتيجة تلك المهمة فأعمل فكرته في تلطيف الاسلوب حتى لا يثقل الامر عليه •

وكان ابو الحسن نازلا في دار الاضياف على مقربة من القصر الغربي وهي دار كبيرة كانت في الاصل قصرا للمظفر بن امير الجيوش اقام بها حتى توفي فجعلت دارا لاضياف الامراء والوافدين من قبل الملوك، ويتولاها نائب يسمى عدي الملك ينوب عن صاحب الباب في لقاء هؤلاء الضيوف وينزل كلا منهم في دار تصلح له ويقيم له من يقوم بخدمته • ثم صار صاحب دار الاضياف يسمى في الدولة التركية «المهمندار» •

وكان عدي الملك كثير العناية بابن الحسن لما رأى من تقربه الى الخليفة ومنزلته عنده ، فأفرد له دارا خاصة وأمر الغلمان بخدمته • وكان ابو الحسن قد سحره بمظاهراته وبما يقصه عليه من اقتداره وعلو منزلته • والدولة في اواخر ايامها تروج فيها السفاسف والمظاهرات ويتعلق

اصحابها بالاوهام دون الحقائق وبالقشور دون اللب . ويشتغل كل منهم بنفسه ويصبح همه الاحتفاظ برزقه ورزق اهله وهو يتوقع زوال الدولة فلا يرجو ضمان ذلك فيها فتطيش آماله وتتعلق بأضعف الاسباب وأوهى المواعيد . والانسان اذا تولاه اليأس في امر صدق كل قول يعيد اليه الامل ولو كان ذلك القول من المستحيلات . ويتكاثر اهل الدسائس في مثل هذه الحال للاصطياد في الماء فيزينون القول ويزوقون الاعمال فيصبح اكثر معول الناس على الظواهر .

وكان ابو الحسن من اولئك الصيادين ، وهو من اهل الدهاء والذكاء قوي الحجة لا يبالي بما قد يرتكب في سبيل الوصول الى غرضه من قتل او كذب او تملق او تزلف . والذكي الداهية اذا اغضى عن مراعاة الذمة وصدق النية لا يعجزه الوصول الى ما يبغيه من الاغراض . وكـــان ابو الحسن طامعا في الخلافة او ولاية العهد على الاقل كما تبين لك من حديث الجليس الشريف . فاتخذ كل وسيلة تؤديه الى ذلك الغرض . ومن جملة ذلك طلبه التزوج بسيدة الملك لعلمه بنفوذها على اخيها ولان انتسابه الى العلويين يتأيد بزواجها . حتى انه يفضل التزوج بها اولا فيسهل عليه هذا كل ما يبغيه . لكنها لم تكن تحبه ولا تخلص له ولا كانت تعتقد صحة نسبه .

وفي الصباح التالي بكر الجليس الى ابي الحسن في دار الاضياف، قبل ان يطلبه الخليفة لمجالسته . وكان ابو الحسن في انتظاره على مثل الجمر لكنه حالما جاءه الغلام ينبئه بمجيئه نهض لاستقباله ورحب به وأظهر انه لم يكن يتوقع مجيئه واهتمامه الى هذا الحد فابتدره بالسؤال عن صحة الخليفة فقال : «فارقته مساء امس احسن حالا» . قال : «ارجو ان يكون العارض قد زال بحول الله بزوال السبب» .

فأدرك الجليس غرضه فقال : «ارجو ان يزول السبب تماما وعنـد

ذلك تتحقق زوال المسبب» . قال : «ان السبب لا بد من زواله باذن الله. وهل تظنني أرجع عن هذا الامر ؟ اني افعل ذلك لمصلحة امير المؤمنين. وأنا احبه وأحترمه لا لغرض يهمني» .

فأعجب الجليس بطيب عنصره وازداد خجلا من التصريح له بما جرى امس . ولحظ ابو الحسن سبب ارتباكه لانه كان يتوقع رفض الخليفة طلبه ، ويعلم ان سيدة الملك لا تقبل خطبته من اول طلب ، فتجاهل ونظر الى الجليس وهو يظهر السذاجة وسلامة النية وقال : «انما ارجو ان يطمئن مولانا امير المؤمنين منذ الان انه ناج من كل شر ليرتاح خاطره ويسترجع صحته . هل اقنعته بذلك ؟»

قال : «أكدت له عزمك وهو يعتقد اقتدارك على هذا الامر لكنه». وتشاغل بحك لحيته وقد ارتج عليه .

فابتدره ابو الحسن قائلا : «أود انك لم تفاتحه بما كنا تحادثنا بـه البارحة من حيث ولاية العهد لئلا يظنني أعلق اهمية على هذا الشرط. اني لم أعن اشتراطه ولا جعلت نجاة الخليفة متوقفة على انقاذه لكنني متى وفقت الى انقاذه لا أظنه الا فاعلا ذلك من نفسه» .

فلم يصبر الجليس الى اتمام كلامه فقاطعه قائلا : «بارك الله فيك وهذا ما كنت أتوقعه من أريحيتك ولكنني صرحت بالامر ، و ..»

فأسرع ابو الحسن قائلا : «ولا شك ان الامر شق عليه ، لانه غريب علي خاطره . ولكن هل ذكرت ذلك في جلسة سرية ؟»

قال : «لا . لم أوفق الى ذلك ، اذ قضت الاحوال ان اذكره له وهو في دار الحريم و ...» . فقال ابو الحسن مسرعا : «وفي حضور اخته على ما اظن» . قال : «نعم هكذا حصل» . فقال : «لا بد انها كانت اكثر استغرابا منه . انا لا الومها على ذلك كما اني لم ألم اخاها . ولعلك ذكرت لهما شيئا اخر غير ولاية العهد» . قال ذلك وهو ينظر في عيني

الجليس ويظهر المداعبة . فابتسم الجليس وقال: «نعم ذكرت لهما وتكلمت بما يمليه علي اخلاصي لك» .

قال هذا وبلع ريقه فعلم ابو الحسن ان جوابها لم يكن بالرضا ولولا ذلك لاتنهج الجليس أسلوبا اخر في التبليغ فرأى ابو الحسن ان يغطي فشله بالدهاء فقال : «أتمنى ان تكون قد ترددت في اجابة هذا الطلب ايضا» . فاستغرب تمنيه وقال : «نعم ترددت قليلا ، وأظنها أجلت الحكم في ذلك الى ما بعد انقضاء هذه الازمة او ...»

قال : «كن صريحا يا عماه . انها رفضت وقد تكون عالقة القلب بأحد ؛ او .. فليكن ما تريد . انا لا أعتب عليها ولكني أعتب على اخيها الخليفة فانه مطالب بسيرة اخته وسمعتها» .

قال : «اؤكد لك ان امير المؤمنين حسن الظن بك» . فقال ابو الحسن وهو يتشاغل بتمشيط لحيته : «يكفي . كنت احسبها عاقلة كما يقولون ولكن يظهر انها لا تعرف مصلحة نفسها ولا اوم علي بعد الان» . لا أعني اني أكف عن فداء امير المؤمنين بدمي . ولكنني لا ارى وجها للرفض . الا ان تكون مشغولة ببعض الرجال فهذا شيء اخر» .

قال : «كلا لكنها قالت انها لا تريد الزواج» . فضحك ابو الحسن وهو ينهض من مجلسه وقال : «لا تريد ان تتزوج ؟! هذا كلام غير معقول . ولكنها سترى نفسها مضطرة للزواج بغيري وتندم» .

فنهض الجليس لنهوضه وصبر ليرى ما يريده فقال ابو الحسن : «أظنني أخرتك عن مجالسة امير المؤمنين وقد يكون في حاجة اليك فأرجو ان تؤكد له اني مقيم على ولائه أفديه بروحي ، ولا تذكر له شيئا عن سيدة الملك . انما اقول سامحها الله لانها لم تحسن المعاملة» .

فودعه الجليس وهو معجب بطيب سريرته وعلو همته وسعة صدره وعاد الى منزله ينتظر امر الخليفة .

- ٤ -

سيدة الملك

ما كاد ابو الحسن يخلو بنفسه حتى رفس الارض برجله من الغضب، وقد اخذ الحنق منه مأخذا عظيما وتمشى في الغرفة . ويداه متعانقتان وراء ظهره وهو يعمل فكرته ، ويتشاغل حينا بالنحنحة او السعال او بحك ذقنه او يصلح عمامته . ثم وقف وقال يخاطب نفسه : «رفض العاضد ان اكون ولي العهد بعده . لكنه سيراني خليفة . وأما تلك الملعونة اخته فانها ما زالت ترفض الزواج بي وان رفضها هذا لأشد وطأة على نفسي من رفض الخليفة ، لكنها ستندم وتعود صاغرة متى رأت ما يبلغ من كيدي. سوف تأتيني صاغرة باكية . وأظنها تحسبني مغرما بها واني أريد التزوج بها عن شغف بجمالها . لست ممن يتعلقون بهذه الاوهام . ليس في قلبي حب لاحد . لا احب احدا . ان حب النساء من الاوهام الباطلة التي تصرف الرجل عن المطالب العالية . اني اطلب ما يقصر عنه اخوها الخليفة نفسه . سأقتل صلاح الدين ولكن ليس اكراما لها ولا لاخيها. سأقتله ليخلو لي الجو . سأقتله وأقتل العاضد وأقتل كل من يقف في سبيل وصولي الى الخلافة . انها حق لي» . قال ذلك وكاد صوته يرتفع من عظم التأثر فانتبه لنفسه وسكت .

ثم مشى الى غرفة داخلية أقفل بابها وراءه وقال وهو يشير بيده اشارة التهديد : «اما تلك الخائنة فسأذيقها مر العذاب . سأجعلها تندم ولات ساعة مندم» .

ثم اشتغل بتبديل ثيابه وهو يعمل فكرته في تدبير الحيلة لاغاظة سيدة الملك قبل كل شيء . فلما فرغ من اللبس أمر بالبغلة فأتته وركب

الى حيث يقيم صلاح الدين ووالده ورجال حاشيته • وفي جملتهم رجل يقال له ضياء الدين عيسى الهكاري من الامراء الصلاحية كبير القدر كان صلاح الدين يعول عليه في الآراء والمشورات • وكان في مبدأ امره يشتغل بالفقه بمدينة حلب فاتصل بالامير اسد الدين عم صلاح الدين وصار امامه يصلي به • فلما توجه اسد الدين الى مصر مع بهاء الدين قراقوش صحبهما عيسى هذا وكان مخلصا لصلاح الدين • فلما توفي اسد الدين اتخذ عيسى وقراقوش على تنصيب صلاح الدين موضعه في الوزارة ودققا الحيلة حتى بلغا المقصود • فلذلك كان لعيسى دالة على صلاح الدين يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره وكان من الجهة الاخرى علوي النسب فكان له مع ابي الحسن صداقة • وكان عيسى يحاسن أبا الحسن وفي نيته انه سيحتاج الى استخدامه في مصلحة صلاح الدين فكان يكرمه ويرحب به وصلاح الدين لا يعلم • لان أبا الحسن كان يجتنب الاجتماع بصلاح الدين • وكان عيسى الهكاري في ذلك الحين في منظرة اللؤلؤة يجالس صلاح الدين ويباحثه ويرشد أباه نجم الدين الى ما يسهل عليه المهمة التي جاء من اجلها الى مصر •

ركب ابو الحسن الى منظرة اللؤلؤة لا يريد دخولها ولكنه كان يعلم ان ضياء الدين الهكاري يختلف الى هناك في تلك الايام فتوقع ان يراه في الطريق فيظهر انه التقى به مصادفة ليهون جره في الحديث عفوا الى الغرض المطلوب • وكان يعلم ايضا انه يتردد الى دار العلم بجوار القصر الصغير • ودار العلم هذه انشأها الحاكم بأمر الله وجمع فيها الكتب وجعلها مباءة لطلاب العلم للمطالعة او النسخ • وفيها الاقلام والمحابر • ووقف على ذلك اماكن ينفق على دار العلم من ريعها • وكان يجتمع فيها العلماء للمناظرة والمجادلة فأصبحت في ايام الافضل ابن امير الجيوش مجتمعا للمجادلة الدينية الخطرة فأمر الافضل بمنع الجمهور من دخولها•

لكنها ظلت تحتوي على كثير من كتب الفقه والتاريخ فمن احب من الخاصة ان يطالع شيئا منها أذن له ، فكان الهكاري من جملة المترددين الى هناك .

فلما دنا ابو الحسن من منظرة اللؤلؤة سأل بعض الخدم عن الهكاري فقيل له انه ذهب الى دار العلم . فحول شكيمة البغلة الى هناك وأظهر انه ذاهب لغرض اخر غير ملاقاته . فلما وصل الباب منعه البواب من الدخول لانه لا يعرفه ، فلم يعرفه بنفسه بل قال : «احب الاطلاع على بعض الكتب وأعود» . فقال : «ذلك لا يجوز يا سيدي» . فقال : «كيف لا يجوز وقد علمت ان رجلا دخل هذه الدار منذ هنيهة ؟» فقال : «هو الفقيه ضياء الدين» . فأظهر ابو الحسن الاستغراب لوقوع هذه المصادفة وقال : «الفقيه ضياء الدين هنا ؟ انه صديقي .. استأذنه في الدخول اليه» . قال : «من اقول له ؟» . قال : «قل له ابو الحسن يطلب الدخول» .

فذهب البواب ثم عاد ومعه ضياء الدين . فلما وقع نظره على ابن الحسن أسرع اليه ورحب به فتحول ابو الحسن عن البغلة ودخل مع الهكاري وهو يتظاهر انه فرح بهذه المصادفة . وكان ضياء الدين يلبس زي الاجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فجمع بين اللباسين فلما التقيا قال ابو الحسن مداعبا : «انك قد جمعت بين زي الجند وزي الفقهاء فهل انت فقيه الان او جندي ؟»

قال : «اني فقيه في بحثي الان» .

قال : «اما انا فقد طلقت الفقه وانما جئت للمطالعة في بعض الكتب لغرض علمي» . قال ذلك ومشى فدخل ضياء الدين معه وهو يقول : «تفضل ادخل ، لعلك تبحث في مسألة لغوية ؟» . قال : «كلا اني لا ارى ذلك نافعا الان ولكنني اطلب مسألة تاريخية ، احب الاطلاع على تاريخ

السلاجقة فان هؤلاء القوم أشداء ولهم تاريخ مجيد» .

فالتفت ضياء الدين اليه وقال : «أظنك تحب البحث عن سبب مقتل نظام الملك . مسكين !» . قال : «لا . فان قاتله من الاسماعيلية اصحاب شيخ الجبل .. أليس كذلك ؟. ليس لهذا جئت . ولكنني أريد الاطلاع على اصل هذه الدولة» .

قال : «اتبعني الى خزانة كتب التاريخ» .

* * *

مشى ابو الحسن في أثره حتى أدخله غرفة فيها رفوف عديدة رتبت فيها الكتب حسب منوعات العصور . وساعده ضياء الدين حتى جمع له بضعة كتب تبحث في الدولة السلجوقية ومبدأ امرها . فتناولها ابو الحسن وأخذ يقلب فيها وهو يقول : «فتش معي عن كتاب فيه ترجمة طغرل بك مؤسس هذه الدولة انه كان رجلا شديدا» .

وبعد البحث وقف ضياء الدين على كتاب فيه سيرة طغرل بك دفعه اليه فتناوله ابو الحسن وهو يقول : «أظنني شغلتك عما جئت لاجله» .

قال : «كلا بل انا في غاية السرور من هذه المصادفة لاني احب ان أعرف تاريخ هذا الرجل مؤسس هذه الدولة التي ملأت الدنيا فتحا . تفضل اقعد» . وأشار الى طراحة على مقعد بالقرب منه . فقعد ابو الحسن وقعد الهكاري بين يديه وأخذ كتابا اخر دفعه اليه ابو الحسن فجعل يقلب اوراقه وعيناه في الكتاب الذي يقرأ ابو الحسن فيه . فرآه وقف عند صفحة وجعل يقرؤها ويعيد قراءتها ويهـز رأسه اعجابا او استغرابا . ثم قلبها وقرأ غيرها حتى فرغ من الكتاب فوضعه بجانبه وتناول غيره . فاشتاق ضياء الدين الى مطالعة الصفحة التي رأى ابا الحسن يحدق فيها . فتناول الكتاب وهو يتوهم انه فعل ذلك خلسة

وأبو الحسن لا يعلم . ففتح تلك الصفحة فاذا هي تبحث في خطبة طغرل بك لابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٥٤ هـ وكيف ان السلطان طغرل بك وهو تركي طلب ان يتزوج بابنة هذا الخليفة مما لم يجسر عليه احد قبله . وان بعض القضاة أخبر الخليفة يومئذ ان غرض السلطان من هذا الزواج ان يأتيه من بنت الخليفة غلام فيه الدم العباسي . فيوليه الخلافة بهذه الحجة وتتوالى الخلافة في أعقابه وتخرج من العباسيين . وان الخليفة انزعج لهذا الطلب واستعطف السلطان ان يعفيه من الاجابة الى طلبه . فأبى الا ان يجاب بحيث اضطر الخليفة الى اجابته وزوجه ابنته . لكن طغرل بك مات في تلك السنة ولم يرزق من امرأته هذه اولادا .

وكان ضياء الدين يقرأ ذلك وأبو الحسن يظهر انه يقرأ في كتاب اخر وعيناه تختلسان النظر الى الهكاري . فلما علم انه فرغ من قراءة ذلك الفصل رفع نظره اليه وقال : «أرأيت شجاعة طغرل بك وكيف انه استطاع بحكمته وتعقله تأسيس هذه الدولة التي لولاها لم يكن صاحب الشام ولا صاحب العراق ولا غيرهما» .

قال : «نعم انه رجل ذو بطش غريب وأنا أستغرب الان ما قرأته في هذه الصفحة عن مطامعه في الخلافة مما لم يطمع فيه احد سواه من غير القرشيين فيما اظن» .

فتوجه ابو الحسن نحوه باهتمام وقال : «طمع فيها قبله عضد الدولة ابن بويه فأراد ان يزوج الخليفة الطائع لله بابنته لتلد من الخليفة ولدا فيه من دمه فيجعل الخلافة فيه فلم يوفق الى ذلك ، وأما هذا فانه خطا خطوة اكبر من تلك . اراد ان يتزوج هو ببنت الخليفة ليكون ابنها فيه دم العباسيين ، ولكن هل علمت كيف نجا الخليفة من هذا الخطر فحفظ الخلافة في العباسيين ؟»

فقال : «انه نجا بالمصادفة» .

قال : «أتظن موت طغرل بك كان مصادفة ؟ وهل يموت بالمصادفة على اثر ذلك العقد المغتصب ؟ لا أشك في انهم سقوه السم . ولو أحسن الاسلوب لاحتاط لنفسه ونجا من ذلك الخطر ولم يذهب سعيه عبثا» .

فقال : «وكيف يحتاط ؟» . قال يحتاط بألا يعرض نفسه للقتـــل بخطبة ابنة الخليفة فيظهر غرضه . أعني لو طلب ان يتزوج اخت الخليفة او احدى بنات أعمامه مثلا لا أظنهم كانوا ينتبهون لغرضه . فاذا ولدت له ولدا ذكرا كان فيه من الدم العباسي ما يكفي لادعاء حق الخلافة ولكن ذلك التركي كان قصير النظر» .

ونظرا الى اهتمام ضياء الدين الهكاري بصلاح الدين وشغفه بتثبيت دولته كان كلما قرأ تاريخا او سمع حادثة مهمة طبق مغزاها على حـــال صلاح الدين لعله يستفيد منها ما يؤيد دولته . فلما سمع كلام ابـــي الحسن انتبه الى ان صلاح الدين يقدر ان يفعل ذلك بالتزوج من اخت العاضد وكان يسمع بجمالها وتعلقها والعاضد أضعف من ان ينكر على صلاح الدين طلبه . وبذلك تصير الدولة اليه حتى نور الدين قد يدخل في سلطانه . فأشرق وجهه لهذه الفكرة . وصمم ان يفاتح صلاح الدين بها في ذلك اليوم . ولكنه تظاهر بأنه لم ينتبه لشيء وجعل يتشاغـــل بقراءة فصول اخرى وأبو الحسن يظهر من الجهة الاخرى انه يتكلم بكل سذاجة . ثم غير الحديث فسأل ضياء الدين عن نجم الدين وهل هـــو مسرور من الاقامة في منظرة اللؤلؤة فأجابه بما يقتضيه المقام وأصبح ضياء الدين شديد الرغبة في انصراف ابي الحسن ليمضي في مهمتـــه الجديدة .

وبعد قليل استأذن ابو الحسن في الانصراف وودع صديقه الهكاري وعاد على بغلته الى دار الضيافة وهو يهمهم في اثناء الطريق ويكـــاد

يخاطب البغلة من فرحه بانطلاء حيلته ، اذ لم يشك ان الهكاري ذاهب حالا الى صلاح الدين ليحرضه على خطبة سيدة الملك • وهو يعلم يقينا ان ذلك سيقع وقوع الصاعقة على رأسها ورأس اخيها ولا يجدان سبيلا لرد طلب ذلك الخاطب القاهر الا اذا ادعيا ان الفتاة مخطوبة لابن عمها اي له (هو) فينال غرضه على أهون سبيل •

* * *

لما ذهبت سيدة الملك الى غرفتها لقيتها هناك حاضنتها وأخذت في مساعدتها على نزع ثيابها استعدادا للرقاد ، ولم تفاتحها بشيء من الحديث الذي جرى لها مع اخيها برغم شدة رغبتها في ذلك ـ والخدم من اكثر الناس ميلا الى استطلاع الاسرار لفراغ رؤوسهم من المشاغل المهمة مع اطلاعهم على مخبآت تجري في منازل أسيادهم ووقوفهم امامها وقوف المتفرج ينتقدون هذا ويحسنون عمل ذاك على ما توحيه اغراضهم او مداركهم ، فيلذ لهم التحدث فيما بينهم كل واحد عما يعلمه من احوال مخدومه ، ويندر فيهم من يحافظ على سر مولاه ويغار على سمعته ويسعى في درء الشبهات عنه ـ وكانت حاضنة سيدة الملك من هذا النوع واسمها ياقوتة ، وقد ربيت في دار الخلافة وسيدة الملك طفلة ، فكانت لها عناية خاصة بها • فشبت سيدة الملك على الوثوق بها حتى جعلتها مستودع اسرارها فلم يكن يفوتها شيء مما يخالج ضميرها • وذلك طبيعي في مثل حال هذه المرأة من الحجاب في ذلك العصر ، فانها لا تختلط بالناس ولا تجد من تحادثه الا الخدم • وكانت ياقوتة قد علمت منذ جاء الخليفة انه يشكو انحرافا وتلصصت من وراء الستر لتتسمع ما يدور من الحديث على عادة أمثالها من حب الاطلاع ورغبة في خدمة سيدتها • ولم تتوقع ان يدور بين الخليفة وأخته ما دار • فلما جاءت

سيدة الملك لنزع ثيابها كانت ترجو ان تسمع منها شيئا جديدا ولحظت فيها تغيرا يدل على قلقها واضطرابها •

فلما فرغت سيدة الملك من تبديل الثياب قعدت على سريرها وقـد حلـ شعرها الذهبي وأرسلته ضفيرة واحدة الى ظهرها وتنفست الصعداء وأطرقت ، ولحظت ياقوتة في عيني سيدتها ما يشبه الدمع فترامت على قدميها وأخذت تقبل ركبتيها وتقول : «ما بالك سيدتي ، لماذا تبكين ؟» • وأظهرت انها لم تكن مطلعة على شيء •

فرفعت سيدة الملك عينيها اليها وبان الدمع فيهما وتنهدت ثانيـــة وقالت : «تسألينني يا ياقوتة عن سبب بكائي ، وتستغربين حزني ؟ ليس حزني غريبا ، وانما الغريب ألا اقضي يومي باكية نادبة !» • قالت ذلك وغصت بريقها •

فشاركتها ياقوتة البكاء لكنها اظهرت التجلد وقالت : «ماذا جرى يا سيدتي ، هل حدث شيء جديد ؟»

قالت : «ألا يكفي ما جرى مما تعلمينه ؟ انت عاقلة لا يخفى عليك شيء وتعلمين حالنا مع هؤلاء الاكراد واستبدادهم في الدولة • وهذا اخي جاءني اليوم وقد أصابته الحمى من شدة الغيظ لما صارت اليـــه الخلافة . فكيف لا ابكي ؟»

قالت : «لا بأس من البكاء ولكن لا فائدة ، وانما الفائدة بالصبر والحكمة حتى يقضي الله بما يشاء ، فلكل امر نهاية ، وانما ••»

فقطعت كلامها قائلة : «لا • لا • ليس لهذه الكارثـــة نهاية الا بالموت . من ينقذنا من هؤلاء الاكراد وقد وضعوا أيديهم في كل شيء حتى دارنا هذه فان عليها حارسا من رجالهم ؟» • وبلعت ريقها ومسحت دموعها وهي تستعد لاستئناف الحديث ثم قالت : «وهذا كله هين يا ياقوتة ؟• كله هين سهل بالنظر الى امر اخر جاءنا به الجليس من عند ابي

الحسن في هذا اليوم» •

فتطاولت ياقوتة بعنقها وقالت : «وما هو يا سيدتي ؟»

قالت : «جاءنا بمهمة يزعم انها تنجينا من هذا الضنك • ولكنها اذا صحت أوقعتنا فيما هو أشد وطأة وأصعب مراسا» •

قالت ياقوتة : «وهل أشد وطأة من هذه الحال يا سيدتي ؟»

قالت : «نعم أشد وطأة منها ان يكون ذلك الكهل الوقح وليـــا للعهد بعد اخي حفظه الله !»

فأظهرت انها لم تفهم مرادها فاستفهمتها فأوضحت لها شروطه التي تقدم بيانها ثم قالت : «ولنفرض قدرة ذلك الشريف الكاذب على قتل صلاح الدين فان صيرورة ولاية العهد اليه بدل ابن اخي اصعب عندي من البقاء في حوزة صلاح الدين» •

فقالت ياقوتة وهي تظهر الاهتمام : «لا ارى رأيك فـي ذلك يـــا سيدتي ، بل أعد سعي ابي الحسن هذا بابا للفرج لانه اذا لم يستطع قتل صلاح الدين لا ينال شيئا • وان استطاع فان ولاية العهد لا تصير اليه لان مولانا امير المؤمنين شاب في مقتبل العمر اطال الله بقاءه • ومن يعلم المستقبل ؟»

فلم تعد سيدة الملك تصبر على سماع هذا العذر ، فنهضت فجـــأة ونهضت معها ياقوتة وهي تنتظر ما تقوله فاذا هي تقول : «ولكنه يشترط ايضا شرطا اخر ، الموت أهون علي من قبوله» •

وكانت ياقوتة تعلم رغبة ابي الحسن فيها فأظهرت انها فهمت مرادها فقالت : «انك تكرهين هذا الرجل كرها شديدا بلا سبب ، اصبري يا سيدتي حتى أتم كلامي • اذا نظرنا في مطالبه وشروطه لا نجد ما يبعث على هذا القلق • ان الرجل من ابناء عمك ويعرض ان يقتل أعدى عدو لنا وينقذ هذه الدولة من الخطر الذي لم يقدر عليه احد سواه ، فـــاذا

فاز صار وليا للعهد وتزوج بأخت الخليفة ولا أظنك تستنكفين ان تكوني زوجة رجل أنقذ الدولة ، وهو مع ذلك شريف النسب ، تبصري فيما اقول» • قالت ذلك وأكبت عليها وجعلت تقبلها وتضمها للتخفيف عنها •

فحولت سيدة الملك وجهها عنها نحو ستارة معلقة على الحائط عليها صور عربية وأظهرت انها تتأملها ولكنها لم تكن ترى شيئا لفرط اضطرابها وغضبها• وظلت ساكتة فظنتها ياقوتة تستسيغ رأيها فعادت الى الموضوع وأحاطت عنق سيدتها بذراعها وهي تقول : «لا تتعجلي يا سيدتي برأيك، فكري في الامر مليا ، ان عليه يتوقف بقاء هذه الدولة وفضلا عن ذلك فانك لا تجدين من ابناء عمك من يستطيع هذا العمل ، فلا باعث على النفور منه» •

فقطعت سيدة الملك كلامها وتحولت نحوها وقد بان الغضب في عينيها وقالت : «تقولين لا باعث على هذا النفور ؟»

قالت : «نعم اقول ذلك لاني لا ارى باعثا • والا قولي ما يبعثك على رفضه ؟ »

قالت : «يبعثني على ذلك اني لا اطيق ان ارى هذا المنافق • اذا رأيته ارتعدت فرائصي من رؤيته • تبا له كأن عينيه من نوافذ جهنم !• اذا نظر الي خيل لي ان الشيطان يطل من حدقتيه ويهم ان يأخذ بتلابيبي ، دعيني لا أقدر ان أتصوره !»

فهزت ياقوتة رأسها هزة الانكار وقالت : «يا للعجب انك تكرهين هذا الرجل عفوا • أظنك تظلمينه • لم أر منه ما يبعث على شيء من ذلك!»

قالت: «ألا ترين الشر في سحنته ؟ اني ارى ذلك واضحا يكاد يلمس باليد • دعيني منه» •

قالت وهي ممسكة يدها تجلسها على السرير : «اقعدي يا سيدتي لأخاطبك كما تخاطب الام ابنتها وان كنت لا أستحق هذا الشرف» •

فقعدت وهي تنظر في عيني ياقوتة فقالت ياقوتة : «انك يا سيدتي شابة في مقتبل العمر وقد منحك الله جمالا وتعقلا ولا بد من ان تتزوجي بمن هو كفؤ لك وأنا لا ارى اكفأ من ابي الحسن فانه عريق في النسب العلوي الشريف» •

فوثبت سيدة الملك من السرير وقد تغيرت سحنتها وغلب عليهـــا الغضب وقالت : «ليس الزواج ضروريا لي • واذا كان لا بد منه فـلا يهمني ان يكون ذلك الزوج من النسب العلوي» • قالت ذلك وتنهدت تنهدا عميقا وامتقع لونها ثم احمرت وجنتاها فجأة وبان الحياء في عينيها فحولت وجهها عن ياقوتة وغطت عينيها بكفيها . فاستغربت ياقوتة حركاتها وأدركت ان ذلك لا يبدو الا من فتاة عالقة القلب برجل يسنعها الحياء من ذكره ، فغيرت لهجتها في الحديث وضمتها الى صدرها وقبلتها بين عينيها وقالت : «فهمت الان شيئا لم اكن اعرفه من قبل انت عالقـــة القلب برجل اخر» •

فنفرت سيدة الملك من هذا التعبير الصريح وتراجعت وهي ما زالت مطرقة وظلت ساكتة فتبعتها ياقوتة وهي تقول : «لعلي بالغت في التصريح فوقعت عبارتي ثقيلة على سمعك . لكنني ارجو ان تصدقيني الخبر • فأنا معك كل يوم وكل ساعة لا أفارقك ولا يدخل علينا احد من الرجال غير اخيك وبعض الاطفال من ابنائه وأبناء عمك فيبعد ان تكوني عالقة بأحد ، لكني ارى دلائل الحب في عينيك» •

فازداد احمرار وجهها وزاد حياؤها وهمت بالكلام ثم توقفت . فقالت ياقوتة : «قولي • لا تخافي • هل تحبين احدا» • قالت : «دعيني يـــا خالة • دعيني من هذا البحث الان • لا فائدة منه غير زيادة الاشجان» • قالت ذلك وأظهرت انها تميل الى الرقاد فأعانتها ياقوتة حتى استلقت على السرير ووضعت الغطاء عليها وجعلت تصلح ما يحيط بها من المـــلاءة

والوسادة وهي تراقب ما يبدو منها فاذا آنست ميلها الى الحديث استأنفته والا تركتها تنام .

اما سيدة الملك فان ذلك الحديث هاج أشجانها ومالت الى مفاتحة حاضنتها بما يكنه ضميرها ولكن الحياء كان غالبا عليها . وكانت تظن الحاضنة تصر من نفسها على استتمام الحديث ، فلما رأتها أطاعتها وأعانتها على الرقاد ندمت وأخذت تتذرع الى استئناف الكلام فأظهرت ضجرها من الغطاء وتنهدت والتفتت الى ياقوتة لفتة أثرت في أعماق قلبها فانحنت فوقها وهي جاثية بجانب السرير وقالت : «ما بالك يا سيدتي يا حبيبتي ، لماذا تكتمين همك عني ؟» . فقالت ولسانها يتلعثم: «اخاف ان تضحكي مني او تهزئي بي» . قالت : «معاذ الله ان أفعل ذلك وكيف أفعله ولماذا ؟» . قالت : «لاني احب رجلا لا يخطر ببالك اني احبه ولو علم اخي به لاستغرب عملي وحسبني مجنونة !» . وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها تحت رأسها ورفع الغطاء واصلاحه .

فوقعت ياقوتة في حيرة ولم تفهم حقيقة مرادها او لعلها ادركت قصدها وتجاهلت لتسمع زيادة ، ثم قالت : «لم أفهم يا سيدتي مرادك . من هو الرجل الذي وقع من نفسك هذا الموقع لا بد ان يكون نادرة الزمان » .

قالت : «انك تعرفينه جيدا . قد رأيته في هذه الدار كما رأيته . وشهدت انت نفسك انك لا تعرفين أشرف منه خلقا ولا اكبر همة ولا أعز نفسا ، رأيته وبيده خصلة الشعر التي كان اخي قد بعث بها الى صاحب دمشق يستغيث به باسم نساء قصره . ان اخي ارتكب بذلك ذلا لم يمحه الا هذا ، فرد علي شعري بعد ان أنقذ حياتي من الموت ونجى شرفي من الدنس » .

فصاحت ياقوتة : «أظنك تعنين الشاب الفردي» .

فابتدرتها بلهفة وقالت : «نعم اياه أعني • أعني ذلك الشهم الباسل!»
قالت ذلك وقد عاد اليها نشاطها وتحمست وبان الاهتمام في عينيها.•
فتقدمت ياقوتة اليها وهي تبتسم وقد شاركتها ذلك الشعور وقالت:
«الان فهمت المراد • قد عرفت الشاب جيدا ولا انسى ذلك اليوم» •
فقالت سيدة الملك : «هل عرفت اسمه ؟» • فأطرقت الحاضنة وأعملت فكرتها كأنها تراجع ذاكرتها ثم قالت : «نعم علمت اسمه ، ولكن هـل تعلمين انت من هو وما هي علاقته بصلاح الدين عدونا الالد الذي يشكو اخوك امير المؤمنين ظلمه ؟» • قالت : «لا • لا أعلم» • قالت : «انه من رجال خاصته ، لا يخطو خطوة الا وهو معه !»
قالت وهي تبتسم : «فهو اذن قد نال ثمرة تلك المناقب السامية فتقدم عند مولاه • وما اسمه ؟» • قالت : «اسمه عماد الدين • وكثيرا مـا رأيته واقفا بباب قاعة الذهب في انتظار صلاح الدين وهو عند مولانا امير المؤمنين • ألم تشاهديه من نافذة قصرك ؟» • قالت : «لم أشاهده هناك لكنني رأيته غير مرة واقفا بباب هذا القصر يخاطب الاستاذ بهاء الدين قراقوش وعيناه لا ترتفعان الى النوافذ ولا يلتفت يمينا ولا شمالا كأنه لا يعرف اهل هذا القصر • وكثيرا ما وددت لو يرفع بصره لعله يلتقـي بصري ، وربما اقرأ في عينيه شيئا يدلني على رأيه في فلم يزدني ذلك الا شغفا بمناقبه • اعذريني يا خالة • طالما كتمت هذا الحب حياء وخجلا وكنت ارى في كتمانه لذة • اما الان فقد بحت به وقضي الامر» •
فقالت : «انت يا سيدتي تحبين عماد الدين ، خادم صلاح الدين !• بالله ما هذا ؟• كيف علقت به من النظر اليه مرة واحدة • هذا امر عجيب، ان بين أعمامك وفي قصور اخيك عشرات من الشبان اجمل منه ، ويقع نظرك عليهم منذ أعوام ، وكلهم يتمنون نظرة منك ولكنك لم تكترثـي لاحد منهم ! »

فقالت سيدة الملك : «صدقت يا خالة اني اكثر منك استغرابا لما اصابني من تلك النظرة ! ولكنها في الحقيقة ليست نظرة . انها ساعة اطول من العمر كله . كنت فيها بين الحياة والموت فنظرت ذلك الشاب وأنا اكاد ألقى وجه ربي او أتلطخ بالعار . فمد يده وأنقذني . فخيل لي انه ملاك هبط علي من السماء !»

قالت ذلك وعادت الى الاطراق وقد توردت وجنتاها .

فقالت ياقوتة : «اذن انت تحبين عماد الدين ؟»

فأبرقت عيناها رغم ذبولهما من البكاء والانكسار وابتسمت ابتسامة لطفت ما تكاثف في وجهها من الحزن وأومأت برأسها ان «نعم» وأسرعت الى الغطاء فرفعته الى رأسها استحياء .

وقع قولها عند ياقوتة موقع الاستغراب وقالت وهي تزيح الغطاء عن وجهها بلطف : «نعم يا سيدتي ان عماد الدين شهم نادر المثال ولكنه لا يليق بسيدة سليلة المعز لدين الله» .

فنهضت وقعدت وقد انحل شعرها حتى غطى كتفيها وخديها ونظرت الى ياقوتة نظر العتاب وقالت : «ان المعز رحمه الله لم يبلغ الى هذا السؤدد ولا توارث ابناؤه هذا الملك الواسع الا بمناقبه وعلو همته وكرم اخلاقه . ومناقب عماد الدين لا تقل عنها شيئا . انك تعلمين ما اتاه هذا الشاب من المروءة يوم واقعة العبيد وكيف تفانى في سبيل نجاتي وحمل الي خصلة الشعر ولا يعرفني . ان كنت قد نسيت ذلك فاني لا انساه . لا انسى يوم اتاني ذانك الشقيان وأرادا حملي من الدار فأنقذني هذا الغريب منهما بغير ثواب يرجوه ولا عقاب يخافه وانما فعل ذلك مندفعا بأخلاقه السامية !. فأنا من اجل هذه الاخلاق احببته ولم انظر الى اصله وفصله» . وتوقفت لحظة وهي ترفع شعرها عن عينيها ثم قالت : «أتذكرين ذينك الرجلين اللذين هما بي في ذلك اليوم ؟ اذا علمت الان

انهما من ابناء الملوك او الخلفاء وطلبني احدهما هل ترضين ان اكـون زوجة له ؟»

قالت : «معاذ الله انهما ساقطا الهمة» • قالت : «اعلمي ان احدهما يغلب علي ظني انه ابو الحسن الشريف الذي ترغبونني فيه ، والاخـر خادم له استعان به لاختطافي في وسط الغوغاء بعد ان علم اني لا أريده» • قالت ذلك وكأنها ندمت على ما فرط منها فسكتت وأطرقت •

فقالت ياقوتة وقد تولتها الدهشة : «هل انت على يقين مما تقولين يا سيدتي ؟»

قالت : «لا اقول اني على يقين ، ولكنني أرجح هذا الظن كثيرا • ومع ذلك فأنا لا اقول هذا ولا ذاك ،وانما اقول اني منذ رأيت عماد الدين وما اتاه من المروءة شعرت بشيء اجتذب قلبي نحوه وكنت أتوقع ان اراه مرة اخرى يأتي فيها الى اخي يطلب مكافأة على صنيعه . فلما لم يأت، ازددت اعجابا به وارتفعت منزلته في قلبي وتحول الاعجـاب الى حب شديد» • ثم تنهدت وقالت : «ويلاه هل هو يشعر مثل شعوري ؟» • قالت ذلك وخنقتها العبرات ولم تعد تتمالك عن البكاء والحاضنـة تستغرب هذا التعلق بنظرة واحدة فأخذت تخفف عنها وتقبلها وتقول لها خففي عنك يا سيدتي •• ارجعي الى رشدك : ان مثلك لا يسترسل في عواطفه الى هذا الحد مع شخص لم يره الا بضع مرات ولا يعرف شعوره من جهته ، تجلدي وفكري في الامر • لو فرضنا انك وأنت في هـذا الهيام علمت ان عماد الدين يحب سواك كيف تكون حالك ؟•• تبصري قليـلا » •

فاستجمعت سيدة الملك قواها واسترجعت رشدها وأطرقت وهـي تتأمل في عبارة حاضنتها فرأت الحق معها • ولكن الحب سلطان مستبد لا يذعن للحق ولا يعرف الصواب • وانما يلذ له الاستبداد بلا سبب

والفتك بلا حساب . ولا يحلو الحب الا ان يكون مستبدا ، لانه ومتى أذعن للاحكام العقلية والاقيسة المنطقية او الاعتبارات الاقتصادية صار معلما او تاجرا او فقيها . وانما هو سلطان مطاق لا يقيده دستور ولا يردعه خوف من عقاب . فهو لا يسأل عما يفعل ورعيته راضية باستبداده تعد ظلمه عدلا وتحسب عسفه رفقا .

ذلك كان شعور سيدة الملك في تلك اللحظة كان عقلها يدلها على مكان الخطأ وهي لا تريد ان تراه . فاسترسلت في عواطفها ونظرت الى ياقوتة والاعتراف على شفتيها والانكار في عينيها وقالت : «صدقت يا خالة . ولكني لا أظنه يفعل ذلك .. لا . لا . ولن مهما يكن فاني لا ارى سبيلا الى غير ما ذكرت فدبريني برأيك» .

فتحيرت ياقوتة في الجواب ورأت الحديث قد طال وتوالت الغرائب التي كشفت لها في تلك الليلة ، فعزمت على استخدام الوقت للتفكير على انفراد لعلها تهتدي الى حل يرضي سيدتها ويوافق ضميرها . فترامت على يدي سيدتها تقبلهما وهي تقول : «خففي عنك يا مولاتي . اني امتك افديك بروحي . كوني مطمئنة وقد تعبت اليوم من هذا الحديث وآن الرقاد فتوسدي فراشك . وأمهليني لانظر في الامر ولا بأس عليك في كل حال . فان اخاك حفظه الله لا يجبرك على من لا تحبينه . وأنا اعلم منزلتك عنده لكن لا بد من تدبير طريقة لمشاهدة عماد الدين . توسدي فراشك وها اني ذاهبة . وسأفكر فيك كثيرا الليلة وأما انت فلا أظنك تفكرين في» . وضحكت مداعبة ثم قالت : «فكري فيمن تحبين» . فاستلطفت سيدة الملك تعبيرها لانه كان من اقصى امانيها ان توافقهـا ياقوتة على اعتقادها وتشعر معها بما في قلبها فيهون عليها كل شيء . فسرى عنها وأطاعت حاضنتها فرقدت وذهبت ياقوتة ايضا الى فراشها .

* * *

قضت سيدة الملك بقية الليل بين اليقظة والمنام لفرط قلقها وأفاقت في الصباح التالي على صوت المؤذن لصلاة الصبح ولم يكن يطلب منها القيام حينذاك لكنها لم تعد تستطيع رقادا . فجعلت تتقلب على الفراش وأفكارها تائهة . وتذكرت اخاها وأحبت ان تعلم حاله بعد ذهابه من عندها هل شفي مما كان فيه . فنهضت من الفراش والتفت بسطرف من الخز التماسا للدفء وخرجت من غرفتها الى ممر يؤدي الى شرفة تطل على مصلى الخليفة فرأت اخاها قد خرج للصلاة فاطمأن بالها عليه . ولما عادت الى فراشها استقبلتها الحاضنة وسألتها عن حالها وأخذت تحادثها وتؤانسها ومشت معها الى غرفتها وأعانتها في لبس ثيابها وأمرت باعداد المائدة وجلست اليها وهي تقول : «أطمئنك عن صحة سيدي امير المؤمنين فانه في خير» .

قالت : «عرفت ذلك من خروجه للصلاة وأحمد الله على ذلك . ولكني احب ان اراه» .

قالت : «سترينه الليلة بعد رجوعه من قصر الذهب والفراغ من مهام الدولة . هيا بنا الى الطعام الآن» .

فمشت الى غرفة المائدة فتناولت الطعام وهي تتوقع ان تفاتحها ياقوتة بالحديث عن عماد الدين فلم تفعل فاستحيت هي ان تذكره . قضت نصف ذلك النهار وهي تتشاغل بشؤون مختلفة . وأحست بعد الغداء بميل الى الرقاد من فرط تعب امس فتوسدت فراشها فنامت ملء جفونها . وأفاقت وقد هدأت أعصابها وهان عليها ما هي فيه بالنسبة الى ما كانت عليه من التعب ــ لان تعب الاعصاب يزيد صاحبه قلقا ولا يريه الامور الا من وجهها الاسود .

فنهضت من الفراش وقد أشرق وجهها وعاد اليه ابتسامه وصفقت تطلب الحاضنة فأبطأت عليها . ثم جاءتها وفي وجهها خبر فخفق قلب

سيدة الملك عند رؤيتها ولم تصبر عن الاستفهام عما وراءها فقالت ياقوتة: «ما ورائي الا الخير يا سيدتي هلم بنا» . فأجفلت وقالت : «الى اين ؟». قالت : «الى خزانة الجوهر» .

فأعرضت عنها اعراض المنكر لما يسمعه وقالت : «اين الجوهر انهم لم يتركوا فيها شيئا» . قالت : «انهم اخذوا كثيرا وتركوا كثيرا . لكنني لا ادعوك للجوهر يا سيدتي وانما أريد ذهابك الى تلك الخزانة لملاقاة سيدي امير المؤمنين فانه أنفذ في طلبك اليه على ان توافيه الى تلـــك الخزانة لسبب لا أعلمه» . قالت بلهفة : «اخي يطلب ذهابي لملاقاتــه هنـــاك ؟ »

قالت : «نعم يا سيدتي . ولا حاجة الى تبديل ثيابك لانك تذهبين الى ذلك المكان في ممر يؤدي اليه لا تجدين فيه احدا . هلم بنا» .

قالت ذلك وأشارت اليها ان تمشي فلفت رأسها بملاءة لازوردية اللون ومشت وهي تفكر فيما عساه ان يكون الغرض من هذه الدعوة في ذلك النهار .

خرجتا من قصر النساء الى ممر أخلاه الخدم والجواري . فســرت سيدة الملك ولم تجد احدا في طريقها حتى اتت خزانة الجوهر . وهي غرف عديدة نصبت فيها الخزائن والرفوف وأقيمت فيها الارائك فوق الطنافس ولم تكن دخلت تلك الدار منعهد طويل . ولكنها كانت تسمع بما تحوي من الذخائر النفيسة والجواهر الثمينة وتلعم انها اخذت في ايام المستنصر بالله ابي تميم لما غلب على امره منذ نحو مائة عام . ولم تكن تتوقع ان تجد فيها شيئا من الجوهر يستحق الذكر .

وصلت الى الباب فاستبقها الحاجب وأدخلها وأشار الى ياقوتـــــة بالانصراف فانصرفت . اما سيدة الملك فدخلت وعيناها شائعتان تبحثان عن اخيها . فرأته جالسا في صدر القاعة الوسطى وحده على مقعد وقد

تخفف بعمامة صغيرة وبيده سبحة يعد حباتها وهو مطرق يفكر • فلما انبأه الحاجب بمجيء اخته رفع بصره اليها وهش لها وأخذ يرحب بها فترامت عليه وسألته عن صحته فقال : «اني والحمد لله في خير وعافية وكيف انت ؟ »

قالت : «طالما كان امير المؤمنين سالما فأنا سالمة أبقاها الله لنا ركنا وسندا» • قالت ذلك وهي تقرأ في وجهه خبرا جديدا • ولكنها تجاهلت وخاطبته وهي تقعد على وسادة بالقرب منه قائلة : «اني لم أدخل هذه الدار منذ سنين عديدة وآخر مرة دخلتها كنت طفلة ولا أذكر اني علمت ما فيها و ••»

فقطع كلامها قائلا : «وماذا عساك ان تعلمي ؟ يكفي ان تسمعي بما كان فيها قبل عهد جدنا الامام المستنصر رحمه الله • انظري الى هـذا الصندوق » •

فنظرت اليه وهو متقن الصنعة وعليه نقوش فظنته يلفت نظرها الى نقشه فقالت : «انه جميل» • قال : «لا اعني جمال ظاهره ولكنني أعني ما كان فيه من الحجارة الكريمة ، اخبرني والدي رحمه الله انهم خرجوا منه في زمن المستنصر سبعة أمداد زمرد قيمتها ٣٠٠ر٠٠٠ دينار ، تخاطفها الناس » •

فدهشت من ذلك وقالت : «ان ذلك غريب نادر» • قال : «ولو أسرد ما كان من التحف في هذه الدار لاستغرق سردها فقط عدة ساعات ، وانما أذكر عقدا من الجواهر قيمته ثمانون الف دينار بيع يومئذ بألفـي دينار • وأخذوا من خواتم الذهب والفضة فقط نحو١٢٠٠ خاتم فصوصها من الجواهر المختلفة ، فيها ثلاثة خواتم ذهب مربعة ، على كل منها ثلاثة فصوص : احدها زمرد والآخران ياقوت سماقي ورماني ، بيعت باثني عشر الف دينار • غير ما اخرجوه من الجواهر ونحوها فانها كانت تحصـــى

بالويبة وتكال بالكيل • منها ويبة جواهر مشتراة في الاصل بسبعمائة الف دينار باعوها بعشرين الف دينار • وطاووس ذهب مرصع بالجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من زجاج المينا المجري بالذهب على ألوان ريش الطاووس • غير التحف المتوارثة عن الخلفاء او المنقولة الينا من العباسيين وغيرهم ، ورقع للشطرنج أحجارها من الجواهـــر والذهب والفضة والعاج• كل هذه ومئات مثلها أخذت في نكبة المستنصر ولا فائدة من الكلام الان» •

فانقبضت نفس سيدة الملك مما سمعته وقالت : «ان مصيبتنا قديمة يا اخي • ولا فائدة من التذكار الان» • قالت ذلك وهي تتعجل ما فـــي خاطر اخيها عن سبب استقدامها اليه • فقال : «صدقت ولكنني أطمئنك ان اولئك اللصوص لم يأخذوا كل ما كان لنا فان بعض خواصنا وأهل بطانتنا المخلصين يومئذ احتفظوا لنا ببعض ما كان من الذخائر ولا يزال مخبأ الى الان» • قال ذلك ونهض الى خزانة داخلة في الحائط لا تلفت الناظر اليها ففتحها بمفتاح استخرجه من جيبه ومد يده فأخرج منها علبة بها عقد من الجوهر يبهر النظر دفعه اليها فتناولته وجعلت تقلبه فقال لها: «خذيه جربيه على عنقك»• فتراجعت وأعادته الى العلبة• فمد يده وأخرجه وألبسها اياه في عنقها وقال : «هذا لك» •

فأرادت ان ترجعه فمنعها وقال : «خذيه انه لا يليق بأحد سواك» واستخرج من علبة اخرى خاتما حجارته من الزمرد والياقوت نحو الذي ذكره وألبسه اياها في اصبعها فلم يعجبها منه هذا الكرم ولحظ استغرابها فقال : «لا تستغربي ما ترينه فان في هذه الخزائن تحفا اخرى لا يعلم بها سواي وسأدفعها كلها اليك لئلا تذهب كما ذهبت تلك» •

فتوسمت من كلامه شيئا يعنيه لسبب طرأ عليه ، فقالت : «ماذا تعني يا اخي ، معاذ الله ان يكون ما تشير اليه • لا يتمتع بهذه الذخائر سواك

وسوى اولادك» . قالت ذلك واختنق صوتها رغم ارادتها لكنها تجلدت وهمت ان تتم كلامها فلحظت في عيني اخيها شيئا كالدمع وهو ينظر اليها نظر المستعطف . ثم قال : «انت لا تريدين ان تبقي هذه التحف !»

ادركت ما يشير اليه من تمنعها عن قبول ابي الحسن زوجا لها بعد ان تكفل بقتل صلاح الدين . فأحست بوخز الضمير وأثر فيها الاسلوب الذي اختاره اخوها لمعاتبتها . لكنها لا تستطيع ان توافقه ولا تعتقد ان ابـا الحسن يستطيع القيام بوعده ولم تجد الوقت مناسبا للدفاع في تلك الساعة فقالت : «انت تعنفني يا اخي على امر ليس في طاقتي ، فأنا قد عاهدت نفسي ألا اتزوج واذا كان ذلك الرجل يقدر على شيء فليفعله ثم نرى ما يكون» .

فرأى في جوابها شبه الرضا فقال : «انما المطلوب قبل كل شيء ان تظهري الرضى به ليقدم على هذا العمل ، أليس كذلك ؟» . قال ذلك وهو يبتسم ويهش ليسترضيها فكادت تغلب على امرها وأوشك ان يحملها حبها لاخيها على ان توافقه لكنها ما لبثت ان تصورت أبا الحسن فنفرت منه وتذكرت عماد الدين فاختلج قلبها في صدرها وتوردت وجنتاها .

فظنها اخوها تريد اجابته لكنها تستحي فقال : «ما الذي يضرك ان تجيبي طلبي وهذا الرجل اكفأ انسان لك ، فضلا عما وعدنا به من الخير . قولي انك ترضينه خطيبا لك ، واذا كنت تحسبين قبولك له مصيبة .. فانها مصيبة صغرى» . وأبرقت عيناه كأنهما تنطقان بسر يكتمه . وتشاغل بعد حبات سبحته .

فأطرقت سيدة الملك وأعملت فكرتها في كلام اخيها فخافت ان يصح ظنها فقالت : «ماذا تعني يا اخي بالمصيبة الصغرى وهل هناك مصيبة اكبر منها يا أختي ان يطلبك رجل اعجمي من غير اهلك لا قبل لنا برد طلبه ، فهمت ؟ »

قال : «يتجاسر عليه الذي تجاسر على سلب حقوقنا من أيدينا واستبد بالامر دوننا ونحن أحياء . الرجل الذي نخاف سطوته ونحسب لحركاته الف حساب . ألا يستطيع هذا الرجل ان يطلب الزواج منك ؟»

فبغتت واستبعدت ما يفهم من كلام اخيها فقالت : «صرح بما تقول. هل تعني صلاح الدين ؟» . قال : «نعم اياه أعني ، فما قولك ؟» . فتراجعت وقد اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ولم تتمالك فجلست على المقعد وقد امتقع لونها وأوشك الدم ان يجمد في عروقها وسكتت. فتقدم اخوها بجانبها وأحاط كتفيها بذراعه ليلطف من بغتتها وقال : «اني ازعجتك بهذا الخبر ولكنك احرجتني . ولا تظني الامر قد نفذ . انه لم يطلبك صريحا بعد . لكن رجلا من خاصته جاءني في هذا الصباح وفاجأني بهذه المصيبة بعد ان مهد للكلام بمقدمات طويلة عريضة الى ان قال : «ان السلطان صلاح الدين يريد ان يتشرف بهذا القران فأحب ان يسألك عن طريقي قبل الاقدام على الطلب لعل هناك مانعا» .

فقالت : «وبماذا اجبته ؟» . قال : «هممت ان اجيبه بأنك مخطوبة الى ابي الحسن لعلمي ان هذه الحجة تكفي للنجاة من هذه الورطة ، لكني استمهلته في الجواب الى الغد لاسالك وقد اخترت هذا المكان للمقابلة حتى لا يكون معنا ثالث . ها اني قد اطلعتك على جلية الامر فما رأيك ؟ . ألا ترين ان قبول ابن عمنا أولى ؟»

ولم يكن العاضد ينتظر منها غير القبول فلما ابطأت في الجواب وهي مطرقة كرر السؤال ، اما هي فكانت تفكر في طريقة للنجاة من هذه الورطة لانها كانت لا تريد صلاح الدين ولا ابا الحسن . لكنها تفضل عماد الدين على كليهما . وحدثتها نفسها ان تصرح له بما يكنه ضميرها فخافت العاقبة . فلما كرر اخوها السؤال قالت : «صدقت ، ان الاحتجاج بكوني مخطوبة قد يرجع صلاح الدين عن عزمه . قل له اني مخطوبة اذا

شئت ولا تذكر لمن» •

قال : «لكنه لا يصدق الا اذا ذكرنا الخطيب لئلا يحسبنا نكذب لنتخلص منه • سأقول له انك مخطوبة لابي الحسن» •

فابتدرته قائلة : «كلا • لا تقل هذا • لان ذلك لا يكون ابدا» • ولم تتمالك عن هذا التصريح وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها •

فبان الغضب في وجهه وقال : «كنت أجاملك وألاطفك قبل هذا المشكل • اما الان فلا ارى لرفضك معنى بعد ان بينت لك السبب • ليست هذه شعائر الاخت المحبة لاخيها ، وأنت تعلمين ما وعدنا ابو الحسن به • ولا شك انه بعد ان يعلم ان صلاح الدين مناظره فيك سيزداد اهتماما في تنفيذ غرضه • قولي الك قبلته والا ضعف اعتقادي في تعقلك وصدق محبتك • واعلمي مع ذلك ان امير المؤمنين يخاطبك ويطلب ذلك منك وهو ولي امرك» • قال ذلك بشيء من السلطة •

فعظم ذلك التهديد عليها وهبت الحمية في صدرها ورجعت اليها عزة نفسها فنظرت الى اخيها نظر العاتب وقالت : «تهددني بما لك من السلطة علي ، وبأنك ولي امري ؟ ان هذا لا يغير شيئا من عزمي • واذا شئت ان تنفذ هذه السلطة من نفسك فافعل • وأما انا فيستحيل علي قبول ذلك المنافق المرائي ، وربما فضلت صلاح الدين عليه عند الضرورة • ولكنني لا أريد هذا ولا ذاك» •

فدهش العاضد لهذا التصريح وقال : «هل الى هذا الحد تبلغ جسارتك وتخاطبينني بهذه القحة ؟• أظنني اخطأت لاني شاورتك في الامر • وكان لي ألا أستشيرك لاني ولي امرك من جملة وجوه • وأنا فاعل ما اراه خيرا لك • اذ يظهر لي انك مستمسكة بالخطأ لغير سبب أعلمه • لم يبق الا ان تخرجي للسوق وتختاري لك زوجا من المارة وأبناء السبيل !• ليس ذلك من شأن بنات الخلفاء • ان العناية جعلتك من طبقة

الملوك وميزتك بالنسب الشريف فلا يجوز لك الاقتران بغير الاكفاء . وهذا ابو الحسن ابن عمنا وهو اكفأ انسان لك» . قال ذلك وتحفـــز للمسير كأنه قال ما لا يقبل نقضا ولا ابراما .

اما هي فظلت واقفة وأوشكت ان تسقط على الارض من التأثر لانها لا تقدر ان تبوح بما في خاطرها بعد ان رأت اخاها يكبر تفضيلهــــا صلاح الدين ، فكيف لو علم انها تحب خادمه . فرأت السكوت في تلك الحال أولى وصممت ان تفعل ما يحلو لها ولو خالفت الشرع والعرف. فلما رأته يتحرك للمسير مشت بهدوء وسكينة ولم تفه بكلمة فظنها شعرت بسلطته عليها فقبلت . فكتم فرحه وظل على اظهار الغضب والعتب .

وحالما خرجت من الباب رأت حاضنتها تنتظرها في الممر فرافقتها الى غرفتها وقد لحظت الحاضنة تغيرا بينا في وجهها فأصبح همها استطلاع الخبر .

اما سيدة الملك فانها صممت على عمل لا يخطر لحاضنتها ولا غيرها وفضلت البقاء على كتمانه ائلا تحول ياقوتة دون انفاذه . خطر لها ان تستقدم عماد الدين وتفر معه من قصر اخيها وتنجو من ذلك الاسر . ولكنها لا تستغني عن ياقوتة في البحث عنه واستقدامه فعزمت علــى كتمان ذلك عنها .

اما ياقوتة فانها تهيبت من غضب سيدتها . ورغم ما لها من الدالــة عليها لم تجسر على مخاطبتها . فأخذت تتذرع الى استطلاع حالهــــا بالتجاهل ، فحالما دخلت الغرفة قالت لها : «مالي ارى سيدتي غاضبة ؟. اني ارى في جيدك عقدا من الجوهر وفي اصبعك خاتما من الزمــــرد والياقوت لو كانا لي لزالت عني هموم الدنيا» .

فانتبهت سيدة الملك الى العقد والخاتم وكانت قد نسيتهما لفــرط قلقها فنزعت العقد من عنقها والخاتم من اصبعها ورمت بهما الى الارض

وجلست على السرير وهي تتنهد .

فالتقطت ياقوتة العقد والخاتم وهي تقول : «ما بالك يا سيدتي ، ما الذي اغضبك ؟ اذا كان هذا العقد قد غيرك اعطيني اياه» .

قالت : «خذيه ، بل هاتيه» . واسترجعته من يدها ووضعته في جيبها مع الخاتم .

فابتسمت ياقوتة على سبيل المداعبة وقالت : «اذا كنت قد غضبت من امير المؤمنين فما هو ذنبي يا سيدتي وأنا أتفانى في خدمتك ؟»

فأظهرت الارتياح الى قولها وكظمت غيظها وقالت : «بارك الله فيك دعيني الان» . قالت : «لا . لا اتركك حتى تقولي ماذا جرى بينك وبين مولانا امير المؤمنين» . قالت : «انه مولاك وليس مولاي !» . قالت : «انه مولانا بحكم الله اطال الله لنا بقاءه» . قالت : «اطال الله بقاءه لكنه ...» . وسكتت وقد شرقت بدموعها .

فقالت ياقوتة : «ما بالك قد غيرت عادتك معي ؛ لماذا لا تشكين الي همك لعلي استطيع خدمتك بشيء . ألم نكن على موعد للنظر في امر عماد الدين ؟» . فلما سمعت اسم عماد الدين سرى عنها وهان عليها الصبر والتفتت الى ياقوتة وابتسمت وعيناها تلمعان من الدمع . فأثر منظرها في ياقوتة وأكبت على يديها تقبلهما وتقول : «بالله لا تغضبي يا سيدتي ؛ ولا تعامليني بالجفاء . افصحي لي عما يكنه ضميرك وأنا امتك أفديك بروحي . قولي لا تخافي» .

فتنهدت وهي تتجلد وقالت : «نعم كنا على موعد من امر عماد الدين ماذا رأيت وماذا دبرت ؟»

قالت : «لم أر شيئا ان الامر لك وأنا طوع ارادتك ، ماذا تريدين ان أفعل» . فنظرت اليها نظرة اخترقت أحشاءها وقالت : «أريد ان يأتي عماد الدين الى هنا في هذه الليلة !» . قالت : «في هذه الليلة ؟! ولماذا ؟»

قالت : «لا تسأليني عن السبب . انت تقولين انك طوع ارادتي وهذه هي ارادتي . أريد ان ارى عماد الدين هذه الليلة» .

قالت : «لك علي ذلك . خففي عنك الان وارجعي الى رشدك واحكي لي عما جرى لك اليوم مع سيدي امير المؤمنين» .

فلما اطمأن بالها من جهة استقدام عماد الدين خف قلقهـا فجلست وأمرت حاضنتها ان تجلس وقصت عليها ما دار بينها وبين اخيها من أوله الى اخره ، فأثر ذلك في رأيها ورأت سيدتها اخطأت بمقاومة الخليفة ، ولكنها لم تجسر على تخطئتها فأظهرت انها ترى رأيها على نية ان تعود الى البحث معها في الامر بعد قليل ، فطمأنتها انها تفعل ما تريده وغـــيرت الحديث وشغلتها بمهام اخرى .

- ٥ -

عماد الدين

قد علمت من حديث العاضد وأخته ان صلاح الدين بعث يخطب سيدة الملك شفاها ، وسبب ذلك ان عيسى الهكاري لما خرج من دار العلم سار توا الى صلاح الدين وأسرع في مقابلته على انفراد في خلوة وتطرق في الحديث الى خطبة اخت الخليفة وأقنعه بما تقدم من الادلة السياسية ، فاستحسن صلاح الدين رأيه واستمهله ليشاور أباه ، فنهاه عن مشورته اذ ربما اقتضى رأيه ملاطفة الخليفة وهم لا يرون ذلك . وذكره الهكاري بسعيه في مصلحته منذ عرفه . فقال صلاح الدين : «اننا قابضون على

أزمة الدولة نفعل بها ما نشاء من عزل وتولية وغير ذلك ، فكيف نطمع في الخلافة . وهذا لم يقدم عليه احد قبلنا من غير العرب وأخاف ان نطلب الزيادة فنقع في النقصان» .

فقال : «لا اعهدك ضعيف العزم يا مولاي اذا كنت لا تعرف احدا طلب الخلافة من غير العرب ألا يجوز ان تطلبها انت او تمهدها لاولادك بسبب الاقتران بأخت الخليفة ؟. وزد على ذلك ان سيدة الملك من اجمل النساء خلقة وأحسنهن ذكاء ودهاء . اما الخلافة فاذا طلبتها وأحوجنا النسب القرشي فانه ميسور لان كثيرين من الصحابة القرشيين تفرقوا بالفتح ونزل بعضهم في بلاد الاكراد فقد يكون جدك متسلسلا من احدهم» . قال ذلك وهو يظهر الجد . وأدرك صلاح الدين انه يهون عليه ادعاء الخلافة بزواجه بأخت الخليفة ، واذا لزم النسب القرشي انتحل له نسبا فيهم . ولكنه ما زال يتهيب من الاقدام على الخطبة فلما رأى الحاج عيسى قال له : «اذا لم يكن بد من العمل برأيك فاجعل ذلك منك على سبيل الاختبار بلا كتابة مني» .

قال : «اني فاعل ذلك ، فأخاطب الخليفة في رغبتك وأرى ما يكون» .

قال : «حسنا» . وذهب الهكاري في تلك الساعة الى العاضد وأطلعه على ذلك بأسلوب لطيف فاستمهله في الجواب كما رأيت .

اما صلاح الدين فانه بعد ذهاب الهكاري من عنده خلا بنفسه وراجع ما دار بينهما فرأى انه تسرع في الامر ، وكان ينبغي ان يكاشف أباه قبل الاقدام عليه . لكنه أجل ذلك حتى يعود الهكاري بالجواب وهو لا يزال في حل من الامر . وبعد قليل اتاه غلام يدعوه الى الطعام مع ابيه في الجانب الاخر من قصر اللؤلؤة فمضى. وفيما هما في الغداء قال نجم الدين يخاطب ابنه صلاح الدين : «يا يوسف لم أر عندكم اهتماما بميادين السباق . لا ينبغي ان تترك رجالك يرتاحون طويلا . أنشيء لهم

الميادين للمسابقة على الخيول فانهم بذلك تتقوى أبدانهم ويشغلون عن الدسائس » .

قال : «صدقت يا ابي ونحن لا يمضي اسبوع لا نجري فيه سباقا فمن فاز بالسبق قدمناه وخلعنا عليه . وأحب ان أجرب ذلك بين يديك في هذه الساعة وسأختار من رجالي أمهرهم في الركوب» . ونادى عماد الدين فأتى مسرعا وخفة الروح ظاهرة في وجهه والشجاعة تتجلى في عينيه والنشاط ظاهر في انتصاب قامته وامتلاء عضله فلما وقع نظر نجم الدين عليه استلطفه فأطال النظر فيه وصلاح الدين يأمره ان يستعد للسباق مع آخرين سماهم . فأشار عماد الدين مطيعا وانصرف ، فتحول صلاح الدين الى ابيه وهو يبتسم ابتسام الاعجاب وقال : «كيف رأيت هذا الشاب يا ابي ؟»

قال : «كنت عازما على ان اسألك عنه لانه وقع في نفسي موقعا جميلا وأتوسم فيه الشجاعة والبسالة ولا أظنه الا بالغا مقاما رفيعا بين رجالك » .

قال : «وكيف اذا رأيت مهارته في ركوب الخيل وخبرت اخلاقه الحميدة ؟ يكفي تفانيه في سبيل خدمتي انه يحبني حبا مفرطا فلو قلت له الق نفسك في النار لفعل» .

قال : «احرص عليه وقدمه» .

قال : «اني لا اترك فرصة تمر الا أكرمته ، وهو الان من حرسي ويستحق ان يكون من كبار القواد لكنه ما زال صغير السن وسيكون له شأن ، وقد سرني انك توسمت فيه ما توسمته انا وتحققته بالاختبار» .

فقال نجم الدين : «هل زوجته ؟» . فقال : «اردت تزويجه بجارية جميلة فلم اجد فيه ميلا للزواج» .

فهز نجم الدين رأسه وقال : «تلك هي مناقب اصحاب المطامع طلاب

السيادة ينصرفون بكليتهم الى تلك المطامع فاحتفظ بالشاب» .

وبينما هما في ذلك اذ سمعا قرع الطبول استعدادا للسباق فجلس صلاح الدين مع ابيه على اريكة نصبوها لهما بين يدي القصر تشرف على حلبة السباق وفوقها مظلة من الحرير الملون . وأطلق الفرسان الاعنة ، وكان عماد الدين على جواد ازرق يمتاز عن سائر الجياد يعرفه الناظرون عن بعد ، ولحظ نجم الدين انه يفوق سائر الفرسان بالخفة واللباقة . ولعبوا العابا عديدة وتسابقوا وتراموا وكفة عماد الدين راجحة .

قضوا في ذلك بضع ساعات وصلاح الدين جالس مع ابيه تحت تلك المظلة . ثم اخذ الفرسان يتوافدون للمرور امام المظلة لالقاء التحية وصلاح الدين يثني على مهارتهم ويكلمهم بما يقتضيه المقام ، حتى جاء عماد الدين فأمره صلاح الدين ان يترجل ويأتي الى ابيه فترجل ووقف بين يدي نجم الدين وقوف الاحترام . فقال له : «يا عماد الدين ، ستكون رجلا مقدما ويسرني انك حائز اعجاب سلطانك» .

فأكب عماد الدين على يدي نجم الدين يقبلهما وقال : «اني عبد لمولاي السلطان أفديه بروحي . واذا قدر لي ان اكون شيئا مذكورا فيكون ذلك من فضله لا لاستحقاقي» .

فربت كتفه متلطفا وتناول خنجرا كان في منطقته ودفعه اليه وقال : «احتفظ بهذا الخنجر تذكارا مني» .

فأكبر عماد الدين هذا الاكرام من والد صلاح الدين وهو يعلم ان صلاح الدين نفسه يهابه فترامى على يديه يقبلهما . وكان صلاح الدين يخاطب بعض الفرسان فلما فرغ من خطابه تحول الى ابيه فوجده يخاطب عماد الدين فانبسطت نفسه لاعجابه بذلك الشاب وقال : «يسرني انك راض عنه» .

فقال نجم الدين : «وهو جدير بذلك وأرى ان تقدمه وتجعله من

خاصتك » .

قال : «هو من حرسي كما قلت لك» .

قال : «احب ان يلازمك ولا يفارقك ليلا ولا نهارا وان تكون له دالة الصديق فيدخل عليك بلا اذن» .

فالتفت صلاح الدين الى عماد الدين وقال له : «أمر والدي بذلك فأنت من الان لا تفارقني في حلي ولا ترحالي» . ونهض ومشى مع ابيه نحو القصر وعماد الدين يتبعهما . وأمر صلاح الدين قيم القصر ان يختص عماد الدين بغرفة قرب غرفته ففعل ، وأصبح عماد الدين لفرط امتنانه لا يعرف كلاما يؤدي به ما في خاطره ، ولكنه اضمر ان يتفانى في خدمة مولاه . ويغلب في صادقي المودة والمخلصين في اعمالهم ان يكون لسانهم قصيرا فيعبرون عن شعورهم بالعمل دون الكلام .

ولم يكن لهم في ذلك اليوم شاغل مهم فبعد العشاء ذهب كل الى غرفته وقضى نجم الدين ليلته في غرفة ابنه صلاح الدين يتحادثان في شؤون كثيرة ترجع الى علاقة مصر بنور الدين . ثم انصرف كل منهما الى فراشه .

★★★

بات صلاح الدين تلك الليلة كعادته وهو يفكر في امر مصر ومطامعه فيها حتى غلب عليه النعاس فنام ، وقد أطفئت مصابيح القصر واطمأن الحراس الا عماد الدين فانه شعر بعد ان اختصه صلاح الدين بقربه انه يجب ان يكون اكثر يقظة وسهرا على حياته . فبات وهو يفكر في ذلك فحلم لفرط قلقه ان صلاح الدين يناديه فنهض مذعورا وأصاخ بسمعه فلم يسمع شيئا فحدثته نفسه ان ينهض ويتسمع فخاف ان يوقظ مولاه وهو على يقين انه سمع ذلك في الحلم . فعاد الى فراشه وقد طار نومه

وكثر تقلبه بين اليقظة والمنام . واذا هو يسمع وقع خطوات فهب من رقاده وتسمع فلم يسمع شيئا فغلب على خاطره انه يسمع هاجسا . ونظر الى السماء فعلم ان الفجر قريب ورأى انه لم يعد قادرا على الرقاد فلبس ثيابه . وحالما لاح الفجر خرج ليطل على غرفة صلاح الدين فرآها مقفلة وكل شيء هادىء والحراس بالباب كالعادة فعاد الى غرفته .

ولم تمض هنيهة حتى سمع صلاح الدين يناديه فلباه ودخل غرفته فرآه جالسا على سريره بلباس النوم وقد اخذته الدهشة . فأسرع اليه وحياه فصاح به صلاح الدين : «ما هذا ؟» . وأشار الى الوسادة عند رأسه . فتقدم عماد الدين فرأى خنجرا مسلولا عليه آثار دم قديم قد القي عند موضع رأس صلاح الدين من الوسادة فأجفل وصاح : «من فعل هذا يا سيدي ؟» . قال : «لا ادري ، لكني صحوت في هذه الساعة فرأيت الحال كما تراها» . فأطرق عماد الدين يفكر فوقع بصره على شيء عند قدمي السرير فاذا هو غمد ذلك الخنجر فتناوله وتأمله فلم يذكر انه يعرف صاحبه . وبينما هو يتفرس فيه اذ رأى في جوفه بطاقة استخرجها ودفعها الى مولاه ففضها وقرأها فبانت البغتة في عينيه ، ثم دفعها الى عماد الدين وصفق فدخل عليه احد الغلمان فأمره ان ينادي الامير نجم الدين والده حالا .

اما عماد الدين فانه قرأ البطاقة وأعاد قراءتها وتناول الخنجر وتأمله وأعاد النظر فيه فقال صلاح الدين : «كيف يدخل الناس علي وأنا نائم داخل هذا القصر والابواب موصدة ولا يشعر احد من الحراس ؟»

فأحس عماد الدين ان التوبيخ موجه نحوه لانه اقرب الحراس اليه فارتج عليه من شدة التأثر ، وهم ان يجيب واذا بنجم الدين قد دخل فلما رآهما في تلك الحال تناول البطاقة وقرأها واذا فيها :

«من احد مريدي سيد الاسماعيلية الى يوسف صلاح الدين .

«اعلم يا يوسف انك وان اقفلت عليك الابواب وأقمت الحراس لا تقدر ان تنجو من القصاص • اراك قد بالغت في القحة وتطاولت وظلمت ونسيت شيخ الجبل زعيم الاسماعيليين • لو اردت قتلك الليلة لما ابقيت عليك ، ولكنني عفوت عنك وأنا منذرك ان تصلح من سيرك • ولا تطمع ان تعرف من انا فان ذلك بعيد المنال اذ قد اكون اخاك او خادمك او حارسك ، وقد اكون خيطا في عمامتك او شعرة في رأسك ، وأنت لا تدري !• وانما اطلب منك ان تلزم حدك والسلام» •

فاستولى السكوت على الجميع لحظة • ثم اشار نجم الدين الى عماد الدين ان يقفل الباب وأن يجلسوا في خلوة لا يدخل عليهم احد ففعل وقلبه يتقد غيظا وقد ساءه حدوث هذا الامر في الليلة الاولى التي تولى فيها الحراسة الخاصة ، وأصابه الجمود لا يدري ما يقول ، وأدرك نجم الدين قلقه فناداه وابتسم له وقال : «لا تضطرب يابني ولا يداخلك خوف انكم لا تعرفون هؤلاء القوم ولا اظن يوسف يعرفهم» •

فقال صلاح الدين : «أذكر اني عرفت عنهم شيئا • ولكن من هم الاسماعيلية هؤلاء ؟ وما هذه الجسارة ؟ وكيف يستطيعون الدخول علي في غرفة نومي والحرس حولي • صدقوا لم يكن يمنعهم شيء من قتلي»•

فصاح عماد الدين : «خسئوا !•• ان ذلك بعيد عنهم • انهم لا ينالون من مولاي السلطان شعرة قبل ان يقتل زعيمهم اللعين» •

* * *

جلس نجم الدين وأمر عماد الدين ان يجلس وقال : «هل تعرف من هو هذا الزعيم ؟» • قال : «كلا يا سيدي • ومهما يكن من شأنه ••»

فقطع نجم الدين كلامه وقال : «تمهل يا شاب واسمع ما سأقصه على يوسف من خبر هذا الطاغية الذي يسمي نفسه رئيس الاسماعيلية الذين

هم في الحقيقة «طائفة الحشيشية» . ووجه خطابه الى صلاح الدين وقال: «اعلم يابني ان الاسماعيلية او الباطنية او الحشيشية طائفة من الشيعة لها بالدولة العبيدية علاقة قل من يعرفها ، ولذلك احببت ان أفصلها لك . ان مذهب الاسماعيلية كان مذهب هذه الدولة عند الفتح وقد نصروه ولاسيما الحاكم بأمر الله فانه أحياه ونشره بمساعدة رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي» .

«وفي ايامه ظهر رجل فارسي اسمه حسن بن الصباح له حديث طويل مع نظام الملك وعمر الخيام لا محل له هنا ، فأنشأ حسن هذا جمعية من الفدائيين وأقام في جبل (الاموت) قرب قزوين منذ اكثر من مائة سنة. وكان يغري رجاله بالفتك بمن شاء من كبار الرجال ؛ ومن جملة الذين قتلوهم نظام الملك وزير السلاجقة وكثيرون من القواد والملوك . كانوا يقتلون ولا يعرف قاتلوهم . او اذا عرفوا لا يبالون ان يقتلوا في سبيل تنفيذ امر مولاهم !» .

وكان صلاح الدين مصغيا لما يسمعه بكل جوارحه فقال: «كأنني سمعت بشيء من هذا القبيل ، ولكنني لم اكن أصدقه اذ لا يعقل ان يعرض الرجل نفسه للقتل على هذه الصورة تنفيذا لامر مولاه فقط» .

فاعترض عماد الدين وعيناه تتقدان وقد هاجت الحمية في رأسه وقال: «نعم يا سيدي . هذا امر معقول . ان الرجل ليفدي مولاه بروحه اذا كان يحبه ويحترمه» .

فأدرك نجم الدين غرضه وقال : «بارك الله فيك يابني لكن مثالك قليل وأكثر الناس يفعلون ذلك طمعا في شيء . اما الفدائيون هؤلاء فانما يفعلون ما يفعلونه طاعة لرئيسهم وكفى . وقد اختلفوا في سبب هذا التفاني فيقول بعض العارفين ان ابن الصباح كان يستهويهم بالسحر او يسقيهم الحشيشة التي تأخذ بالعقل . ولذلك عرفوا بالحشيشية او

الحشاشين ومهما يكن السبب فان وجود هذه الطائفة خطر على كبـــار الرجال •

«وكان مقرها في زمن (ابن الصباح) في قزوين بعيدا عن هـــذه الديار • اما الان فان مركزها في جبل السماق من اعمال حلب ، ولهم فيه معاقل وحصون ودعاة في الاطراف ، ولهذه الطائفة تاريخ طويل قبل انتقالها الى الشام خلاصته ان الرياسة انتقلت بعد ابن الصباح الى غيره وغيره ، وكان رابعهم في (الاموت) منذ نحو خمسين سنة يسمى حسنا ايضا ويضيفون الى اسمه قولهم : (علي ذكره السلام) • وكانت دعوته قد انتشرت في الشام فلما فتحها الافرنج قربوا الاسماعيليين واستعانوا بهم على المسلمين في مواقع كثيرة سرا وجهرا • فأذن لهم ملك الافرنج صاحب حلب ان يقيموا في جبل السماق (جبل النصيرية) ونزلـــوا (بانياس) وزعيمهم يومئذ اسمه بهرام ، وفي ايامه تمكنوا من الفتك بطائفة من الملوك والقواد بمصر والشام ، منهم الملك الافضل امير الجيوش بمصر ، ويقال انهم فعلوا ذلك به لانه استبد بالآمر بأحكام الله • وبلغني ان الآمر تغلب على بهرام وقتله لسبب لا أعلمه : ولعله ساءه قتل امير الجيوش وان كان قتله دفاعا عنه • وطافوا برأس بهـــرام في شوارع القاهرة هذه ، وقتلوا ايضا كثيرين من الافرنج بحجج مختلفة ، ومن هؤلاء ريمون صاحب طرابلس • ولهم بجبل السماق عدة قلاع حتى الان منها مصياف ومرقب وعليقه والرصافة وغيرها • وهم يعتصمون بها • اما زعيمهم الان فأظنه أدهى الرؤساء جميعا ، واسمه راشد الدين سنان بن سليمان ، وأصله من البصرة • خدم رئيس الاسماعيلية في (الاموت) وتفقه في العلم والفلسفة ، ثم انتقل الى الشام وأقام في حلب ، وهـــو أعرج وقد تظاهر بالتقوى والتدين فاجتذب العامة بذلك • ولا تجد شيئا يستهوي العامة مثل الدين • وبلغني من بعض رجالنا هناك ان سنانا هذا

كان يجلس للوعظ على صخرة وهو جامد مثلها فكثر دعاته وكانت دعوته لهم ان يتعاونوا فتغلب على عقولهم بالدهاء او السحر لا أعلم حتى جعلوا أموالهم مشتركة بينهم حتى النساء والبنات . ثم منعهم من ذلك .

«وبلغ خبره الى رئيس الاسماعيلية يومئذ في جبل السماق واسمه ابو محمد فاستقدمه اليه . وبعد قليل خلفه وتسلم زعامة هذه الطائفة منذ بضع سنوات فقط . وقد سمعت خبره قبل سفري بقليل ، وهو الان صاحب السطوة والكلمة النافذة ، وقد التف حوله ألوف من الدعاة الفدائيين الذين يفدونه بأرواحهم . اذا أمر احدهم بقتل امير او ملك، فانه سرعان ما يتنكر ويدخل في خدمة ذلك الامير او الملك بصفة سائس او خادم او حارس . ولا يزال يترقب الفرص حتى تسنح له ويغمد خنجره في صدره . فالحمد لله انهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة ولكن تهديدهم هذا أثقل وقعا من القتل !»

* * *

كان صلاح الدين في اثناء سماع الحديث مطرقا يفكر وعماد الدين يراعي حركات نجم الدين بعينيه ويتلقف ألفاظه بأذنيه وقد هاجت أريحيته وجاشت الحماسة في صدره . فلما فرغ نجم الدين من الكلام نظر الى عماد الدين فرأى عينيه يكاد الشرر يتطاير منهما فتجاهل .

اما صلاح الدين فقال : «لا بد من وسيلة تتخذها لنتجنب شر هذه الطائفة . اننا غير متفرغين لمراقبتها» .

فتصدى عماد الدين قائلا : «ان مراقبتها لا تفيد شيئا ولا بد من قطع دابرها» . قال ذلك وعيناه تدلان على ما يعنيه من العزم الاكيد .

فأجابه نجم الدين : «ماذا تعني ؟» . قال : «اذا أذن لي في ابداء الرأي فعندي ان احسن دواء لهذا الداء ان يقتل رئيس هذه العصابة

فتتفرق عصابته» • فقال نجم الدين : «هذا امر شاق لا سبيل اليه لان القوم معتصمون في الجبال الوعرة وعيونهم مبثوثة في كل مكان • وقد علمنا الان ان منهم اناسا في هذا القصر فكيف يتأتى الوصول الى رئيسهم وقتلـه ؟ »

قال عماد الدين : «ان من يحب مولاه يتفانى في خدمته كما قلت يا سيدي • فكما يستطيع هذا الاسماعيلي الملعون ان يدخل غرفة السلطان صلاح الدين ويعمل ما عمله ، فيمكن لسواه ان يدخل على زعيـــم الاسماعيلية ويغرس هذا الخنجر في صدره • واذا قتل بعد ذلك فقد أدى واجبا لينقذ انفسا شريفة من الفتك • لان هذا اللعين لا يتعمد الا قتل العظماء ، فالموت في سبيل قتله فخر يتطلبه كل ابي النفس !»

فأحس نجم الدين ان الشاب يعني ان يذهب هو نفسه في هذه المهمة، فأراد ان يثني عزمه حرصا على حياته لاعتقاده بالخطر الذي يهدده فقال: «ان هذا الامر لا يقدم عليه الا المجنون ، ولكننا لا نعدم وسيلة اخــرى لاسترضائهم بالمال فانهم كثيرا ما يرتكبون القتل طمعا فيه اذ يغريهم بعض رجال السلطة بقتل اعدائهم» •

فقال عماد الدين : «صدقت يا سيدي قد يسترضون بالمال ولكن هذا لا نهاية له • وأما اذا قتل زعيمهم فان دابرهم ينقطع» •

فقال : «ليس هذا بالرأي الصواب لانه صعب • ولا تجد من يقدم عليه اذا عرف خطره» •

فقال عماد الدين وهو يشير بيده الى صدره وعيناه تلمعان حماسة: «هذا عبدك عماد الدين يقدم نفسه للقيام بهذه المهمة من هذه الساعــة وأرجو ألا ترد طلبي» •

فقال نجم الدين : «بارك الله فيك انها حمية يندر مثالها • ولكننا في حاجة اليك هنا» •

فقال : «وما الفائدة من وجودي هنا وهذه اول ليلة من حراستي أوشك مولاي السلطان ان يقتل فيها . اما ذهابي فأرجو ان يكون قاطعا فاصلا ، أستحلفك برأس مولانا السلطان صلاح الدين ان تأذن في قيامي بهذه المهمة وهذا شرف كبير لي» .

وكان صلاح الدين في اثناء هذا الجدال غارقا في التفكير في سبب وقوع هذا الامر في هذه الليلة ، فلما سمع اسمه انتبه لما يقوله عماد الدين فأجابه قائلا : «ان هذه المهمة خطرة جدا ونحن في حاجة اليك هنا» . قال : «اقسمت برأسك ان أذهب فاذن لي» . فالتفت صلاح الدين الى ابيه كأنه يستشيره فقال نجم الدين : «أطعني ودع عنك هذا الخطر» . قال : «اني عبد مطيع ولكني اقسمت برأس مولاي اني ذاهب في صباح الغد ، وأحب ان يكون ذهابي سرا عن كل انسان لا يعلم به سواكما لاننا اصبحنا لا نعرف صديقنا من عدونا فلا ينبغي ان يعلم احد بسبب ذهابي» .

فقال صلاح الدين : «اذا لم يكن بد من ذلك فامض وفقك الله لما تريده ، ولكنني كنت وأنتما تتباحثان أفكر في السبب الذي أوجب وقوع هذا الامر الليلة فلم أهتد . ولكنني ..» . وتذكر خطبة سيدة الملك على يد الهكاري فترجح له ان هذا الامر هو الذي بعث على تحمس احد الاسماعيلية المستترين . ولكنه لم يجد هذا التعليل معقولا فسكت .

فلحظ ابوه تردده فقال له : «ما بالك يا يوسف ؟ قل ما يخطر لك لعلك تتقي التصريح امام عماد الدين الذي يفديك بروحه ؟» . فقال : «كلا يا ابت ولكنني فكرت في سبب ما حصل الليلة فلم يستقم حكمي ففضلت السكوت» . قال : «قل ماذا خطر لك ؟» . قال : «أعترف لك يا ابي بأني ارتكبت خطأ في صباح امس ساقني اليه تسرعي باغراء صديق لي حميم . وذلك اني امضيت امرا كان ينبغي قبل امضائه ان أستشيرك

فيه وها اني الان ألاقي عاقبة تسرعي !»

قال : «ما ذلك ؟» . قال : «اتاني صديقنا عيسى الهكاري وأنت تعلم صدق مودته لي ونصحه اياي فاقترح علي اقتراحا يرى فيه خيرا كبيرا لي فأطعته ولكنني لم أكتب فيه كتابة بل تركت الامر مبهما ريثما استشيرك» .

فلم يعد نجم الدين يستطيع صبرا على فهم مراده فقال : «وما هو هذا الاقتراح ؟» . قال : «عرض علي ان يخاطب الخليفة العاضد في امر اخته سيدة الملك ان تكون زوجة لي !» . فبانت البغتة في وجه نجم الدين وصاح فيه : «وهل وافقته على ذلك ؟» . قال : «ترددت كثيرا ، وأخيرا رضيت ان يكتفي بالسؤال من عند نفسه» . قال : «ما زلت تقدم على أمور لا تليق بالسلاطين !. مالنا ولهذا الرجل ولاهل بيته ؟. لماذا نعرض نفسنا للفشل ؟. هل تعرف الفتاة ؟»

قال : «قيل لي انها بارعة في الجمال جدا» .

وكان عماد الدين يسمع الحديث ساكتا فعلم انهما يتكلمان عن سيدة الملك وكان قد رآها يوم واقعة العبيد وأرجع اليها خصلة الشعر كما تقدم ، وقد استلطفها لكنه لم يحلم بالحصول عليها . ولذلك شعر من طلب مولاه لها بلذة ممزوجة بالغيرة . لذ له ان تكون تلك الفتاة الجميلة لسيده افضل من ان تكون لسواه ، لكنه لما تصور ذلك أحس بالغيرة منه . ولحظ نجم الدين في وجهه فكرا في الموضوع فقال له : «هل تعرف الفتاة يا عماد الدين ؟»

قال : «أتيحت لي فرصة رأيتها فيها وهي في أشد الاضطراب ، أعني يوم واقعة العبيد ، حين أمر مولاي النفاطين برمي النفط على القصر ، ثم أمرهم ان يكفوا عن رميه وكنت في جملة من دخل القصر فرأيت الفتاة في ضيق أنقذتها منه وما زلت أذكر وجهها الجميل وشعرها الذهبي . انها تليق بسيدي صلاح الدين . وهل هي تتوقع من هو خير منه ؟!»

فقال نجم الدين وهو يظهر انه واثق مما يقول : «مالنا ولها ؟ أشك في ان يوسف لم يطع الهكاري الا حياء» . ووجه كلامه الى صلاح الدين قائلا : «هل اتاك الهكاري بجواب من الخليفة ؟»

قال : «ذكر انه خاطب الخليفة فاستمهله في الجواب ولا ندري مــا يكــون » .

فهز نجم الدين رأسه هز الانكار وقال : «لا يسهل عليه الايجاب في هذا الامر لان هؤلاء المساكين شديدو التمسك بهذه البقية الباقية من سيادتهم . أعني تمسكهم بمجد الاسلاف وانهم من سلالة بيت الرسول واننا لسنا أكفاء لبناتهم لاننا من الاعاجم» . قال ذلك وضحك ملء فيه والتفت الى صلاح الدين فرآه مطرقا يفكر ، وكان قد تذكر قول الهكاري انه اذا احتيج الى نسب عربي وضعه له ، كما تذكر ما توقعه من صيرورة الخلافة اليه او الى اولاده بسبب ذلك الزواج . فلما التفت ابوه اليــه تنبه قائلا : «ألايحق لهم الافتخار بذلك النسب الشريف ؟»

قال : «كيف لا ! ولذلك قلت انهم ضنينون به لا يفرطون فيه فكيف ترجو قبول طلبك وأنت كردي ؟» . وضحك ، فرأى صلاح الدين ان يقطع الحديث ليرى ما يأتي به الغد فقال وهو يتحفز للنهوض من الفراش: «متى اتانا جواب الخليفة ننظر فيه» . ولما نهض كان الخنجر ما زال ملقى على الفراش فأسرع عماد الدين اليه وتناوله وهو يقول : «هل يأذن لي مولاي في اخذ هذا الخنجر ؟»

فقال : «أليس عندك خنجر ؟» . قال : «عندي لكنني أود ان أغمده في صدر ذلك الطاغية الذي هددنا به» . قال صلاح الدين وهو يلبس ثيابه : «أما زلت مصمما على قتله ؟» . قال : «اقسمت برأس مولاي ان اقتله ، اذ لا سبيل الى الراحة منه الا بذلك . فأرجو ألا تراجعني . وألتمس من مولاي الامير نجم الدين ان يزودني برضاه ودعائه وقــد

اقسمت ألا تطلع شمس الغد الا وأنا خارج القاهرة» .

فابتسم نجم الدين وهو ينظر الى عماد الدين نظر العطف والاعجاب وقال : «يسرني ما اراه فيك من الحمية والغيرة على يوسف ، بل هي غيرة على المسلمين كافة لان هذا الاسماعيلي الشيطان قد أقلق العالم بدسائسه وفتكه فاذا تمكنت من قتله فأنت أمير كبير وقائد عظيم لا يتقدمك احد من رجال هذه الدولة غير ابني يوسف هذا» .

فأكبر عماد الدين هذا الوعد الصريح بالمكافأة الكبرى فازداد تمكنا من عزمه ولكنه أطرق خجلا . فعاد نجم الدين الى اتمام حديثه فقال : «ولكن هل تعرف الطرق وما يعترض عملك هذا من المخاطر ؟»

قال : «هب اني لا اعرف شيئا الان فلا يعجزني علمه» . قال : «فتبقى هنا بضعة ايام لاجل الاستعداد» . قال : «قد اقسمت على الخروج الليلة من هذا البلد . وانما ألتمس ألا يعلم احد بجهة مسيري ولا الغرض منه» .

وكان صلاح الدين قد أتم لبس ثيابه فقال : «بورك فيك» . ونظر الى ابيه فرآه ينظر الى عماد الدين وهو يقول له : «وفقك الله في امرك كن شجاعا واثقا بنفسك ، واعلم انك اذا وفقت الى ما تريد اتيت عملا لم يستطعه سواك فتنال ما لم ينله احد» .

فهم عماد الدين بتقبيل يد نجم الدين ثم يد صلاح الدين وقال : «أستأذنكما في تدبير شؤوني اليوم وربما لا تريانني بعد الان لاني احب ان اخرج من هذا البلد خلسة» .

قال نجم الدين : «افعل ما بدا لك» .

* * *

خرج عماد الدين لتدبير سفره واعداد ما يلزمه وقد اخذت مهمته تنجلى له بما يحدق بها من الخطر العظيم ولكنه صمم عليها ولاسيما

بعد ما سمعه من الوعد بالمكافأة .

قضى معظم النهار في منظرة اللؤلؤة وهو يتهيأ للسفر حتى أعد كل ما يحتاج اليه وقد مالت الشمس الى الاصيل . فانفرد في غرفته يفكر في مهمته واذا بطارق يطرق بابه فأجفل لانه لا يطرق بابه احد لاسيما وهو على أهبة السفر . فنهض وفتح الباب فرأى غلاما صقلبيا يظهر من ثوبه وشكله انه من غلمان قصر الخليفة . فاستغرب ذلك فدخل الغلام وقال : «لعلي في حضرة الفارس عماد الدين ؟»

قال : «نعم ما وراءك ؟» . فمد الغلام يده الى جيبه وهو يشير الى عماد الدين ان يغلق الباب خوفا من ان يراه احد واستخرج لفافة دفعها اليه . فتناولها ولم يتم فضها حتى اقشعر بدنه لانه رأى فيها خصلة الشعر الذهبي التي كان قد ارجعها الى سيدة الملك ، فبانت البغتة في وجهه لكنه تجلد وأخذ يتفرس في الكتاب فاذا هو رسالة مختصرة بلا توقيع. فأغلق الباب وتحول نحو الداخل وهو يقرأ ، وهذا نص الكتاب :

«الى البطل الباسل عماد الدين . اعلم يا سيدي الك نجيت نفسا شريفة من القتل والعار . وهذه النفس تحتاج الى رؤيتك لتكافئك على صنيعك . وقد كلفتني ان ارسل اليك العلامة التي ينطوي عليها هذا الكتاب لتتأكد صدق قولي . فأسرع الينا على عجل فاننا نستصرخك وقد لبيتنا من قبل بلا استصراخ . وحامل هذا الكتاب يرشدك الى الطريق » .

فرغ من تلاوة الكتاب وهو يحسب نفسه في حلم فظل هنيهة كالغائب يفكر فيما يعمله ، أيجيب دعوة الداعي وهو على أهبة السفر ؟ ام يعتذر وهي تستصرخه . وأحس عند رؤية الشعر بجاذب يدعوه الى الاجابة. وتذكر ما بعثه على حمل تلك الخصلة من دمشق الى القاهرة حتى دفعها الى صاحبتها حرصا على كرامتها بدون ان يعرفها فكيف تدعوه بلفظ

الاستصراخ ولا يذهب اليها ؟

وكان الغلام في اثناء ذلك واقفا ينتظر الجواب فلما استبطأه خطا خطوة نحو عماد الدين فانتبه هذا لنفسه فالتفت الى الغلام وقال : «ما وراءك غير هذا الكتاب ؟»

قال : «هذا كل ما لدي ولكنني امرت اذا استفهمتني عن الطريق ان أرشدك اليه» .

قال : «وكيف ذلك ، هل يجهل احد الطريق إلى قصر الخليفة ؟»

فابتسم الغلام وخفض صوته وقال : «ليس القصر مجهولا ولكن صاحب هذه الرسالة في قصر النساء ، ولا سبيل لرجل الى هناك ولاسيما بعد ان جعلتم الاستاذ بهاء الدين قراقوش قيما عليه فأصبح أمنع من عقاب الجو» .

قال : «اذن كيف الوصول الى المكان المقصود ؟»

قال : «اذا كنت قد صممت على الذهاب فاني أدلك على طريق توصلك الى داخل قصر النساء ولا يشعر بك احد» .

فاستغرب قوله وقال : «أظنك تعني ان أتنكر بثوب جارية» . قال : «كلا . فان هذا لا يغني شيئا . اذ لا يستطيع احد المرور من الباب ان لم يعرفه الحاجب باسمه ولقبه» .

قال : «كيف اذن ؟»

قال : «أعرف طريقا سريا في سراديب تحت الارض بين هذه المنظرة وقصر الخليفة لا يعرفها الا القليلون» . قال : «سراديب تحت الارض ؟» قال : «نعم يا مولاي . لما بنى الخلفاء الفاطميون قصورهم ارادوا ان يكون لنسائهم طريق يخرجن منه الى الحدائق والبساتين او الى المناظر القائمة على ضفاف هذا الخليج . فاصطنعوا لهن سراديب تحت الارض ينزلن اليها من وسط القصر ويمشين فيها بلا حجاب حتى يخرجن الى

البساتين . وفي جملتها السراديب المؤدية الى هذه المنظرة فانها كانت مطروقة اكثر من سواها لكثرة تردد الخلفاء واقامتهم هنا . حتى ان ثلاثة منهم ماتوا في هذه المنظرة وحملوا في هذه السراديب الى القصر ، وهم : الآمر بأحكام الله ، والحافظ لدين الله ، والفائز . ثم اهمل امرها بعد نزول غير الخلفاء في هذه المنظرة . وتنوسيت منذ عدة سنــــوات ولكنني اعرفها فاذا احببت ان اسير في خدمتك فعلت» .

* * *

تحير عماد الدين في امره واستغرب وجود هذه السراديب وفكر هل يجيب الدعوة ام يعتذر لانه على وشك السفر . والتفت الى نافــــذة الغرفة فرأى الشمس دنت من المغيب وهو لا بد له من مغادرة القاهرة في تلك الليلة كما أقسم ووعد ، فنادى الغلام اليه وقال : «كم يقتضــي لنا من الوقت لنصل الى القصر ؟»

قال : «لا يستغرق سيرنا الا دقائق معدودة» . فقال في نفسه : «اجيب الدعوة وأعود سريعا فأسافر» . والتفت الى الغلام وقال : «هلم بنا» . قال : «تمهل ريثما تغيب الشمس فنذهب في الظلام لئلا يشعر بنا احد من اهل هذا القصر» . فتصور عماد الدين الخطر المحدق به في هذه المهمة لكنه أكبر ان يتخوف او يحسب للمخاطر حسابا وهو الذاهب لقتل زعيم الاسماعيليين . فقال : «انتظرني اذن خارج هذه المنظـــرة فألاقيك هناك بعد الغروب» . قال : «حسنا ، سأمكث في انتظارك تحت هذه الجميزة بجانب الخليج ، فاذا رأيتك قادما تقدمت نحوك ومعــي الرداء الذي ينبغي ان تلتف به في اثناء الطريق ، وعند الوصول الـــى القصر ، لئلا ينكرك احد من اهله» . قال ذلك وخرج وخلف عماد الدين على مثل الجمر من القلق . فلما خلا بنفسه استأنف النظر الى ذلـــك

الكتاب وأعاد قراءته وتذكر المرة الاولى التي شاهد فيها صاحبة ذلـــك الشعر وما سمعه عنها امس من امر صلاح الدين فرأى انه قد يستطيع خدمة مولاه باجابة سؤالها فيحرضها على قبوله . ولما تصور ذلك هبت الغيرة في قلبه . ولكنه تعمد الاغضاء عن هذا الشعور حبا في مصلحة مــولاه .

ولما أسدل الليل نقابه خرج بأخف ملابسه وسلاحه حتى دنا مـــن الجميزة فرأى شبحا كأنه امرأة قادما نحوه فتقدم اليه وتفرس فيه فاذا هو الغلام قد التف بملاءة كالازار او المطرف ودفع اليه ملاءة ليلتف بها ايضا ، ثم مشى الغلام بين يديه في البستان وهما لا يريان شيئا غـير أشباح الاشجار تتراءى بينهما وبين الافق . مشيا مدة لا يتكلمان ، ثم التفت الغلام الى عماد الدين وأمسك بيده كأنه يقوده فهبط معه الــى حفرة . ومد الغلام يده الى أعشاب يابسة أزاحها فوصل الى باب مـــن حديد فيه حلقة قبض عليها وأعانه عماد الدين ففتحا الباب فشعـــــر عماد الدين بريح فيها رطوبة وعفونة فعلم انها اتت من ذلك السرداب . فقال له الغلام : «اتبعني يا سيدي . اقتص خطواتي» .

فشعر وشعر بأنه يمشي على ارض مرصفة بالحجارة . ولكن الظلام كان شديدا جدا وأخذت رائحة العفونة تشتد كلما أمعنا في السرداب . فخاف عماد الدين ان يكون قد ورط نفسه فقال : «هل انت على ثقة من امر هذا الطريق ؟» . قال : «نعم وقد جئت فيه اليك اليوم» . فاطمأن خاطره وسكت وهو يخطو ويتلمس الجدران . ثم سمع وقع أقدام فوق السرداب فقال له الغلام : «نحن الان تحت القصر الصغير ، وبعد قليل نمر تحت الميدان وليس بعده الا قصر الخليفة فقصر النساء» .

ولما أحس الغلام انهما تحت قصر النساء اشار الى عماد الدين ان يقف فوقف . فتقدم هو الهوينى حتى رفع باب السرداب فبصر عماد الدين

بالنور وبعد قليل اتاه الغلام وأمسك بيده وأشار اليه ان يخرج . فصعد بضع درجات فاذا هو في غرفة فيها مصباح فنظر الى نفسه والى رفيقه على النور بعد هذه السفرة في الظلام فرأى عليهما التراب ونسيج العناكب ، فنفض الرداء ونظر الى الغلام وأشار بيده يستفهم عما يعمله ، فأومأ اليه ان ينزع الملاءة ففعل ودخلا حجرة مفروشة بأحسن الرياش فتحقق انه في قصر النساء . ثم اشار اليه الغلام ان يقعد وينتظر وخرج هو ، فقعد وقلبه يخفق تطلعا لما سيراه في تلك الليلة ، وتذكر مجيئه الى هذا القصر من عهد غير بعيد ، وكيف رأى سيدة الملك . وطال انتظاره حتى تولاه القلق . واذا بالغلام قد عاد ومعه ياقوتة الحاضنة فحالما وقع نظره عليها تذكر انه رآها قبل ذلك الوقت .

اما هي فأسرعت اليه وحيته وأشارت الى الغلام ان ينصرف فانصرف، وظلت ياقوتة وحدها مع عماد الدين فقالت : «لقد اتعبناك يا سيدي وأتينا بك في هذا الليل» . فقال : «لا بأس يا سيدتي وانما ارجو ألا يكون لاستقدامي سبب يوجب القلق» . فتنحنحت وقالت : «لا والحمد لله. ألا تذكر انك رأيتني يا عماد الدين ؟» . قال : «بلى أذكر ذلك جيدا» . قالت : «اما انا فلا انسى قدومك في ذلك اليوم العصيب ، وما اتيته من الاريحية والنخوة في انقاذ مولاتي سيدة الملك من خطر الموت . انها لا تنفك تذكر ذلك الفضل لك . وكثيرا ما تمنت ان تراك لتكافئك على صنيعك ولكنك لم تعد» . فقال مسرعا : «لاني لم افعل ما فعلته لاجل المكافأة ، وأنا غني عن ذلك بفضل مولاي صلاح الدين» . قالت : «طبعا، ولكن المكافأة لا تعطى دائما للحاجة اليها بل هي تدل على امتنان المعطي للمعطى له . وعلى كل حال فليس ذلك من شأني بل هو يرجع اليك واليها فاذا إلتقيتما صرت انا غريبة . أليس كذلك ؟» . قالت ذلك وضحكت وفي عينيها وغنة صوتها معنى لا يعبر عنه بالكلام ، فتوسم عماد الدين

في كلامها معنى اختلج له قلبه . ولم يصدق نفسه لما يعلمه من البون البعيد بينه وبين سيدة الملك ، وهي أخت الخليفة اعظم نساء المسلمين بمصر . فقال وهو يتجاهل مرادها : «كيف مولاتنا سيدة الملك ارجو ان تكون في خير وعافية ؟»

قالت : «ألم تصل اليك رسالتها ؟» . قال : «كيف لا ؟ وما الذي اتى بي في هذا الوقت ؟» . قالت : «وخصلة الشعر ؟» . فمد يده واستخرجها من جيبه وقال : «هذه هي» .

قالت : «ألا تريد ان تردها اليها كما رددتها في المرة الماضية ؟»

قال : «بلى . وأنا جئت اجابة لدعوتك لانك قلت ان سيدة الملك تستصرخني فهل هناك باعث مهم ؟»

قالت : «انما بعثها على ذلك رغبتها في مكافأتك . وقد كلفتني ان أدفع اليك هذا العقد» . واستخرجت عقدا من اللؤلؤ لم يقع بصر عماد الدين عليه حتى دهش . وقدمت العقد اليه فتناوله ولم ينظر اليه بل اعاده اليها وهو يقول : «شكرا لمولاتي . انني في غنى عن تحميلها هذه الثقلة لاني لم أفعل ما فعلته طمعا في المكافأة» .

فاستعظمت هذه الانفة منه وقالت : «اني مأمورة بايصال هذه الهدية اليك ، فاذا كنت لم تقبلها فاني ادعو صاحبتها لتقدمها بنفسها ، ولكن احذر ان تكون قاسيا يا عماد الدين» .

فزاده هذا التعبير بيانا لما توسمه في عبارتها الاولى ، فسكت وقد ارتبك في امره .

* * *

اما هي فنهضت وخرجت وتركت العقد في مكانها على البساط ، وظل عماد الدين وحده وهو مرتبك لا يدري ما يقول او يعمل . ثم

عادت ياقوتة وسيدة الملك وراءها وقد التفت بالنقاب حتى لا يظهر الا عيناها وبعض جبينها فلاحظ في عينيها ذبولا وقد تغيرت عن ذي قبل . فلما رآها دخلت وقف لها وتأدب وأطرق فتقدمت اليه وهي تتماسك وقالت : «اجلس يا عماد الدين . انك ذو فضل على حياتي وشرفي ولا حاجة الى الوقوف لي . اجلس . قد أتعبناك بهذه الدعوة الليلة وأزعجناك فضاعفت فضلك علينا» . قالت ذلك وهي تقعد وتشير اليه ان يقعد فقعد ، وظلت ياقوتة واقفة وهي تتناول العقد عن البساط ثم دفعته الى سيدة الملك وقالت : «هذا العقد دفعته اليه حسب امرك فلم يقبله» . فتناولته واتجهت نحو عماد الدين وقالت : «أترفض هدية صغيرة قدمتها اليك وأنت قد اهديتني حياتي ؟» . ومدت يدها نحوه والعقد في كفها وهي تتوقع ان يمد يده فيتناوله منها . فلما ابطأ تصدرت ياقوتة للكلام قائلة : «بماذا أوصيتك يا عماد الدين . ألم اقل لك لا تكن قاسيا ؟»

فخجل ومد يده وتناول العقد وهو يقول : «اني أقبله هدية لا مكافأة ، ولما مد يده ليتناوله لمست انامله كفها فأحس ببردها وارتعاشها، وأحست هي برعشة كهربائية سرت في عروقها . وبان البشر في محياها فقعدت ياقوتة وهي تضحك وتقول : «ها انه قبله منها ولم يقبله مني» .

فقطع كلامها قائلا : «لانك اردت ان آخذه مكافأة على خدمة فلم أقبله طبعا لاني ان كنت قد فعلت خيرا فلم افعله طمعا في المال .. و..»

فقطعت ياقوتة كلامه قائلة : «طمعا في اي شيء اذن ؟ يظهر انكما تعارفتما قبل ذلك اليوم .. و ..» . وضحكت فاستغرب تعريض هذه الحاضنة بحب متبادل بينهما وهو لا يعلم بشيء من ذلك ، وانما يعلم انه استلطفها ومال اليها ولم يحلم انها استلطفته او مالت اليه . ولذلك لم يفكر فيها لاعتقاده استحالة حصوله عليها . فلما سمع ذلك التعريض تحرك قلبه وأوشك ان يشعر بالامل فاعترض افكاره صلاح الدين وما

سمعه في ذلك اليوم من خطبته اياها ، فأنكر على نفسه ان يتصدى لامر يخص مولاه وهو يفديه بروحه . وأصبح بعد حديثه معها خيانة لكنه لم يجسر على التصريح بذلك فتجاهل وقال : «انما فعلت ما فعلته يومئذ مدفوعا بما تفرضه علي المروءة ، من يستطيع ان يرى سيدة الملك بين يدي الاشرار يريدون ان يلحقوا بها الاذى ولا يفديها بروحه ؟»

فالتفتت سيدة الملك نحوه وقد ضايقها النقاب وخافت ان يمنعها عن الكلام فأزاحته عن فيها وقالت : «لا بأس عليك من كشف هذا الوجه بين يديك فانك صاحب الفضل في بقائه ؛ انك تستغرب وجود رجل يستطيع ان يراني في ذلك الخطر ولا يفديني بروحه . لا تستغرب ذلك يا عماد الدين فقد كان في قصري عشرات من اهلي وعشيرتي لم يقدم احد منهم على ما اقدمت عليه . وكأنك كنت على موعد من تلك الساعة . فدفعت الي بصلة الشعر صيانة لها ولي . فهل آلام اذا نظرت اليك نظري الى ملاك هبط من السماء لانقاذي ؟. ولكني لا أعلم كيف كان شعورك في تلك الساعة» .

فرأى في اطرائها اشارة الى حبها ، لكنه كذب نفسه وعاد الى الانكار فقال : «اما شعوري فهو اني وأنا في خدمة مولاي السلطان صلاح الدين ؛ وقد امرنا ان نكف عن رمي النفط ، وقع بصري على زجاجة نفط سقطت في هذه الدار وأنا على يقين انها ليست من عندنا فاستغربت وقوعها . ثم رأيت نذلا ملثما اغتنم اشتغال اهل القصر بأنفسهم ودخل كالذئب الكاسر ومعه أناس ارادوا القبض عليك ، فلم أتمالك عن الوثوب عليهم ، ولم اكن أعلم انهم يريدونك ولا انك سيدة الملك اخت الخليفة . فلما اتجه نظري اليك ورأيت هذا الشعر الذهبي علمت انك هي . وكانت تلك الخصلة في جيبي فدفعتها اليك» .

فلما سمعت اسم صلاح الدين اجفلت ، لكنها مالت الى معرفة قصة

خصلة الشعر فقالت : «من اين وصلت هذه الخصلة اليك ؟»

فتوقف عن الجواب حتى خاف ان ترتاب فيه ثم قال : «اتيت بها من دار السلطان نور الدين صاحب دمشق . ما لنا ولهذا ؟ وقد سألتني عن شعوري في تلك الساعة فهو الي شعرت بحمية لم استطع دفعها ووثبت لمقاومة اولئك الاشرار وأنا لا اعرفهم ولا اعرف على من هم واثبون . فلا فضل لي على سيدة الملك لاني لم اكن اعرف انها هي المقصودة بالاذى وانما فعلت ما فعلته مدفوعا بالمروءة» .

وكان يتكلم وهي تنظر اليه وتكاد تتلقفه بعينيها فلما وصل الى ذكر المروءة صاحت فيه : «من اجل هذه المروءة شعرت بهذا الشعور ورغبت في استقدامك لاعترف بجميلك» .

فخجل من هذا الاطراء وقال : «العفو يا سيدتي ان مثلي لا يستحق هذا الاطراء من اخت امير المؤمنين ، لاننا عبيد ويجب علينا التفاني في الدفاع عن صاحب هذا المقام السامي» .

قالت : «اسمع يا عماد الدين ، لست عبدا ، ولو انك اندفعت الى هذه المنقبة لاجل اخت الخليفة لقلنا انك فعلت ذلك تقربا من امير المؤمنين . ولكنك انما دفعك اليها نفس أبية وهمة عالية وأريحية ومروءة لا نعهد مثلها فيمن نعرفهم بين أظهرنا من الامراء وأبناء الخلفاء . فهذه الخصال رفعت قدرك وجعلتك في مصاف الملوك .. لا تقل انك عبد ، معاذ الله بل انت امير من اعظم الامراء وستكون كذلك قريبا اذا شئت» .

وظهر في عينيها معنى لم يترك لعماد الدين سبيلا للتجاهل ، وأعجبه قولها انه سيكون اميرا وهو في ذلك اليوم أوشك ان يصير من الامراء بما آنسه من اعجاب نجم الدين به وتقديمه . وتذكر المهمة التي هو ذاهب فيها وما وعده به نجم الدين اذا فاز بها . فتفاءل من مطابقة قولها قول نجم الدين انه امير وسيصير اميرا عن قريب . ثم انتبه فجأة الى انه قد

مضى هزيع من الليل فخاف انيطول الكلام في تلك الجلسة، ولم تعجبه مقدمات الحديث لعلمه بما طلبه صلاح الدين من اخيها . وخيل له انها استقدمته لامر يتعلق بذلك الطلب اذ لا يزال يستبعد ان يكون هـــو المقصود به ، فأراد ان يتحقق ظنه فقال : «اذا صرت شيئا مذكورا فانما يكون الفضل فيه لمولاتي سيدة الملك لانها احسنت الظن بعبدها فقدمه مولاه السلطان صلاح الدين في مساء امس حتى جعله اقرب أعوانه اليه».

فلما سمعت ذكر صلاح الدين للمرة الثانية اجفلت وانقبضت نفسها وتذكرت ما جرى لها بسببه ولم يعجبها اقتران اسمها باسمه في هـــذا الموضوع لكنها سرت لقوله ان صلاح الدين قدمه فقالت : «لا غرابة في تقديمك فأنت اهل لاكثر من ذلك . انك امير وسيد وستنال مقاما لم ينله صلاح الدين ولن يناله هو ولا غيره من السلاطين او الامراء . هذا اذا شئت» . وتلعثم لسانها وغلبت على امرها وأبرقت عيناها وبان الحياء في محياها فأطرقت . وكأنها ندمت على ما فرط منها فجعلت تتشاغل بتثنية طرف جديلتها المرسلة على صدرها من تحت النقاب .

اما هو فلم يبق عنده شك فيما تعنيه واستعظمه منها وهاجت عواطفه وأحس بانعطاف جديد نحوها بعد ان سمع تصريحها انها تحبه وانهـــا تفضله على صلاح الدين . لكنه تذكر ان مولاه صلاح الدين يريدها مع انه لا يرجو ان ترضى به فاستنكف ان يقوم مقامه او يقف في سبيله او يعتدي عليه وهو صنيعته وقد صمم ان يفتديه بروحه . فلم يتمالك عن النهوض وقال : «ان سيدتي بالغت في اطراء عبدها كثيرا فأنا صنيعـــة مولاي السلطان ولا اخفي اني ذاهب الليلة في مهمة تخصه وأخاف ان اتأخر عنها اذا أطلت المقام هنا» .

فأمسكت بيده وأقعدته وقد بانت انفة الملوك في وجهها وقالت بصيغة الامر : «لا . لست عبدا لاحد ولا صنيعة احد ، وقد قلت لك انك امير

وسيد . لا . لا ينبغي ان تذهب في خدمة احد اني في حاجة اليك وقد استصرختك . أين حميتك ومروءتك ؟»

فلما قبضت على يده سرت الرعشة في اعضائه وقعد بالرغم منه . لكنه لما سمع كلامها خاف ان يغلب على امره فقال وهو يتحفز للنهوض «ان هذه المروءة نفسها تحملني على الذهاب الان لاني تعهدت بأمر لا بد من الذهاب فيه وهو يخص مولاي صلاح الدين . واذا كانت مولاتي ترى في هذه المناقب وأنا صنيعة صلاح الدين وخادمه فكيف لـــــو عرفته هو ؟»

فنفرت من هذا الجواب وكانت لا تزال قابضة على يده فتركتهـــــا وأعرضت بوجهها وهي تظهر الغضب فتصدت الحاضنة ياقوتة وقالت : «ما هذا يا عماد الدين ؟ تخاطبك مولاتي من الشرق فتجيبها من الغرب ألم تفهم مرادها ؟»

قال : «نعم فهمت ويسرني رضاها عني وقد غمرتني بفضلها وانعامها. ولكنني صنيعة السلطان صلاح الدين وأنا ذاهب في خدمته» . وتحول نحو سيدة الملك وقال : «لماذا غضبت مني يا سيدتي انما ألتمس رضاك؟»

فسرها عتابه فالتفتت نحوه وعيناها تعاتبه وقالت : «لاني اخاطبك وأطلب الجواب عن نفسك فتجيبني عن صلاح الدين . ما لنا وله ؟ دعه في سلطانه انه لا دخل له في هذا الحديث . ألم تفهم ؟»

فتحير عماد الدين في امره وارتج عليه وعلم انها لا تريد صلاح الدين وأوشك ان يغلب على عقله . ومن الذي يقف هذا الموقف ولا يغلبـــه الهيام ويتسلط على قلبه ؟. لكن عماد الدين كان قوي الارادة شديـــد الاحترام لصلاح الدين وكان تلك الليلة في شاغل عن كل شيء بأمر زعيم الاسماعيلية وسفره فتجلد ونهض بلطف وهو يقول : «قد فهمت يـــا سيدتي على قدر امكاني واذا لم أفهم فلأني ارى نفسي لا أستحق هذه

النعمة • وما زلت ارى مولاي صلاح الدين أحق بها • ولا تغضبي يا سيدتي ، ان صلاح الدين لم تعرفيه ، واو عرفته لضربت بعماد الدين عرض الحائط • ومع ذلك فاني طوع امرك ولكن ا••»

فقطعت كلامه وتوجهت نحوه وهي تبتسم والدمع يتلألأ في عينيها وقالت : «لا تقل ولكن • بل قل انك تطيعني فيما اطلبه» •

قال : «اطيعك في كل شيء ولكن بعد رجوعي من هذا السفر • ان سفري لا بد منه وقد اقسمت ان اكون في صباح الغد خارج هذا البلد• ومضى بعض الليل وأنا لم أتحرك من مكاني • فبالله اسمحي لـــــي بالانصراف الان» •

فقالت والدهشة ظاهرة في وجهها : «تنصرف الان ، الى اين ؟»

قال : «الى منظرة اللؤلؤة ومن هناك أركب حالا وأسافر» •

قالت : «تسافر ؟ ويلاه الى اين ؟»

قال : «في غرض يختص بمولاي السلطان !»

فأطرقت وهي لا تدري ما تقول فخاف ان يجر الحديث الى ما لا يقوى على دفعه وقد أحس ان الحب كاد يستولي على ارادته وهو حريص على القيام بوعده ولاسيما بعد ان أقسم وصمم فقال : «اسمحي لي يا سيدتي بالانصراف • واعلمي اني رهين أمرك ، ولولا ما سبق من تعهدي بأمر السفر لما خالفتك في شيء • ولكنني سأعود سالما ان شاء الله وعند ذلك لا ترين مني الا ما يرضيك • أستودعك الله الان» •

* * *

قال ذلك ومد يده لمصافحتها فلم تمد له يدها رغبة في استبقائه لتتم حديثها او لعلها تثنيه عن السفر • واذا هي تسمع وقع أقدام مسرعة خارج باب الغرفة فنظرت الى ياقوتة فرأتها قد امتقع لونها وتحفزت للنهوض•

ولم تكد تقف حتى رأت غلامها الذي جاء بعماد الدين داخلا والبغتة على وجهه من الخوف فصاحت فيه : «ما وراءك ؟» • فقال وصوته يرتجف : «ان الاستاذ بهاء الدين قراقوش يطلب ان يراك ؟» • فأجفلت عند ذكر اسمه وقالت : «ولماذا ؟ ما له ولنا ؟»

قال : «كنت ساهرا لمراقبة كل حركة كما أمرتني الخالة أطل على القصر من شرفة الايوان فرأيت شبحا قادما من الخارج نحو باب هـذا القصر لم أعرفه لانه ملتف بعباءة كبيرة كأنه جاء متنكرا ، فجعلت أراقبه حتى وصل الى باب القصر وطلب مقابلة الاستاذ بهاء الدين • فجاء لمقابلته ودار بينهما حديث لم أفهمه ولكنني لحظت ان القادم ألح عليه ان يفتش داخل القصر وتأكد لي ذلك لما رأيت الاستاذ بهاء الدين دخـل القصر بسرعة ورجع ذلك الرجل كما جاء • وسمعت بهاء الدين يأمر احـد الخصيان بالذهاب الى سيدتي فأسرعت لاخبرك بذلك» •

فاستولت الدهشة على الجميع وظلوا سكوتا الا سيدة الملك فقالت: «تبا لذلك الخائن . لا أعلم كيف اطلع على مجيء عماد الدين الى هنا حتى وشى بنا الى الاستاذ ؟»

فقالت ياقوتة : «أتظنين مجيء بهاء الدين يتعلق بعماد الدين ؟»

قالت : «لا بد من ذلك ولكنه سيعود خائبا» •

فقال عماد الدين : «لا تخافي يا سيدتي ان روحي فداك ماذا جرى؟»

قالت : «لم يجر شيء ، ولكنني سآذن في ذهابك برغم ارادتي • وهذا يسرك ولكنه يسوءني» • والتفتت الى الغلام وقالت : «يا غلام عد بعماد الدين من هذا السرداب كما جئت به منه» • والتفتت الى عماد الدين وقالت : «ارجو ان تبقى على وعدك وأن تذكرني في اثناء سفرك • واعلم ان صاحبكم بهاء الدين هذا قد قطع كلامي وحال دون اتمامه وأنا ما زلت في اوله لكنني اترك فهم الباقي الى فطنتك وما يدلك عليـه قلبك •

وأحسبني عبرت عن مرادي بملامحي اكثر من نطقي ا. كنت قبـــل استقدامك في يأس شديد وكنت ارجو ان يزول كل يأس بحضورك . فاذا انت على سفر ، ثم جاء هذا الاستاذ فلم أتمكن من اتمام شكــواي فأقول لك بالاختصار اني أفكر فيك دائما وأنا سجينة في هذا القصر . ويا حبذا لو اني أخرج منه معك الساعة» . قالت ذلك وشرقت بدموعها .

فكان لذلك وقع شديد على قلب عماد الدين وهو شاب في مقتبل العمر وبين يديه أشرف نساء مصر وأجملهن تشكو له حبها وتدعوه الى قربها . فهاجت عواطفه وكاد يغلب على امره وينسى مهمته ، وانما عصمه ادب نفسه وعلو همته واحترامه لمولاه فتجلد وسكت ، لكنه اشار برأسه وعينيه انه رهين امرها بعد عودته ، وأرادت ان تستزيده ايضاحا فتصدت الحاضنة بلهفة قائلة : «يكفي يا سيدتي . يكفي . ان بهاء الدين يطلب مقابلتك بالحاح ولا استطيع استمهاله» . وتقدمت الى عماد الديـــن فأمسكت بيده وجرته حتى خرج من تلك الغرفة الى باب السرداب . وكان الغلام في انتظاره هناك وقد فتح الباب فالتف كل منهما بردائه وذهبا ، وأغلق الباب وعاد كل شيء الى اصله . وتمشت سيدة الملك الى غرفة الاستقبال فرأت قراقوش في انتظارها هناك . فأظهرت الاستغراب من طلبه مقابلتها في تلك الساعة .

فقال : «بلغني ان رجلا غريبا دخل هذا القصر الليلة اين هو ؟»

فقالت : «تسألني سؤالا انت أولى بالجواب عليه لان مفاتيح القصر بيدك وقد سددت علينا الطرق والنوافذ فاذا دخل غريب علينـــا فأنت المسؤول» . قال : «لم يدخل احد من باب القصر» . قالت : «هل هبط من السماء ؟» . قالت ذلك بغضب . فقال : «لا تغضبي يا سيدتي انما أتصدى للسؤال حرصا على كرامة سيدة الملك وعملا بأمر امير المؤمنين» . فضحكت ضحكة استهزاء وغضب وقالت : «ما أحرصكم على أوامر امير

المؤمنين وكرامة اخته !.. من انبأك بدخول الرجال الينا خلسة؟» . فخجل بهاء الدين من هذا التوبيخ وندم على تسرعه وقال : «لم اقل شيئا من ذلك يا سيدتي ، ولكنني اقول ما بلغني ولم أسمع من رجل حقير او جاهل» .

فقطعت كلامه وقالت : «مهما يكن من امر الذي بلغك فانه نذل كاذب، هذا هو قصري ابحث فيه عمن شئت» . قالت ذلك وتحولت من القاعة نحو غرفتها والحاضنة تهرع في أثرها وقلبها يرقص فرحا للنجاة من تلك التهمة الشنيعة .

* * *

فلما خلت ياقوتة بسيدة الملك في غرفتها أكبت عليها وجعلت تقبلها وتداعبها وهي ساكتة وقد عادت اليها هواجسها ثم نهضت وقالت : «دعيني يا ياقوتة دعيني وشأني اني تعسة شقية ، ويلاه ما هذا البلاء ؟.. لم اكد أتوسم بابا للفرج حتى اقفلت علي الابواب وسدت دوني السبل» . واخذت في البكاء .

فعملت ياقوتة على التخفيف عنها وقالت : «لا تنكري نعمة الله ألم تطمئني الى انه يحبك وهذا ما كنت تطلبين معرفته و ..»

فقطعت كلامها بغضب وقالت : «يحبني ! هل فهمت من قوله انه يحبني . ألم تريه كيف كان مرتبكا في امره وكلما ذكرت له ما في نفسي حول الموضوع الى مولاه صلاح الدين . انه يحب مولاه فقط» . قالت ذلك ومسحت عينيها بمنديلها وهمت ان تعود الى الكلام .

فسبقتها ياقوتة قائلة : «ولكن حبه هذا مبني على همة عالية وأريحية و ..»

قالت : «وما يفيدني اذا كانت هذه المناقب فيه ولا يحبني . ثم هو مسافر في مهمة لخدمة مولاه ، ولم يشأ ان يتأخر ساعة لاجلي ، وأنا

تركت حسبي ونسبي وعرضت نفسي لغضب اخي وسائر اهلي من اجله فهل يدل هذا على حبه ؟»

قالت : «لا شك في انه يحبك وقد توسمت ذلك في عينيه ، لكنه شهم اذا وعد وفى . وقد أقسم ان يسافر الليلة فلا يريد ان يحنث في يمينه. وأؤكد لك انه لو طال جلوسنا برهة لرآيت منه كل ما يسرك لانه لم يكن في اول الحديث يصدق انك تحبينه ولم يكن يحلم بهذه النعمة . فلما دنا من الموضوع جاء الطواشي وكدر علينا امرنا . ولكن كوني مطمئنة انه سيعود اليك» .

فغلب عليها الامل ــ والمحب كثير الريب لكنه سريع التصديق قريب الامل ــ فلما سمعت قولها انه يحبها وانه سيعود اليها أشرق وجهها وبان الابتسام حول شفتيها ، وأقبلت بوجهها نحوها وقالت : «صحيح ؟ هل انت على ثقة مما تقولين ؟ هل هو يحبني ؟» ثم اطرقت كأنها ثابت الى رشدها وضمت خديها بين كفيها وقالت : «ويلاه ! ماذا جرى لي ؟ من انا ؟ ألست سيدة الملك العاقلة الحازمة ابنة امير المؤمنين وأخت امير المؤمنين من سلالة فاطمة الزهراء بنت الرسول ؟ ما الذي اصابني حتى صرت كالمجنونة وأصبح قلبي اسيرا بين يدي شاب غريب لا حسب له ولا نسب ، أتسقط ما يجود به علي من كلمة عطف او تودد ؟! وهؤلاء ابناء عمي الشرفاء يتمنون رضاي . لله ما أشد وطأة الحب وما اقوى سلطانه !»

فلما سمعتها ياقوتة تقول ذلك توسمت منها الرجوع الى الصواب لعلها تنجو من لواعج الحب فبادرتها قائلة : «ألم أقل لك يا سيدتي ؟. قد كنت في نعيم وراحة قبل ان ...»

فأسرعت سيدة الملك فوضعت كفها على فم ياقوتة تعجيلا في اسكاتها وقالت : «ومع ذلك فان الحب يعزيني عن كل شيء . يكفي ما رأيته من اقتناعي بكلمة من عماد الدين لو قالها لنسيت كل شيء . ومع ذلك فان

املي بأن أسمعها منه انساني القصور والخلافة والنسب الشريف • انساني كل شيء • ذلك هو الحب يا ياقوتة • ليس في الدنيا ألذ منه اذا كـان متبادلا » •

فعادت ياقوتة الى مسايرتها وقالت : «هذا ما قلته لك يا سيدتي ، فاتكلي على الله واصبري فان الفرج قريب» •

فأحبت سيدة الملك ان تختم الحديث بهذا الوعد فهمت بالذهاب الى الفراش وياقوتة تساعدها •

اما عماد الدين فانه دخل السرداب مرغما ولم يكن يريد الرجـوع هاربا من وجه قراقوش او غيره • ولكنه فعل ذلك صيانة لكرامة سيدة الملك وفرارا من التأخير عن المهمة التي هو سائر فيها • مر في السرداب متحسسا والغلام يسير بين يديه حتى وصل الى الطرف الاخر عند منظرة اللؤلؤة • فخرج وعاد الغلام الى القصر • مشى عماد الدين بين الاشجار يطلب غرفته واذا هو يسمع المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر فأجفل • ولم يكن يظن نفسه تأخر بهذا المقدار فأسرع الى غرفته وأمر باعداد جواده واستعد للسفر وهم بالخروج قبل طلوع النهار حسب وعـده • واذا بصلاح الدين يناديه من غرفته فأسرع ملبيا فرآه قاعدا في فراشه فأكب على يده يقبلها فقال له : «انت مسافر يا عماد الدين ؟» • قال : «نعم يا سيدي ، وقد ابطأت قليلا ولكن لا تطلع علي الشمس الا خارج القاهرة كما قلت» • قال : «كنت احب ان اراك قبل الان وقد سألت عنك مرارا فلم يجدوك في حجرتك • احببت ان اراك لعلي اثنيك عن عزمك وأنت سائر في مهمة يمكن الاستغناء عنها ، وربما كنت أحوج اليك هنا مما في الخارج» •

قال : «اني طوع امر مولاي ، لكنني قد تأهبت للذهاب فادع لي بالنجاح واذا فزت فببركة سلطاني ومولاي • واذا مت فان روحي فداه» •

قال ذلك ووقف ينتظر الامر فأجابه صلاح الدين : «سر يحرسك المولى ، ولا أوصيك بالشجاعة فانك شجاع ، ولكنني لا احب ان تلقي بنفسك الى التهلكة فانك عزيز علينا» •

فعاد وقبل يد صلاح الدين ، وخرج فركب جواده وسار ، ولم تمض دقائق حتى صار خارج القاهرة وهو عليم بالطرق ومسالكها • وحالما خلا بنفسه عادت اليه هواجسه بما لاقاه من الغرائب المدهشة في الليل الماضي • ولما اشرقت الشمس توهم ان ما مر به من ذلك حلم رآه في منامه اذ استبعد وقوع ما لقيه من الحفاوة والتقرب من سيدة نساء مصر • لكنه ما لبث ان جس جيبه فوجد العقد فيه ، فتحقق ان ذلك حدث في اليقظة •

- ٦ -

الهكاري وقراقوش

تركنا قراقوش بعد مفارقة سيدة الملك وقد استغرب ما سمعه • لكنه ما زال يتوقع ان يجد احدا في القصر لان أبا الحسن أكد له وجود رجل غريب • فعاد الى التفتيش في كل مكان فلم ير احدا • فعاد الى غرفته قرب باب القصر فرأى ابا الحسن في انتظاره على مثل الجمر • وكان ينتظر ان يراه قادما اليه ومعه عماد الدين يرسف في القيود فلما رآه وحده صاح به : «اين الرجل ؟» • وكان قراقوش يحترم أبا الحسن لما يعلم من نفوذه عند الخليفة فأجابه بلطف قائلا : «لم اجد احدا يا سيدي» •

قال : «يا للعجب ! كيف لم تجده ؟» انا على يقين من دخوله هذا القصر ، وأنت تعرفه» .

قال : «من هو ؟»

قال : «عماد الدين خادم السلطان صلاح الدين» . قال : «عماد الدين لا يعقل دخوله هنا . ان هذا الشاب من رجالنا ولا يجسر على المجيء . وكيف يمكنه ان يدخل هذا القصر ويخرج منه ولا اراه وأنا ساهر لا تفوتني حركة من حركات اهله والمفتاح بيدي ، وأي غرض له من المجيء؟» لا بد من خطأ في البلاغ الذي اتصل بك» .

قال : «انا على يقين يا استاذ ، ان عماد الدين دخل هذا القصر . وأما غرضه فيه فلا ادري ما هو . لكنني سمعت من بعض غلمان القصر ان لهذا الشاب معرفة بأهل هذا القصر قبل ان صار الاستاذ بهاء الدين قيمه والآمر الناهي فيه . بلغني انه دخل اليه في يوم واقعة العبيد و ..»

فاستغرب قراقوش هذا الحديث فقال : «قل لي من أنبأك الان بدخوله هنا ؟»

قال : «خادمي وهو من العارفين بدخائل القصر واذا شئت دعوته اليك » .

قال : «ادعه اين هو ؟»

فوقف ابو الحسن بالباب ونادى : « يا غلام » . فلما دخل الغلام تذكر قراقوش انه من قدماء الغلمان في قصور الخلفاء فقال له : «كيف تقول بدخول الرجال هذا القصر ؟ ومن أنبأك بذلك ؟» . فالتفت الغلام الى ابي الحسن وقال : «هل اقول ما أعرفه ؟» . قال : «قل» .

فالتفت الغلام الى قراقوش وقال : «علمت بدخوله لاني رأيته داخلا القاعة الكبرى» .

فصاح فيه قائلا : «رأيته بعينيك ؟» . قال : «نعم يا سيدي وقد مكث

هناك مع سيدة الملك وحاضنتها مدة» . قال : «ولماذا لم تخبرني ؟» .
قال : «لم أتجاسر خوفا من سيدتي فبلغت الامر الى مولاي ابي الحسن ليبلغك اياه وهو من اقرباء امير المؤمنين وله دالة ونفوذ . وقد فعل» .

قال : «هذا لا يمكن . لا يمكن ان يدخل احد هذا القصر ولا أعلم به ، وليس للقصر باب اخر غير هذا . الا ان يدخل من الممر الذي يمر به الخليفة من قصر الذهب ، وهذا عليه الحراس يمنعون ايا كان من المرور، فكيف يتيسر لهذا الرجل الدخول ؟»

قال : «ان سيدي الاستاذ قيم القصور حديث العهد في هذا القصر لا يعرف دخائله وسراديبه وممراته . وفي جملتها سرداب بينه وبين منظرة اللؤلؤة ربما جاء عماد الدين فيه» .

فلما سمع ذكر منظرة اللؤلؤة أجل البحث الى وقت اخر وختم الحديث بقوله : «على كل حال ان هذا القصر ليس فيه احد من الرجال الغرباء الان ، واذا كان فيه احد فانه لا يفلت منه ، وسينال جزاءه ، لان مولاي السلطان أوصاني خيرا بالقصر وشدد علي بالمحافظة عليه لصيانة اهله . واني شاكر للشريف ابي الحسن غيرته» .

فقطع ابو الحسن كلامه قائلا : «اني أفعل ذلك غيرة على النسب الشريف الذي يجمعني بأهل هذا القصر ، ولكن لا بأس سيظهر الحق» .
ثم خرج وهو يقول : «لقد أزعجناك الليلة بلا طائل» . وانصرف .

فلما خلا قراقوش بنفسه عاد الى التفكير واستعاد ما سمعه من ذلك الغلام عن وجود الممرات والسراديب . وبعد اعمال الفكر ترجح له صدق التهمة فرأى ان يرفع الامر الى صلاح الدين . فلما كان الضحى ركب الى منظرة اللؤلؤة ، ولكنه رأى ان يلقي صديقه ضياء الدين الهكاري ليستشيره في الامر قبل الدخول على صلاح الدين لانه اصبح في اثناء ذلك اكثر مخالطة له منه . فلما وصل الى المنظرة سأل عن الفقيه

عيسى الهكاري فقيل له انه منفرد في غرفته ۰ وهم الحراس بأن يرحبوا بقراقوش ويبلغوا خبره الى صلاح الدين فأشار اليهم ألا يفعلوا وتحول عن فرسه وطلب غرفة الهكاري في بعض أطراف البستان ۰ فلما علم الفقيه بقدومه وقف له ورحب به وكانا صديقين اصطحبا في خدمة صلاح الدين وتعبا في اسناد الوزارة اليه بعد عمه كما تقدم ۰ وهما يتفانيان في سبيل مصلحته ۰

رحب الهكاري ببهاء الدين قراقوش ترحيبا كثيرا وقال له : «ماذا جرى ؟ اني لم أشاهدك من عهد بعيد ، شغلوك بحراسة النساء وما أجدرك بقيادة الرجال» ۰ وأشار اليه ان يجلس على وسادة فوق الطنفسة ۰

فجلس بهاء الدين وهو يقول : «ان حراسة النساء اصعب مراسا من قيادة الجند ، لانها تشتمل على حراسة النساء من الرجال ۰ وأنت ماذا تعمل ؟ هل دبرت شيئا جديدا في خدمة هذا السلطان العظيم ؟ اني لا أذكر اسمه الا ويتهلل قلبي فرحا» ۰

فقطع الهكاري كلامه قائلا بصوت خافت : «خصوصا لما تتذكر اننا استطعنا ان نضعه في هذا المنصب كما تعلم» ۰

فابتدره بهاء الدين قائلا بلهفة : «احذر يا صاح ان تقول هذا ويسمعك احد اذ ليس على الملوك أثقل وقعا من المن ۰ والآن ماذا تفعل؟»

فضحك الهكاري وقال : «انا ساع الان في امر لا أستغني فيه عن يدك ۰ واذا نجحنا فيه يحق لنا ان نفاخر بما أديناه من الخدم الجليلة للسلطان صلاح الدين» ۰

فتطاول بهاء الدين بعنقه نحوه وقال : «وماذا عسى ان نفعل فوق ما فعلناه ، انه سلطان مطلق وليس بعد هذا المنصب مطمع» ۰

قال : «نعم ، ولكن السلطان يقدر ان يطمع في الخلافة» ۰

فحول وجهه عنه بازدراء وقال : «لا فائدة من مطمع لا سبيل اليه».
فقال : «لم أعهدك متسرعا ، متى علمت الطريق الذي اخترته غيرت ظنك في الامر» .

قال : «وماذا عسى ان يكون الطريق ؟» . قال : «طريق الزواج وقد خطبت له سيدة الملك اخت الخليفة فاذا تزوجها فابنه منها يكتسب حقا في الخلافة اذا اتحدت معه القوة كفى لنيل هذا المنصب كما اراد طغرل بك السلجوقي ان يفعل و ..»

فقطع بهاء الدين كلامه قائلا : «فهمت ما تريده وهو نعم الرأي ولكن هل رضي الخليفة ان يزوج اخته لهذا المولي الكردي ؟» . ثم ضحك وقال : «لا أظنه يرضى» . قال : «اذا لم يرض طوعا رضي كرها . وقد وعدنا بالجواب بعد قليل» .

فقال قراقوش : «لقد أذكرتني امرا جئت من اجله وشغلتني عنه بحديثك . ان عماد الدين خادم السلطان ارتكب شططا لا ادري اذا علم به السلطان ما يكون قصاصه خصوصا بعد ما علمته من خطبته و ..»

فقطع الهكاري كلامه قائلا : «لا تقل خادم السلطان بل قل صاحبه وحارسه الخاص» .

قال : «ومتى بلغ هذا المنصب ؟»

قال : «بلغه اول من امس على يد الامير نجم الدين ، لله هو من رجل كبير العقل عالي الهمة !»

قال : «صدقت ان نجم الدين جدير ان يكون والد هذا السلطان . وأين هو عماد الدين ؟ احب ان اراه لأهنئه وأسأله سؤالا» . قال : «خرج من هذه المنظرة في هذا الصباح في مهمة لا يعلم احد حقيقتها . وماذا تريد ان تسأله ؟» . فقص قراقوش خبر امس كما جرى . فأظهر الهكاري ارتيابه في صحة الرواية وأكد له ان عماد الدين قضى طول ليله في

الاستعداد للسفر وبرح المنظرة في الفجر . فوقع قراقوش في حيرة وعاد الى الارتياب في الامر ، خصوصا بعد ان سمع حديث الخطبة . لكنه اراد ان يطلع صلاح الدين على ما سمعه ، فاستشار الهكاري في ذلك فقال : «دعه الان لا تخبره ، لئلا يغير ذلك من عزمه على الخطبة ، وأنا احب ان يتم اقترانه لاني ضامن المستقبل باذن الله» .

* * *

وفيما هما في ذلك وقد هم قراقوش ان يتكلم ، دخل غلام الهكاري وقال : «بالباب رسول من مولانا السلطان» . فقال الفقيه : «يدخل» . فدخل الغلام ، ولما رأى قراقوش هناك بانت البغتة في وجهه وقال : «سيدي الاستاذ بهاء الدين هنا ؟ كنت ذاهبا اليه ايضا» . فقال الهكاري: «ما وراءك ؟»

قال : «ان السلطان يطلب حضوركما في القاعة الان ، وقد امرني ان ادعو سائر الخاصة ، وكنت عازما على الذهاب الى القصر الكبير لادعو سيدي الاستاذ فاذا هو هنا» . فقال قراقوش : «اننا ذاهبان ، وماذا عسى ان يكون الباعث على هذه الدعوة ؟» . قال : «لا أدري يا سيدي ولكنني رأيت نجابا وصل في هذا الصباح قادما من دمشق ومعه رسالة رفعها الى مولانا السلطان فما زال منذ تلقاها وهو يقلب فيها وقد تغير وجهه وبان الغضب فيه . ثم شاور مولانا الامير نجم الدين والظاهر انهما اتفقا على عقد جلسة للبحث في امر مهم» .

فأشار قراقوش الى الهكاري بيده مستفهما عما يعلمه من هذا الامر . فأشار الى الغلام ان ينصرف ومشى مع قراقوش وخاطبه في اثناء الطريق سرا وقال : «اني علمت بأمر هذا الكتاب في الصباح وقد استقدمني السلطان وأطلعني عليه وعملت عملا ترضاه مني» .

قال : «وما ذلك ؟» . قال : «ان الكتاب من السلطان نور الدين صاحب دمشق شديد اللهجة جدا» . قال : «وما سبب ذلك ؟» . قال : «ألا تذكر خروج مولانا السلطان في صفر من هذا العام الى بلاد الشام لمحاربة الافرنج ، وقد صحبته في هذا السفر ، فنازل حصن الشويك ، ثم طلب الكرك وحصره وضيق عليه وعلى من به من الافرنج حتى طلبوا التسليم والامان ، لكنهم استمهلوه عشرة ايام فأجابهم الى ذلك . وكان السلطان نور الدين في دمشق فلما بلغه ما فعله صلاح الدين ارتاب في امره وأنت تعلم ما بينهما من المحاذرة وما في نفس صلاح الدين من الطمع في سلطنة مصر لنفسه» . قال ذلك وضحك فبادره قراقوش قائلا: «لا اظن احدا أطمعه فيها سواك وقد احسنت . اكمل» .

فقال الهكاري : «ألا تراه اهلا لها ؟. مالنا ولذلك ؟. ان نور الدين لما سمع بما فعله صلاح الدين في الكرك خرج من دمشق قاصدا حرب الافرنج ليغتنم تضييق صلاح الدين عليهم من جهة ويضيق عليهم هو من جهة اخرى فيذهب ملكهم . وقد رأيت في ذلك خطرا على سلطاننا لان نور الدين متى أذل الافرنج وأخضعهم تفرغ للسلطان صلاح الدين وهو وزيره والناس أطوع له منه فتذهب مطامع صلاح الدين في مصر أدراج الرياح ، والافضل ان يبقى نور الدين مشغولا عن صلاح الدين بمحاربة الافرنج حتى يقضي الله امرا كان مفعولا» .

فقطع قراقوش حديثه قائلا : «لله درك من داهية ، وأحسبك عرضت هذا الرأي على السلطان» .

قال : «عرضه عليه بعض الناس وأشار عليه ان يرجع الى مصر بحجة ينتحلها ومما ذكروه له ان نور الدين اذا دخل بلاد الافرنج وهم على هذه الحال وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام معه . وان جاء نور الدين الى مصر وصلاح الدين فيها فلا بد له من الاجتماع به ، وحينئذ يكون

نور الدين المتحكم فيه بما يشاء . ان شاء تركه اولا ، وقد لا يقدر على الامتناع عليه . وقد رجع مولانا السلطان الى مصر كما تعلم . وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصرية لامور بلغته عن بعض شيعة العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها ، وأطال في الاعتذار . ولكن يظهر ان نور الدين لم يصدق هذه الاعذار . فبعث اليه كتابا يهدده فيه ان لم يأت الى دمشق ، فلقيته في هذا الصباح وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، فأسر الي بسبب غضبه وانه لم يعد يستطيع صبرا على كتمان غرضه ، فخففت عنه واستمهلته ، ولا اراه مصغيا ، ولا اخال هذه الدعوة الا لامر يتعلق بالكتاب» .

وكانا قد وصلا الى قاعة الاجتماع والحرس ببابها فأزاحوا لهما الستر فدخل الهكاري اولا وتبعه قراقوش ، وكانت جلسة حافلة اجتمع فيها نخبة الخاصة من رجال صلاح الدين وأهله ، وفي جملتهم ابوه نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارمي ، وابن اخيه تقي الدين .

فألقى الهكاري وقراقوش التحية ، فرد صلاح الدين عليهما وقال : «مرحبا بالفقيه الحكيم ضياء الدين ، وبالبطل الاستاذ قيم القصر بهاء الدين » . وأشار اليهما بيده فجلسا وعينا الهكاري تراعيان صلاح الدين فرآه برغم ما يحاول اظهاره من التؤدة وسعة الصدر وسكون البال قد تجلى الغضب في عينه .

فلما استقر المقام بالجلوس قال صلاح الدين : «يا نخبة الامراء الابطال وخيرة الاهل والخلان ، ان السلطان نور الدين صاحب دمشق أقلق راحتنا بمراسلاته وهو يطلب الينا الذهاب اليه . ونحن فيما تعلمون من حرج المقام وما يحدق بنا من الدسائس والمكايد في بلد كل اهله اعداؤنا يترقبون منا غفلة او ضعفا ليثبوا علينا . فلما اعتذرت له بذلك كتب الي يهددني انه حامل علينا بخيله ورجله . وأنتم رجالي وأهلي وما

يقال لي كأنه يقال لكم ، فلم اشأ ان اقطع في الجواب قبل ان اشاوركم ، فماذا ترون ؟»

وكان صلاح الدين يتكلم والحضور سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، ولعلك لو استطلعت خفايا سرائرهم لرأيت كلا منهم ينتظر ما يقوله الاخرون ولا يريد ان يكون هو البادىء في الرأي . وعيونهم متجهة بالاكثر الى الامير نجم الدين والد صلاح الدين لما يعلمونه من حزمه وعلو همته ودهائه . ولكنه لم يقل شيئا . وظل مطرقا يفكر وقد قعد على وسادة عالية وفي يده هناة كالقلم يداعبها بين اصابعه ولا يخفي اضطرابه على المتفرس فيه .

وكان الهكاري جالسا بجانب قراقوش ، وحدثته نفسه ان يتكلم ويقوي عزم صلاح الدين على مقاومة نور الدين فالتفت الى قراقوش كأنه يستشيره في الامر ، وهم قراقوش بأن يوافقه على ذلك ، فاذا بتقي الدين ابن اخي صلاح الدين قد غلبت عليه حمية الشباب فوقف وقال : «اذا كان عمي السلطان قد جمعنا ليشاورنا في امر نور الدين ، فهو يعلم اننا تتفانى في نصرته . فاذا جاء نور الدين الى مصر منعناه بحد السيف» .

فبان البشر في وجه صلاح الدين استحسانا لتلك الجرأة وابتسم فكان لابتسامه تأثير شديد في ضمائر الحضور فجعلوا يتسابقون الى الموافقة على رأي ذلك الشاب بمثل قوله . وعلا الضجيج ونجم الدين ما زال مطرقا والعيون محدقة به لترى ما يبدو منه واذا به اشار بالقلم الذي في يده اشارة استمهال فأصغى الكل وعيونهم الى شفتيه . فنظر الى تقي الدين نظرة زجر وتوبيخ ، وأمره ان يقعد ، وانتهر من وافقه من الحضور . ثم التفت الى صلاح الدين وقال : «يا يوسف ، اراك تبغي امرا عظيما انت أقصر باعا من ان تناله . انا ابوك ، وهذا خالك شهاب الدين ، ونحن اكثر محبة لك من جميع من ترى . والله لو انني وخالك

هذا وقع نظرنا على السلطان نور الدين لم نلبث الا ان نقتل بين يديه ؛ ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا ؟ ان كل من تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه ونوابه فيها . فان أمر سمعنا وأطعنا . والرأي ان تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه : (بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فأي حاجة الى هذا؟ يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك وما هنا من يمتنع. هذا هو الرأي يابني) ..»

فلما قال نجم الدين ذلك أطرق الحضور وندموا على ما كان منهم . وأما هو فحالما فرغ من كلامه نهض وخرج فنهض الامراء جميعا وتفرقوا. وفي جملتهم عيسى الهكاري . فانه قبض على يد قراقوش وخرج به الى خلوة فقال قراقوش : «ما هذا ؟! لا أعهد نجم الدين جبانا ضعيف العزم الى هذا الحد . والله اوشكت ان اقف لمعارضته» .

فضحك الهكاري وقال : «لقد اخطأت يا استاذ . ليس بين هؤلاء من هو اقوى قلبا وأجرأ على الامور منه . ولكنه داهية حكيم ، والله اني كنت اقرأ فكره وهو مطرق يسترق النظر الى الحضور وهم يتكلمون . وقد تبين ما في كلامهم من الحدة فخاف ان يجاريهم بالكلام فيفسد التدبير . واذا شئت ان تتحقق ذلك فاتبعني فاني اراه داخلا الى غرفة صلاح الدين وحده» .

فمشى قراقوش في أثره حتى اقتربا من الغرفة فلمحهما نجم الدين فأشار اليهما ان يدخلا فدخلا وأغلقا الباب وراءهما وصلاح الدين يهم ان يعاتب أباه على ما سمعه منه . فالتفت نجم الدين الى الهكاري وقال: «انت حكيم وصاحب تدبير . وقد اخبرني يوسف بما كان من تدبيرك مع الاستاذ قراقوش في سبيل مصلحته . لذلك فاني لا اخشى ان اقول

رأيي امامكما» . والتفت الى صلاح الدين وقال : «بأي عقل فعلت هذا يا يوسف ؟ أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا في مقدمة اعدائه ، وحينئذ لا تقوى عليه . وأما اذا بلغه قولي واننا في طاعته تركنا واشتغل بغيرنا ريثما تعمل الاقدار عملها» . ثم وجه كلامه الى الهكاري وقراقوش وقال : «والله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر بمصر لقاتلته عليها حتى أمنعه او أقتل» . قال ذلك وعيناه تتلألآن .

فهم صلاح الدين بتقبيل يد ابيه وقال : «صدقت يا ابي . قد نطقت بالصواب وأنا فاعل ذلك باذن الله . ما أحوجني الى رأيك وتدبيرك» .

والتفت الهكاري الى قراقوش ولسان حاله يقول : «ألم أقل لك هذا ؟»

فأكب قراقوش على يد نجم الدين فقبلها وقال : «لا حرمنا الله من رأيك يا سيدي» . وقبل ان يفترقوا سمعوا الاذان فذهبوا للصلاة ثم الى الغداء .

* * *

اما ابو الحسن فلما عاد بصفقة المغبون ولم يظفر بعماد الدين ولا استطاع اغاظة سيدة الملك ، رأى ان يبلغ ذلك الى الخليفة بأسلوب يمكنه من مرامه . فصبر حتى طلع النهار وهو صباح الاثنين وكان احد اليومين اللذين يجلس الخليفة فيهما للناس من كل اسبوع ، اما اليوم الاخر فكان يوم الخميس . وأجل مقابلة الخليفة الى اليوم التالي . وقضى ذلك اليوم وهو يدبر الحبائل وينصب المكايد ، ثم بكر في الصباح التالي الى بيت الجليس الشريف وسأله عن الخليفة فقال : «انه مريض وقد اشتد المرض عليه امس حتى شغل بالنا» .

فابتدره ابو الحسن قائلا : «يظهر انه انتكس لما بلغــــه خبر قصر النساء» •

فلم يفهم الجليس مراده فقال : «وماذا جرى ؟» • وأشار اليه ان يتفضل بالدخول • فأظهر انه اخطأ بذلك التصريح وانه يريد الكتمـــان محافظة على كرامة اخت الخليفة فقال : «لم يجر شيء» • وجعل يبلـــع ريقه وهو يناول لجام البغلة الى السائس ويمشي مع الجليس الى قاعــة الاستقبال •

فانطلت الحيلة على الجليس فقال : «كيف لم يجر شيء وقد قلت انه جري ؟ قل لا تخف علي شيئا ، فاني لا أخاطب الخليفة في شأنه اذا احببت كتمانه عنه» •

قال وهو يقعد ويظهر عدم الاكتراث : «ليس هذا وقت الكلام بما يكدر الخليفة وانما يهمني ان يشفى من مرضه • ما الذي جد عليه حماه الله من كل سوء ؟»

قال : «ما زال منذ أصيب بالحمى يوم ذلك الاجتماع وهو متوعك المزاج • فلما كان صباح امس وهو يوم الجلـــوس للناس لم يحضر فسألت عنه فقيل لي انه قضى يومه في دار النساء ، وعلمت بعد الظهر ان الحمى عاودته بشدة» •

فأظهر ابو الحسن الاهتمام الشديد بالامر وقال وهو ينظر فــــي البساط : «قضى نهار امس في دار النساء وأصيب بعد الظهر بالحمى؟!•• فلا بد ان يكون ظني الاول في محله» •

قال : «وما هو ؟ قل يا ابا الحسن فما عهدتك تخفي علي شيئا • قل ماذا جرى في دار النساء ؟»

قال : «لا احب ان يشيع هذا الخبر حفظا لكرامة اهل القصر • علمت ان غريبا دخل ذلك القصر مساء اول البارحة وقضى معظم الليل فيه •

ولما علمت بخبره اسرعت الى قيم القصر قراقوش وطلبت اليه القبض عليه فاذا به قد فر في السراديب . أرأيت ؟!»

فأطرق الجليس دهشة واستبعد ذلك الخبر لعلمه انه ما من احـــد يستطيع الدخول الى القصر مع ما حوله من الحراســـة . ثم ان اخت الخليفة بعيدة عن مثل هذه الظنون . ولحظ ابو الحسن تردده في تصديق الخبر فبادره قائلا : «اراك مطرقا تفكر كأنك لم تصدق قولي . ولكن لك ان ترتاب ، غير ان هذه المرأة التي تزعم انها لا تريد الزواج فرارا من ابي الحسن انما هي عالقة القلب بشاب غريب من الاكراد اعدائنا» .

فصاح متعجبا : «من الاكراد ؟!» . فأجاب بهدوء وتألم : «ومـــن خدم الاكراد !»

فدق الشيخ كفا بكف وقال : «يا للفضيحة ماذا يكون حال امـــير المؤمنين اذا بلغه ذلك الخبر ؟ ولكن ..»

فقال ابو الحسن : «ومن يتجاسر على تبليغه هذا الخبر ؟ لا ينبغي ان يعلم به ، او لعله علم وكظم فأصابته الحمى .. اتأسف كثيرا لانـــي اطلعت على هذه الفعلة ، ولكن ما العمل لا بد من تدبير حيلة ننقذ بها عرضنا من العار !» . فتألم الجليس مما سمعه واعتقد صحته وهو سليم القلب كما علمت ، فأوشك ان تدمع عيناه من الغضب فوق ما هو فيه من الكدر على مرض الخليفة . وكان ما زال واقفا فقعد وهو خائر القوى. فأخذ ابو الحسن يتظاهر بالتخفيف عنه . وهو يعد ذهنه لمكيدة يفوز بها بمرامه فقال : «يحق لنا البكاء في هذا اليوم فلنبك يا عزيزي فلنبك !» وأخذ في البكاء حتى نسي الجليس حزنه واشتغل بالتخفيف عن ابـــي الحسن فقال له : «لا بد من الصبر يا مولاي ، ان البكاء لا ينفعنـــا شيئا . لا بد من تدبير طريقة» . فأسرع ابو الحسن الى مسح عينيـــه وتظاهر بالجد والاهتمام والتفت الى الجليس وقال : «نعم لا بد من تدبير

طريقة ولكن الامر اعظم مما يظهر لك يا عماه» . قال : «وهل بقي ما هو اعظم من ذلك ؟» . قال : «ان الامر نفسه عظيم كما علمت ، ولكنني أفكر في المستقبل وأراقب ما قد تأتي به الاقدار مما لم يكن في الحسبان» . فظل الجليس ساكتا يفكر ولم يجب ، حتى قطع ابو الحسن سلسلة افكاره بالسؤال قائلا : «من هو طبيب مولانا امير المؤمنين ؟»

قال : «طبيبه الشيخ السديد رئيس الاطباء وهو لا يثق الا به لسعة علمه وطول اختباره» .

فقال ابو الحسن : «الشيخ السديد ؟ هل هو ماهر في صناعة الطب؟»

قال : «كيف لا وقد نال الحظوة عند الأئمة الفاطميين من ايام الآمر رحمه الله ، وكان صغير السن وأبوه طبيب قبله ثم ورث هذا المنصب بعده . وما زال يطبب الأئمة رحمهم الله الى الان وقد اصبح شيخا طاعنا في السن» . فقال : «وماذا يقول عن مرض مولانا ، هل سألته ؟» . قال : «سألته ولكنه لم يجبني جوابا صريحا» . قال : «اني اخاف جواب الاطباء ان لم يكن صريحا ، لانهم اذا خافوا على مريضهم الموت جعلوا كلامهم عنه مبهما !»

فأجفل الجليس عند سماع لفظ الموت ، لانه كان يحب العاضد وقال: «لا سمح الله يا سيدي ، لا سمح الله ان يكون على الامام العاضد بأس » .

فقال ابو الحسن : «أعوذ بالله ان يخرج من فمي او يمر بذهني سوء يصيب امامنا ، وأطلب الى الله اذا كان قد كتب شيء على امير المؤمنين ان يفديه بروحي . ولكن العاقل من فكر في الامر قبل وقوعه ولاسيما في الامامة . لان الامام قطب تدور عليه أمور الدولة وبه تتعلق القلوب . والاصابة فيه غير الاصابة في آحاد الناس . وهذا معنى قولي لك ان المسألة اعظم مما تتصور . هل فهمت مرادي ؟»

فأدرك الجليس انه يعني لو مات العاضد كيف يكون حال الامـــة بعده فقال : «فهمت يابني ان الامر جليل ولكن ..»

فأسرع ابو الحسن وهو يروغ كالثعلب وقال : «كلنا عبيد الموت يا عماه ، وعسى ان تكون حياة الامام العاضد أطول من حياة كل منا . وأضرع اليه تعالى ان لا يميتني الا في حياته» .ودمعت عيناه فتأثـــر الجليس وشاركه ذلك الشعور في الظاهر وقال : «ذلك ما تتمناه جميعا خصوصا لان مولانا حفظه الله ليس لنا ملجأ سواه وقد كابد في امامته من اولئك الاكراد ما لم يكابده سواه اولا حزمه وتعقله لا ادري كيف كانت حالنا» .

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه كأنه فطن لامر مهم وقال : «هذا ما يدور في خلدي ويجول في خاطري ويحوم حول لساني ولا يطاوعني قلبي عليه . اذا كان هذا حالنا الان فكيف يكون شأننا لو حدث مـــا تتمنى موتنا قبله . لو ان في بيت العاضد رجلا حازما يخلفه لكان خيرا ولكنهم اطفال كما تعلم وهذا المنصب لا يستطيعه الا المحنكون نظيرك . كم كنت أود ان يكون لك يد في هذا الامر» .

فاستعظم الجليس هذا الاطراء وأخذ يتنصل من هذا الحق فقال : «اني عبد خادم لا يقال لي مثل هذا القول وانما يطمع في هذا الامر من كان مثلك يا ابا الحسن» .

فأخذ ابو الحسن يهز رأسه هز الانكار وقال : «انا ؟! نعم كنت راغبا في هذا المنصب كما علمت وقد قلت لي ان الامام رضي ان اكون ولي عهده ، وهذا شرف لي لكنني أتردد كثيرا في القبول» .

فقال الجليس : «لا ينبغي ان تتردد فان في قبولك انقاذ هـــذه الدولـــة » .

فوجد الفرصة قد سنحت ليستشهد الجليس بأن العاضد بايعه بولاية

العهد فقال : «وهب اني اردت ان أتفانى وأرضى فهل يصدق القول ان العاضد بايعني ؟»

قال : «انا أشهد بذلك • ألم يكن رضي على الشرط المعدوم ؟ وانما أجل الامر مؤقتا وقد اعترضته شؤون مختلفة» •

فرقص قلب ابي الحسن طربا عند سماع ذلك الوعد فعاد الى المغالطة وقال : «انا أعلم ان مثلك اذا شهد فشهادته أوثق من عقد مبرم ولكن مالنا ولهذا الان ، ارجو ألا يحدث ما يدعو الى استشهادك وان ينهض مولانا الامام صحيحا معافى وتتمتع برؤيته ونقبل يديه ونصلي وراءه»•

قال : «ارجو ذلك ان شاء الله» •

وفيما هما في ذلك سمعا وقع أقدام مسرعة ودخل غلام عرفا انه من غلمان القصر فأجفلا فقال الجليس : «ما وراءك ؟» • قال وصوته يرتجف : «ان مولانا الامام يحب ان يراك الان عاجلا» • فقال : «وكيف هو ؟» • قال : «لا ادري لكنني رأيت الشيخ السديد عنده ومعه اطباء كثيرون ! »

فنهض الجليس وهو يقول : «يظهر ان المرض اشتد عليه» • فقال ابو الحسن : «لا بد من ذهابك اليه حالا • ولو كنت أعلم اني أنفعه لسرت معك ولكنني سأسعى بعد قليل للاطمئنان • وأنا ذاهب الان الى المسجد لادعو له بالشفاء» • قال ذلك وخرج وترك الجليس يتأهب للركوب الى الخليفة •

* * *

رجع ابو الحسن على بغلته الى منزله • وخلا في غرفته وأخذ يفكر في حيلة يدبرها لنيل بغيته • وقد تأكد له دنو أجل الخليفة فكيف يمهد الامر لنفسه وهو يعلم ان شهادة الجليس لا تكفي وان القول الفصل

لصلاح الدين . اذا أظهر رضاه عن مرشح للخلافة نالها . فانزوى في الغرفة على كرسي وأقفل الباب وجعل يفكر في الطريقة المؤدية الى غرضه وبعد أن قضى ساعة ، لا يحرك رأسه ولا يده وانما كان يحرك شفتيه وعينيه ، وثب من مكانه وصفق فجاء الغلام فقال له : «اسرج البغلة» . فقال : «لا تزال مسرجة يا سيدي» . فركبها وسار قاصدا عيسى الهكاري صديقه . وكان الهكاري في غرفته المعهودة يطالع في بعض كتب الفقه فلما انبأه الغلام بمجيء الشريف ابي الحسن خف له واستقبله احسن استقبال ، لانه كان يتوقع ان يحتاج اليه في تدبير بعض الشؤون لمصلحة صلاح الدين .

فبدأ ابو الحسن الحديث عن الفقه والتاريخ كأنه يتمم ما دار بينهما عند اجتماعهما في دار العلم فقال : «اراك ما زلت تفتش في الكتب ، هل ترى منها نفعا ؟» . قال : «كيف لا ؟ ان مثلك لا يسأل هذا السؤال !»

قال : «صدقت لكني لا أعني الفائدة الشرعية وصيانة الحقوق وانما أعني الفائدة التي يطلبها الناس من اعمالهم ، ام انت مثلي تهتم بالعلم لاجل العلم نفسه ؟»

قال : «اطلب العلم لاجل العلم ، ولكن العاقل قد يستفيد منه فوائد اخرى» .

فأدرك ابو الحسن انه يشير الى ما يتوهم الهكاري انه استنبطه من مطالعة تاريخ طغرل بك من تلقاء نفسه حتى حرض صلاح الدين على زواج اخت الخليفة . فعمد الى اطرائه والتغرير به ليتوصل الى مرامه فقال : «انك حكيم عاقل وقد علمت الان صدق خدمتك للسلطان صلاح الدين . ألم تكن انت اشرت عليه بخطبة اخت الخليفة ؟ لا تنكر ذلك » .

فأراد ان يتواضع ويتنصل من ذلك الفضل فقال : «ليس لي هذه

الدالة يا ابا الحسن» .

فقال : «مهما يكن من تنصلك فأنا أعتقد نفوذ كلمتـــك . والآن أتعلم لماذا جئتك ؟» . قال : «لا» . قال : «جئتك لامر اذا علمت كيف تفهمه وتقوم به خدمت مولاك خدمة حسنة ، وان كان فيه خدمة لصديقك ابي الحسن ولك ايضا» .

فتطاول بعنقه وقال : «رحم الله من نفع واستنفع ، قل ما وراءك» .

قال : «أتعلم ان الامام العاضد في حال الاحتضار الان ؟» . قال : «أعلم انه مريض فهل اشتد عليه المرض ؟»

قال : «انه في أشد حالات المرض ، واذا مات صارت الخلافة الى ولي عهده وأنت تعلم انه غلام عنيد لا يعرف فضل الرجال» .

قال : «أي فضل تعني ؟»

قال : «اسمع . اني مطلعك على سر يهمك الاطلاع عليه ، ان العاضد مائت الليلة او غدا . وأنا أكثر اهله معرفة بفضل السلطان صلاح الدين. لا اقول اني احب ان يتولى هذا الامر ويخرجه من أيدينا . ولو قلت لك ذلك لا تصدقني ، ولكنني أعلم ان مقاومة القوة الغالبة لا تفيد شيئا . واذا صارت الخلافة الى ولي العهد الذي تعرفه كان ذلك باعثا عـــلى القلاقل . اني أعرف افكاره وأعلم انه ينوي ان يثير الشيعة ويحرضهم على مناوأة السلطان ورجاله . وهذا لا يفيد احدا من الجانبين ولا اخفي عليك ان العاضد كان معتزما ان يجعل ولاية العهد الي فأوصي لي بذلك على يد الجليس الشريف وأوشك ان يكتب العهد لكن المرض منعه . فأخاف اذا توفي في مرضه هذا ان ينكر رجاله وأهله على ذلك . فاذا اخذتم بيدي وصيرتم هذا الامر الي عرفت لكم فضلكم وأغنيتكم عن التعب . ارجو ان تكون قد فهمت مرادي وأظن ما بيننا من الصداقـة القديمة يكفي للوثوق بي والتعويل على قولي» .

وكان الهكاري يسمع كلام ابي الحسن ويفكر فيه . فلما وقف عند هذه العبارة سأله : «ثم ماذا ؟» . قال : «أعني اذا خاطبت انت السلطان صلاح الدين في الامر ، وعرضت عليه هذا الرأي كأنه منك فيعرف لك هذا الفضل وأنت رابح من كل وجه . ان ما أعرضه عليك عظيم الاهمية وفيه نفع للسلطان ولك ولي فما قولك ؟»

فرأى الهكاري كلام ابي الحسن معقولا . وأدرك ان عمله هذا خيانة لاهل الخليفة ، لكنه نظر فيه من حيث مصلحة السلطان لانهم اذا اعانوا هذا الخائن على تولي الخلافة كان عونا لهم فيما يريدون ويهون عليهم ان يخلعوه فيما بعد اذا شاءوا ، فضلا عن انه يسهل على صلاح الدين التزوج بسيدة الملك على يده فيتم تدبيره . فنظر الى ابي الحسن نظر متفرس وقال : «انت مقدم على عمل عظيم فيه نفع كبير لك» . قال : «لا أنكر ذلك ولكنني اخدم مصلحة السلطان صلاح الدين ايضا من كل وجه ، واذا لم تصغ لرأيي تعبتم جميعا لان المصريين قلوبهم مع خلفائهم كما لا يخفى عليك . أرني مهارتك في اتمام هذا الامر ، واعلم انك ستكون اقرب المقربين» . قال : «لك علي ذلك . سأبذل ما في وسعي في هذا السبيل ونرى ما يكون» . فتحفز ابو الحسن للنهوض وهو يقول : «انا ذاهب وسنلتقي غدا ولا حاجة بي الى تنبيهك لان يبقى ما قلناه مكتوما عن كل انسان» .

قال : «لا حاجة الى التوصية» .

ونهض ابو الحسن وركب بغلته وعاد . وظل الهكاري واقفا برهة يعيد في ذهنه ما سمعه فرأى فيه خيرا كثيرا . فبادر الى تنفيذه وسار الى صلاح الدين فرآه مع ابيه في شرفة تطل على الخليج وقد جلسنا هناك للاستراحة فاستأذن عليهما ، ولما دخل أمره نجم الدين بالجلوس فجلس وتكاد عيناه تنطقان بما في خاطره ، فقال له صلاح الدين : «ما

وراءك يا ضياء الدين ؟» . قال : «جئت مولاي بأمر مهم» . قال : «كل ما تأتي مهم به نافع . اني لا انسى بلاءك في مصلحتنا . قل» .

فأخذ يقص عليه ما دار بينه وبين ابي الحسن من أوله الى اخره والاهتمام ظاهر في عينيه فلما فرغ من كلامه ابرقت عينا صلاح الدين ونظر الى ابيه كأنه يستشيره في الامر . وكان نجم الدين يسمع كلام الهكاري ويمحصه ويزنه ويتدبره . فلما رأى صلاح الدين ينظر اليه قال : «انه رأي جميل لكنه ما زال فطيرا ولاسيما ان العاضد ما زال حيا فاذا مات نظرنا في الامر . برك الله في همتك يا ابا محمد» وسكت . فعلم الهكاري انه ينبغي له ان ينصرف ليخلو الاميران ويتباحثا فاستأذن وخـرج .

فلما خلا نجم الدين بابنه جعل يتفرس في عينيه كأنه يطلب اليه ان يقول ما في خاطره فقال صلاح الدين : «ما رأي والدي فيما سمعه؟» قال : «انما اسألك عن رأيك» . قال : «اني ارى فرصة لا ينبغي ضياعها . لا أنكر انها خيانة من ابي الحسن هذا لكنها تفيدنا . واذا وليناه الخلافة بأمرنا زاد نفوذنا وكان آلة في يدنا» . فابتسم نجم الدين ابتسامـــة استخفاف وقال : «انك يا يوسف رجل حرب ورأي . ولكنك مـا زلت في حاجة الى الدربة والحيلة .. استفدنا من وشاية هذا الرجل ان القوم اذا مات خليفتهم تضعضعوا واختلفوا فيما بينهم ، وهي فرصة لقطع تلك الخلافة من جذورها . ولا نبايع هذا ولا غيره ، وانما نقبض على القصور ونحبس اهلها الذكور اصحاب الحق في الخلافة حتى يبيدوا . وقـــد خطبنا للخليفة العباسي منذ مدة ولا بد من الشدة والحزم فينتهي الامر . أليس ذلك خيرا من ان نبايع خليفة اخر ونعود الى التعب من اوله ؟» . فأعجب صلاح الدين برأي ابيه ورأى الصواب فيه ، وخجل لما فاته ادراكه من الامر ، ولم يسعه الا الاصغاء والاذعان وقال : «بورك فيك يا أبتاه

من حكيم حازم» •

فقال : «ولا يكفي ذلك وانما يجب ان نتأهب من الان ونجعل الجند على استعداد للهجوم على القصور حالما يلفظ ذلك الخليفة السيء الحظ نفسه الاخير • وأتقدم اليك ان تكتم ما اقوله لك الان عن كل واحد حتى يأتي وقته فننفذه • واحذر ان تفعل ما فعلت امس فتكشف سرك في جلسة علنية • فقد قيل : (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) ••»

فحنى صلاح الدين رأسه اعجابا وطاعة وهم بتقبيل يد والده اعترافا باقتداره • فاجتذب نجم الدين يده وقال : «ارجو ان تستفيد من قولي يابني • انك ستكون سلطانا عظيما فاعمد الى التؤدة والحزم واذكـــر وصية ابيك» •

اما ابو الحسن فخرج من عند الهكاري وقد امتلأ صدره املا وتحقق لديه الفوز بالمكيدة وسار توا الى دار الخليفة وهو يتنسم خبر العاضد في اثناء الطريق • فعلم انه في أشد حالات المرض فأيقن انه مائت في ذلك الليل فأعمل فكرته في الوصول الى غرضه • وقد توهم فـــوزه بالخلافة ، وبقي القبض على سيدة الملك فأظهر اهتمامه بمرض الخليفـة وسأل عن الجليس الشريف فقيل له انه في غرفة الخليفة لا يأذن بخروجه والاطباء وقوف بين يديه يبدلون الدواء بالدواء بلا فائدة • فاحتال ابو الحسن في الوصول الى الشيخ السديد طبيب الخليفة فاستفهمه عـــن حقيقة حال العاضد فأجابه : «انه يكاد يكون في حالة الاحتضار» • فبكى وبالغ في البكاء حتى أشفق الطبيب عليه وأخذ يخفف عنه • فخرج توا الى قصر النساء وقد مالت الشمس الى الاصيل وطلب ان يـــرى بهاء الدين قراقوش • فقيل له انه خرج لمقابلة السلطان صلاح الديـــن فجلس ابو الحسن في غرفة الاستقبال بباب القصر ينتظر رجوعه •

وبعد قليل عاد قراقوش وعلى وجهه علامات الاهتمام • وكـــــان

ابو الحسن يتوقع ان يسمع منه ترحابا بعد رجوعه من عند صلاح الدين لاعتقاده بأن السلطان لا بد من ان يكون قد خاطبه في امره بعد ما كان من تدبيره مع الهكاري . فلما رأى بهاء الدين مقبلا على فرسه تصدى له بالباب وهو يبتسم فلم يكترث له قراقوش وأظهر انه لم يره فخاطبه ابو الحسن قائلا : «مرحبا بالاستاذ كيف فارقت السلطان ؟»

فالتفت اليه بهاء الدين كأنه رآه لاول مرة وقال : «انت هنا يا أبا الحسن ؟»

قال : «انا هنا في انتظارك من ساعة ، كيف حال مولانا الامام الان يا ترى ؟» قال بهاء الدين وهو يقعد على مقعد في تلك الغرفة : « ان مرضه شديد شفاه الله» . ولم يدع ابا الحسن للقعود كالعادة .

فقعد ابو الحسن من تلقاء نفسه . وأخذ يظهر الاسف على حال العاضد ويفرك يديه ويعصر عينيه ويهز رأسه وهو مطرق ثم قال : «هل انت متأكد انه شديد المرض ؟»

قال : «هكذا قيل لي الساعة ، شفاه الله . انه رضي الخلق» .

فبادر الى الجواب باهتمام وقال : «صدقت يا استاذ ان الامام كان من احسن اهلنا خلقا وأطيبهم قلبا ولذلك» . وتنحنح وهز رأسه كأنه يحاول كتمان امر خطر له ثم التفت الى قراقوش وقال : «لا بد انك لحظت بدقة نظرك يا استاذ ماذا كانت نتيجة طيبة قلبه وتساهله وان لم تر رأي العين . اما انا فقد رأيته . على ان الامر الان اعظم مما تعلمه وينبغي لنا ملافاة الخطر قبل وقوعه . انا أعلم انك ساهر متيقظ لا تحتاج الى تنبيه لكنني أستميحك عذرا اذا رأيت في قلقا فاني أضن بسمعة اهلي ان يلحقها ما يشوهها . وقد علمت ما كان بالامس من امر ذلك الغريب الذي دخل هذا القصر وخرج منه ولم تتمكن من القبض عليه ، لان اهل هذا القصر أرشدوه الى طريق الفرار . لا اقول ذلك طعنا في احد لاني

أعتقد ان ذلك من عواقب الطيش عن جهل لا عن سوء نية • فسيدة الملك هذا حالها وأخوها حي ، فاذا اصابه سوء لا سمح الله كيف يكـــون حالها ؟! »

وتنحنح وتوجه بنظره نحو قراقوش وهو يظهر الثقة فيه والاعتماد عليه وقال : «ولا ينبغي لي ان اخفي عليك امرا اخفيته على سائر الناس ولم يطلع عليه غير صديقي وصديقك ضياء الدين الهكاري • أعني ان الامام العاضد بايعني بالخلافة بعده وخطبت اخته هذه وهي لا تعلم بعده وانما يعلم الجليس الشريف بذلك ، ويعلمه ايضا ضياء الدين ، والسلطان صلاح الدين • وكان لي معه حديث طويل في هذا الشأن صباح اليوم، لا ادري اذا كان قد اطلعك عليه» • وصبر ليرى ما يبدو من قراقوش فاذا هو ما زال مصغيا لا يبدي حراكا •

فعاد ابو الحسن الى اتمام حديثه فقال : «واذا كان لم يطلعك عليه فلا بد انه مطلعك قريبا • وانما جئتك الان أستعينك في صيانة عرضـــي وعرض الامام شفاه الله ، ريثما يستقر الامر في نصابه ويشرف عليــه السلطان صلاح الدين حفظه الله • هذا امر قد تم الاتفاق عليه بينـــي وبينه • وانما اطلب اليك ان تحتفظ بهذا القصر وأنت فاعل ذلك • لكنني اخاف ان يتمكن الاعداء من دخوله سرا فأرى ان تأمر بنقل اخت الخليفة منه الى قصر اخر ليس فيه سراديب • وأظن دار الضيافة افضل القصور لهذا الغرض» • قال ذلك وهو يتفرس في عيني بهاء الدين وينتظر رأيه في ذلك •

اما بهاء الدين فأظهر عدم الاهتمام وقال : «لا ارى باعثا على هـــذا القلق يا ابا الحسن والخليفة ما زال حيا» •

قال : «انما العاقل من فكر في الامر قبل وقوعه اما اذا وقع فلا فائدة من التفكير ، اسمع •• اسمع •• أليس هذا صياح النساء فـــي

القصر ؟ يظهر ان العاضد قد فارق الحياة . مسكين !» . وأخذ يفرك كفيه ويبكي .

اما بهاء الدين فحالما سمع الصياح وقف والاهتمام باد في محياه . وأشار الى بعض الغلمان ان يمضي في مهمته ، وأومأ الى ابي الحسن ان يمكث ريثما يعود وألا يخرج قبل رجوعه . وتحول قراقوش الى مكان اخر في القصر وقد علا الضجيج فتحقق ابو الحسن موت الخليفة فأصبح همه القبض على سيدة الملك . وأسف لذهاب قراقوش ولم يعلم سبب ذهابه . فقعد في تلك الغرفة وهو مطرق يفكر كأنه على الجمر . فسمع قرقعة اللجم ، وصهيل الخيل فأطل من النافذة فرأى فرسانا يسرعون نحو القصر كأنهم يحيطون به من كل ناحية فعجب لذلك . ثم شعر بيد تهز كتفه برعشة فالتفت فاذا بالغلام الذي كان قد اصطنعه وجعله جاسوسا على سيدة الملك في ذلك القصر وقف يرتعد والبغتة ظاهرة في وجهه فصاح به : «جوهر ! ما وراءك ؟» . فقال : «هلم يا سيدي ، انج بنفسك» . قال : «الى اين ؟ . لا . اني باق حتى ارى هذه اللعينة وآخذها . ألم ترها ؟» . قال : «انج بنفسك يا سيدي . ان الامر على غير ما تظن . اخرج من هذه الغرفة قبل ان يتم النطاق حول القصر» . قال ذلك وجره من كمه واغتنم اشتغال الناس بالصياح والارتباك وخرج به من الغرفة . ولم يصدق انه خارج القصر وهو يلهث من الخوف . فقال ابو الحسن وهو يطاوعه في المسير : «الى اين انت ذاهب بي ؟»

فأجابه وهو يشير اليه ان يتبعه : «تعال يا سيدي . سأقص عليك الخبر . انج بنفسك» .

وما زالا يمشيان حتى بعدا عن قصور الخلفاء ودخلا بيتا من بيوت العامة لا تقع عليه شبهة . وهو منزل لذلك الغلام كان يختبىء فيه عند الحاجة فلما دخلا البيت أقفل الغلام الباب وقعد وقد امتقع لونه وأبو

الحسن يستغرب ذلك منه ولا يزال يعتقد ان الغلام مخطىء في توهمه ، اعتمادا على ما دار بينه وبين الهكاري •

فلما استقر بهما الجلوس قال ابو الحسن : «قل الان ما الذي حملك على هذا الفرار ؟»

قال : «لو لم أفر بك لكنت الان في السجن» •

فضحك ابو الحسن بتهكم وقال : «في السجن ؟ هه هه ، هذا امر بعيد • ولا ألومك على هذا الخوف لانك لا تعلم ما دار بيني وبين القوم في هذا الصباح» •

قال : «علمت كل شيء وعلمت ان تدبيرك لم يفلح وان قراقـــوش اللعين لما كنت انت في انتظاره بالقصر كان هو عند صلاح الدين ذهب اليه بأمر مستعجل فأمره ان يحيط قصور الخلفاء بالجند • وحالما يموت الخليفة يقبض على كل ما في القصور من النساء والاولاد والرجـال والغلمان وكل شيء» •

سمع ابو الحسن هذا القول ولم يصدقه فقال : «كيف عرفت ذلك؟ ومن أطلعك على هذا السر يا جاهل ؟• لا يبعد ان يكون صلاح الدين قد أمر هذا الطواشي ان يحتفظ بالقصور وما فيها وهو انما أمره بذلك لئلا يتعدى عليها احد من دعاة الامامة سواي • ولا ألومك على توهمك لانك لا تعلم ما تم الاتفاق عليه بيني وبينهم مما سأطلعك عليه في وقت اخر» •

فقال : «قلت لك يا سيدي اني مطلع على كل شيء ، وما انا جاهل كما تقول بل انا عاقل ساهر على مصلحة مولاي الشريف ، وقد تحققت ان صلاح الدين أمر طواشيه هذا ان يقبض على من في القصر وأن يبحث عنك بنوع خاص ، واذا كنت لا تصدق ارجع الى القصر وانظر مـــاذا تكون النتيجة » •

فأطرق ابو الحسن وهو يرتعد من الغيظ وأخذ يعبث بلحيته وهـــو

يراجع ما سمعه ويستغربه والغلام ساكت لا يبدي حراكا . ثـم التفت ابو الحسن اليه وقال : «يا جوهر ، هل انت واثق مما تقول ؟»

قال : «اني واثق تمام الثقة ، ان شئت ان تتحقق قولي فاخرج متنكرا وانظر الى الجند يبحثون عن الشريف ابي الحسن كما يبحثون عن سائر ابناء الخلفاء في قصر النساء . ولا أضمن انهم لا يكشفون امرنا ويقبضون علينا ولو تنكرنا» .

فلما تحقق ابو الحسن صدق غلامه وأيقن بفشله حمي غضبه حتى اصبح صدره يرتفع وينخفض وهو يغلي كالمرجل . ونسي موقفه مـع غلامه فأخذ يزمجر كالاسد ثم صار يرغي كالثعلب ويتظاهر بالتجلـــد والتفت الى الغلام وقال : «ما لنا ولهم دعنا منهم ، لا أعلم السبب في نقمتهم علي ايضا . اني بذلت الجهد في خدمتهم .. من يا ترى سيخلف العاضد على كرسي الامامة ؟»

فقال الغلام : «يظهر انهم سوف يولون احدا مكانه لانهـــم ينوون القبض على كل من بقي من اصحاب هذا النسب ولذلك خفت عليك» .

فعاد الى الاطراق وأخذ في تدبير حيلة للانتقام لان فشله كان مزدوجا، اذ ذهبت آماله في الخلافة وأبعد ما بينه وبين سيدة الملك . لكنه لم يشك انها ستندم عليه متى اكرهها صلاح الدين على ان تكون له .

* * *

اما سيدة الملك فتركناها مساء الامس بعد ذهاب عماد الدين من عندها وقد ذهبت الى الفراش . ولكن النوم لم يزرها وتراكمت عليها الهواجس . وبكرت في الصباح للاستفهام عن اخيها فقيل لها انه مريض لكن الاطباء عنده ولا تقدر ان تراه . فصبرت وهي تتوقع الاذن فـــي

رؤيته فلم تستطع ذلك الا بعد الظهر . فأذن لها وكان احسن حالا مما تظن فاطمأن خاطرها عليه وجعلت تخفف عنه وتطمئنه . وتذكرت مقاومتها له في ذينك اليومين بشأن خطبتها وتعب ضميرها لئلا يكون لمرضه علاقة بتلك المقاومة فندمت على ذلك .

وبعد قليل أنبـــىء العاضد بمجيء الطبيب والجليس فأشار الى سيدة الملك بالذهاب وطمأنها انه في خير . فعادت الى غرفتها وهي في قلق على اخيها . ولم يطمئن خاطرها عليه وأتتها ياقوتة وسألتها فبكت وأغرقت في البكاء برغم ارادتها فظنت ياقوتة ان الخليفة مات فصاحت صياح الندب فسمعتها سائر الجواري فاقتدين بها فعلت الضوضاء وأبو الحسن عند قراقوش فظنوا الخليفة مات كما تقدم وهو لم يمت .

وكان قراقوش قد استقدمه صلاح الدين في ضحى ذلك اليوم على اثر ما جاءه به الهكاري من ابي الحسن وأنبأه بما علموه عن داخليـــة القوم وأوصاه ان يكون على حذر وأن يجعل الجند قريبا من القصور فاذا علم بوفاة العاضد احاط القصور بالجند وبعث اليه بخبر ذلك . ولا يأذن لاحد من اهلها بالخروج لاية علة كانت . ونبهه بنوع خاص الى ابـــي الحسن والقبض عليه فجاء قراقوش فرأى ابا الحسن عنده فاستبقاه حتى يرى ما يكون . فلما سمع الصياح داخل القصر وظن الخليفة مات ، خرج لتوجيه الفرسان ، وأمر ابا الحسن بالبقاء ريثما يعود . فلما عاد لم يجده هناك فبعث في طلبه فلم يقف على خبره فأسف لنجاته وبث العيون للقبض عليه وأخذ يهتم بارسال الخبر الى صلاح الدين بوفاة العاضد . ثم علم ان الخليفة ما زال على قيد الحياة فسر لانه لم يتعجل في ارسال خبر الوفاة الى صلاح الدين لئلا يأتي ويجد الخبر كاذبا فيوبخه . على انه ابقى الجند حول القصر ليرى ما يكون . فلما دنت الشمس من المغيب جاءه احد الغلمان يقول : «ان مولانا السلطان قادم بموكبه» . فخفف

قراقوش للقائه فرآه تحول نحو قصر الذهب حيث يقيم الخليفة ، فاستغرب ذلك ومكث في مكانه لا يدري سبب مجيء السلطان في تلك الساعة واذا بصديقه الهكاري يمشي نحوه فرحب به وسأله عن سبب قدوم السلطان، فقال : «لان العاضد طلب ان يراه» فاستغرب قوله وصاح فيه : «الخليفة طلب ان يرى مولانا السلطان» . قال : «وما مكان الغرابة ؟» . فأجاب: «انت ادرى مني بمكانها ، وسنرى السبب بعد قليل» .

فدخل قراقوش وأدخل الهكاري معه وجلسا ودار بينهما الحديث عن مقاصد صلاح الدين ودهاء نجم الدين ونحو ذلك .

* * *

علمت سيدة الملك بعد قليل ان بكاءها وبكاء حاضنتها اشاعا خبر وفاة الخليفة فتشاءمت وسكتت . ولكنها انزوت في غرفتها لا تريد ان ترى احدا وقلبها يشتعل قلقا على حياة اخيها فضلا عن متاعبها الاخرى ، ولما غربت الشمس انقبضت نفسها وهي في انواع من الشدة كل منها يقبض النفس ويبعث على القلق . لكن ساعة الغروب زادتها انقباضا وأصبحت شديدة الرغبة في رؤية اخيها . واذا بالحاضنة اتتها مسرعة وقالت : «ان سيدي امير المؤمنين يطلب ان يراك» . فأجفلت لكنها فرحت وأسرعت في الذهاب . والتفت بمطرفها وخمارها ومشت في الممر والحاضنة تسير بين يديها ، فسمعت ضوضاء ولغطا من جوانب الدهليز ولم يساعدها النور الضعيف على تبين الوجوه ، لكنها استأنست بأصوات بعض اهلها فاستفهمت الحاضنة عما سمعته فقالت : «انك تسمعين اصوات ابناء اخيك واخوتك» .

فأجفلت وتراجعت . فقالت لها ياقوتة : «ما بالك يا سيدتي ؟»

فقالت : «ما الذي جاء بهم الى هنا ؟ ماذا جرى ؟ هل من بأس على أخي ؟» . قالت : «انه بعث في استقدامهم كما بعث في استقدامك» .

فمشت وركبتاها ترتعدان وقلبها يخفق تطلعا لما عساه ان يكون من حال اخيها لانه لا يبعث في طلب اهله الا وهو في اشد حالات المرض . ولما علم اولاد العاضد بقدومها وسعوا لها واقترب اكبرهم داود ولي العهد من عمته وقبل يدها فقبلته وهي تتماسك عن البكاء تشجيعا له . وصلت الى باب الغرفة وركبتاها ترتعدان وأذناها مصغيتان لعلها تسمع كلاما تطمئن له فسمعت صوتا استغربته لا تذكر انها سمعته قبلا . فالتفت بالخمار ووسع لها الحرسي وأزاح الستار عن الباب والغرفة قد أضيئت فيها الشموع فأرسلت نظرة الى الداخل فرأت اخاها مستلقيا على السرير وعلى وجهه دلائل الضعف الشديد . لكنه لما وقع بصره عليها ابتسم وسبقته العبرات فترامت سيدة الملك عليه ولم تلتفت الى احد من الحضور وأخذت تقبله وتقول : «لا بأس عليك يا اخي ويا سيدي ، لا بأس عليك» .

فقبلها هو ولم يجب لكنها أحست بدموعه تتساقط على خدها فتجلدت ونهضت وهي تقول : «لا بأس عليك يا سيدي انك في عافية والحمد لله» .

والتفتت الى ما حولها فرأت الجليس الشريف جاثيا بجانب فراش الامام ورجلا قاعدا على وسادة لم تكد تتفرس فيه حتى ارتعدت فرائصها وتذكرت انها رأت وجهه في بعض المواقف الرسمية من خلال النوافذ وهو صلاح الدين . فأوشكت ان ترتبك ويظهر الارتباك عليها فتجلدت ولم تشك ان صلاح الدين جاء ليخطبها .

وكان سائر ابناء الخليفة قد دخلوا في أثرها الى الغرفة فأشار العاضد اليهم جميعا ان يتقدموا فتقدموا فقبلهم واحدا واحدا وهو يبكي ومنظره يفتت الاكباد . ولم يبق احد من الحضور الا بكى حتى صلاح الدين .

اما العاضد فأشار الى ابنائه بالجلوس وأومأ الى سيدة الملك ان تقعد على فراشه بالقرب منه • فجلست وهي تحاذر ان يظهر وجهها لصلاح الدين•

جلسوا والسكوت مستول على المكان مدة ثم تكلم العاضد ووجه خطابه الى سيدة الملك قائلا بصوت ضعيف مضطرب متقطع : «يا أختاه انت تعرفين منزلتك عندي ، انك اختي وصديقتي ومرشدتي ، كم استشرتك وكم عولت على رأيك ، والآن وقد دنت الساعة وشعرت باقتراب الاجل والذهاب الى حيث القى وجه ربي • قد احببت ان أستوثق من حالك وحال ابنائي بعدي» • وتوقف عن الكلام ريثما يستريح والجميع مطرقون ثم قال : «وقد علمت بالاختبار ان ليس فيمن حولي من رجالي او اهلي من أثق به وأعول عليه في شأنكم ، وأنت تعلمين ما كان في خاطري على السلطان يوسف صلاح الدين (وأشار بيده نحوه) وقد طالما شكوت لك من معاملته ، أعترف لك بذلك وأنا في اخر ساعة من ساعات الدنيا وأول ساعة من ساعات الآخرة ، أعترف انـي شكوت من معاملته ، لكنني لا اجد الان من أثق بقوله وأتحقق انه فاعل ما يقوله سواه • لاني محاط بأقوام قوالين غير فعالين ، يتنافسون في تملقي ويتسابقون الى ابتزاز أموالي ونيل المراتب بالحيل والدسائس • فبعثت الى السلطان وكلفته مشقة الحضور لاوصيه بكم خيرا» • وأشار بأنامله ان يمهلوه ريثما يستريح وسكت وهو يلهث •

فأطرقوا وهم يمسكون أنفاسهم ويكتمون ما يتردد في آماقهم من الدمع لا يلتفت احدهم الى الاخر تهيبا من منظر الخليفة وتطلعا لما سيقول • ثم عاد العاضد الى الكلام ووجه خطابه الى صلاح الدين قائلا: «هذه يا صديقي اختي سيدة الملك التي بعثت تخطبها • وهؤلاء ابنائي وكبيرهم داود هذا • اني تارك امرهم اليك خوفا من ان يصيبهم مكروه بعدي وأشهد عليك الله ان تأخذ بناصرهم •• فهل تعدني انك فاعل ما

اقول ؟ »

فلما سمعت سيدة الملك ذكر الخطبة في اثناء كلام اخيها اختلج قلبها خوفا ويأسا لئلا تكون اذا مات اخوها رهينة امر صلاح الدين ولاسيما بعد هذه التوصية . ثم سمعت صلاح الدين يجيب اخاها قائلا : «انت يا امير المؤمنين في خير وعافية باذن الله ولا بأس عليك يدعو الى الاهتمام بالتوصية فانك مبل من هذا المرض قريبا ان شاء الله ، اما وقد ذكرت امر الوصاية فاعلم يا سيدي ان الخادم (يعني نفسه) قائم بما أوصيت بـــه وليكن المولي أعزه الله على ثقة من هذا الوعد ان اهلـــك هؤلاء لا يصيبهم سوء ما دمت في قيد الحياة ولك علي عهد الله بذلك» .

فلم تجد سيدة الملك ذكرا لها في هذا الجواب فأيقنت انها واقعة فيما تتخوفه فعظم عليها الامر فضلا عما هي فيه من القلق على حياةاخيهـــا فأخذت بالبكاء رغم ارادتها . وأرادت الخروج تخفيفا عن اخيها فمد يده وقبض على يدها ليجلسها فأحست بارتعاش يده فاقشعر بدنها وقعدت وهي تنظر اليه فرأته ينظر الى صلاح الدين وعيناه تلمعان والدمـــع يغشاهما . وكأنه اراد الكلام فامتنع عليه فأشار باصبعه الى اخته . ففهم صلاح الدين انه يوصيه بها فأجابه قائلا : «كن مطمئنا على سيدة الملك انها اختك ونعم الاخت هي ، لكنها ايضا اختي بعهد الله وكفى» .

فلما سمعت تصريحه بأنها أخته سرى عنها ، ورغم ما هي فيه مـــن اليأس والحزن اوشكت ان تبتسم لاعتقادها ان صلاح الدين لم يدعها اخته الا وقد عدل عن التزوج بها وهو غاية ما تريده . لاسيما وقد ضمن حمايتها فأصبحت في مأمن من تعدي ابي الحسن او غيره . ولم يكـــد يطمئن خاطرها من هذا الوجه وقد شغلت عن الخطر الملم بأخيها حتى اخذ يسعل وينتفض في فراشه من شدة الرعشة . وهي نوبة عصبية توالت عليه في ذينك اليومين . فنهض الجليس وأسرع يدعو الطبيب الشيخ السديد

من غرفة اخرى . فدخل الطبيب وأشار الى الحضور ان ينصرفوا من المكان ليعالج المريض بما يراه فنهضوا جميعا . ومشى اولا صلاح الدين مشية الاسد وسيدة الملك تراقبه وأحست من تلك الساعة انها تحبه حب الاعجاب وهي من طبعها تعجب برجال المروءة والنجدة وهو ما بعثها على حب عماد الدين كما علمت . فأحست بارتياح لصلاح الدين واطمأن الى رؤيته . ثم اومأ اليها الجليس ان تنصرف الى قصرها وكذلك سائر الحضور من اهلها .

فانصرفوا وتزودت سيدة الملك بنظرة من اخيها وخرجت وقلبها مطمئن وقد نسيت حزنها على حاله او شغلت عنه . وكانت حاضنتها تنتظرها في الممر وتتوقع ان تراها باكية خصوصا لما علمت بوجود صلاح الدين هناك ، فأخذت تتأهب للتخفيف عنها . فاذا هي مشرقة الوجه رغم ما يجول في عينيها من الدمع ورغم ما ظهر في أجفانها من الذبول ، فقبضت على يدها ومشت معها فعلمت من خطواتها وحركاتها انها فرحة . وما حققت انها وصلت الى قصرها ودخلت غرفتها حتى ابتدرتها قائلة : «كيف سيدي امير المؤمنين ؟ ارجو ان يكون في صحة » .

فقالت وهي تنزع الخمار عن رأسها : «انه في غاية الضعف وقد داهمته الان نوبة شديدة اوجبت امر الطبيب باخراجنا من عنده ليعالجه، وكان قبلها ضعيفا يقطع الكلام تقطيعا» .

فقالت : «شفاه الله ، من كان عنده وأنت هناك ؟» . قالت ذلك وهي تراقب ما يظهر منها .

قالت : «كان هناك السلطان صلاح الدين الملك الشهم» . وسكتت. فقالت ياقوتة : «لماذا سكت وكيف عرفت انه شهم ؟ يظهر انك رفضته قبلا لانك لم تكوني تعرفينه جيدا اما الان عند المشاهدة فقد تبين لك

انه يستحق حبك» . وأظهرت المداعبة ثم قالت : «لكنني لم أعلم سبب حضوره عند امير المؤمنين في هذا اليوم لعله جاء لاتمام طلبه وعقــــد الخطبة ؟ »

قالت ذلك وهي تساعدها في نزع المطرف عن كتفيها .

قالت سيدة الملك وهي تنظر في المرآة لتتحقق حال وجهها : «ان اخي بعث اليه» .

قالت : «امير المؤمنين بعث اليه ولماذا ؟»

فتذكرت الخطر على حياة اخيها فانقبضت نفسها وقالت : «بعث اليه ليوصيه بنا خيرا» .

فبغتت ياقوتة من هذه المفاجأة وقالت : «يوصيه بكم خيرا ؟! مــن تعنين ؟ »

قالت : «أعني انا وأبناء اخي واخوتي ، لان اخي شفاه الله ايقن انه لا ينقه من هذا المرض ، وأعترف بأنه لا يجد من رجاله من يثق بـــــه ليوصيه بنا غير صلاح الدين ، فبعث اليه والينا وأوصاه بنا» .

فعادت ياقوتة الى المداعبة لتشغل سيدتها عن الحزن وقالت : «طبعا ان صلاح الدين وافق امير المؤمنين على طلبه لانه مطالب بهذه الخدمة بواجب المصاهرة» . وابتسمت وعيناها تراعيان عيني سيدة الملك لترى ما تدلان عليه .

فابتسمت سيدة الملك والدمع يتلألأ في عينيها وقالت : «بل هو قال انه يفعل ذلك بحكم الاخوة وليس المصاهرة» .

فاستغربت هذا التعبير وقالت : «بحكم الاخوة ؟ وأي اخوة يـــا سيدتي ؟ »

قالت : «لما أوصاه اخي بي فلكي يؤكد له العمل بوصيته قال له : «كن مطمئنا على سيدة الملك انها اختك وهي ايضا اختي بعهد اللهوكفى»» .

فلم تتمالك ياقوتة عند ذلك من ضم سيدة الملك الى صدرها وأخذت تقبلها وتقول : «ان مصيبتنا بمرض سيدي امير المؤمنين كبيرة ، واذا اصابه سوء لا سمح الله فان المصيبة تكون اعظم كثيرا • ولكن في ظلمات هذه المصائب المدلهمة نورا قد أنار قلبي وأخرجني من ديجور اليأس لان اكبر هم لي كان من جهتك انما كان هو طلب صلاح الدين خطبتك وأنت لا تريدينه لانك عالقة القلب بعماد الدين • وأنا أعلم سلطة صلاح الدين وانه اذا اراد امرا لا يقدر احد على رده ، وقد قلت الان انه تخلى عن الخطبة وتعهد بحمايتك كأنك اخته • فاطمئني يا سيدتي ولا يهمك سعي الساعين او وشاية الواشين» •

فعلمت سيدة الملك انها تعني ابا الحسن فأجابتها بعينيها وكل جوارحها موافقة على قولها ، لكنها انتبهت فجأة الى حال اخيها فعادت الى الانقباض ودقت كفيها وقالت : «ويلاه ، ان اخي في حال اليأس من الحياة • ماذا أعمل ؟ كيف يصير امرنا اذا مات ؟!» • وغصت بريقها وعادت الى البكاء وأخذت ياقوتة تخفف عنها •

قضت معظم ذلك الليل في قلق ، ولم تفق الا صباحا على اصوات النعاة • ولم يقع خبر موت اخيها وقعا غريبا عندها لكن وقعه كان شديدا • ولم يمض الا يسير حتى تعالى الصياح في القصور واجتمع الوزراء ورجال الدولة والكتاب وغيرهم وغص قصر الذهب وسائر القصور بالناس • وأراد اهل الخليفة اقامة مأتم يليق بالخلفاء ، وهم رجال الدولة ان يبايعوا لداود ولي العهد واذا بالقصور قد احاط بها رجال صلاح الدين • ثم جاء بهاء الدين قراقوش الى الجليس الشريف وقال له : «ان السلطان يتقدم اليكم ان تجعلوا المأتم مختصرا خوفا من وقوع القلاقل ومن مات فقد مات ولا يجدي الصياح والعويل نفعا» •

فلم يسع القوم الا الاصغاء والطاعة خصوصا بعد ما شاهدوه من

استقدام الخليفة لصلاح الدين بالامس وان لم يعلموا تفصيل ما دار بينهما وانما دالهم استقدامه على رفيع منزلته عنده ومهما يكن من الامر فالقوة غالبة وجند صلاح الدين قابض على المدينة بيد من حديد . فأذعن القوم الى امره .

- ٧ -

آخرة الفاطميين

اما سيدة الملك فبلغها العزم على منع اهل ذلك القصر من الخروج ، ورأت الجند محدقا به من كل ناحية فاكتفت بالبكاء وهي في غرفتها فندبت اخاها وبكته والحاضنة بين يديها تبكي معها .

وانهما لفي ذلك اذ سمعتا دبدبة عند باب القصر فخافت سيدة الملك ونهضت ياقوتة وهي تقول : «لا تخافي يا سيدتي بعد ان سماك صلاح الدين اخته» ولم تصل الى باب الغرفة حتى سمعت قارعا يقرعه بلطف فسرى عنها وفتحته فرأت قراقوش واقفا باحترام وهو يقول : «هل مولاتنا سيدة الملك هنا ؟»

قالت : «نعم ماذا تريد منها انها في أشد حالات الحزن» .

قال : «أريد ان أعزيها وأطمئنها وأطلب اليها بألا تهتم بما قد تراه من دخول بعض الناس الى هذا القصر او خروجهم منه وأحب ان اسألها في شيء » .

فصاحت سيدة الملك من الداخل : «تفضل يا استاذ ماذا تريد ؟»

فدخل قراقوش وهو ينظر اليها نظرة الاستعطاف فالتفتت اليـــه وقالت : «ما وراءك الان ؟ ماذا تريد ، ها ان امير المؤمنين قد مات ، فليسكن روعك وروع اصحابك» . وغصت بريقها .

فجثا قراقوش بين يديها قائلا : «ان موت امير المؤمنين قد ساءني يا سيدتي لكنه جرى بقضاء الله ولا مرد لقضائه . وانما جئت الان لاخبرك ان مولاي السلطان أمرني ان اقبض على ما في هذه القصور من الاموال، وعلى من في هذا القصر من النساء وهن كثيرات كما تعلمين . وانمـــا استثني منهن سيدتي اخت امير المؤمنين ومن شاءت ان يصحبها من اهل هذا القصر من غير اهلها و ..»

فقطعت كلامه قائلة : «وماذا صنعتم بأهلي ، وأين هم ؟»

قال : «لا بأس عليهم ، لان المولي الراحل رحمه الله قد اوصـــى السلطان بهم خيرا وهو عازم على نقلهم من هذا القصر الى قصر اخــر يكونون فيه تحت رعايته ، لا بأس عليهم خصوصا مولاتي سيدة الملك ، فمن تريدين ان يخرج معك من الاتباع ، وماذا تريدين من الاثاث والآنية او غير ذلك ؟»

فأطرقت وقد كبر عليها الخروج من ذلك القصر . ومع اطمئنانهــا بما ستناله من الرعاية عند صلاح الدين لم تتمالك عن النفور من هذا الامر وقالت : «تخرجوننا من قصورنا ؟! وماذا تفعلون بمن فيها من النساء والرجال والاطفال فانهم يعدون بالآلاف» .

قال : «يا سيدتي ان مولاي صلاح الدين سيعمل بما لا يمس كرامة احد . فمن كانت من الجواري ذات بعل اطلقها مع بعلها ، ومن كانت حرة ولا بعل لها أطلق سراحها . وأما الجواري غير الحرائر فيهبهن لبعض رجاله . اما اهل الخليفة فانهم سيقيمون نساء ورجالا في غاية الاكرام والحفاوة تحت عنايته ويفرق فيهم الاعطية والالبسة والاقوات بحيث لا

ينقصهم شيء كأنهم في قصورهم في حياة الخليفة رحمه الله . ولاسيما سيدتي فانها ستنال كل رعاية هي ومن معها» .

فقطعت كلامه قائلة : «وماذا تفعلون بولي العهد داود ألم يبايعوه ؟»

فبلع ريقه وقال : «لا أظنهم يبايعون احدا فان السلطان نورالدين مولانا الاكبر قد امر ان نبايع للمستضيء بالله العباسي ، حتى لا يكون على الارض خليفتان . على اني لا ارى الخلافة الا تعبا لصاحبها وخطرا عليه ولا فائدة منها .. أستميح سيدتي عذرا في اختصار الحديث لاني مضطر للاشتغال بتنفيذ اوامر مولاي السلطان بالاستيلاء على ما في هذه القصور كما قلت لك . فاخبريني ما الذي تريدين ان أحتفظ به لك» .

قال ذلك ونهض وأظهر انه يريد الخروج فقالت : «أريد ان تصحبك هذه الحاضنة وهي تخبرك بما اريد ان آخذه من الاثاث او الثياب» . وحولت وجهها عنه .

فأتمت ياقوتة كلامها قائلة : «دعوا هذه الغرفة والتي الى جانبها لا يمسهما احد وأنا أهيىء فيهما ما يجب نقله .. بارك الله فيك يا استاذ » .

فتحول قراقوش وخرج فلما خلت ياقوتة بسيدةالملك قالت لها: «الحمد لله ان صلاح الدين قائم بوعده . رأيتك تدققين في السؤال وتستغربين عدم المبايعة لسيدي داود .. احمدي الله انهم لم يستخدموا السيف في فناء من بقي من اهل الخلافة كما فعل غيرهم في مثل هذه الحال . ألم يأمر ابو العباس السفاح بقتل كل من بقي من بني أمية حتى لا يبقى واحد منهم يطالب بالخلافة ؟ فلو أمر صلاح الدين مثل هذا الامر من يقدر على رده ؟ أم تظنين ذلك المغرور ابا الحسن يرده لعنة الله عليه» .

فلما سمعت ذكر ابي الحسن أحست براحة لانها نجت من حبائله في ظل صلاح الدين ونشطت للخروج فقالت : «أعدي ما نحتاج اليه من

أثمن المتاع وأخفه» . قالت ذلك وتنهدت . فأخذت ياقوتة تهتم بذلك. وكان يومهم هذا من اعظم ايام الشدة لانهم في يوم الانتقال من دولة الى دولـة .

* * *

اما قراقوش فانه قبض على من في تلك القصور من النساء وعرضهن على صلاح الدين فوجد اكثرهن من الحرائر فأطلقهن . وجمع الباقيات فوهبهن الحرية وفرقهن في رجاله وأخلى تلك القصور من الناس . وأخذ كل ما صلح له ولاهله وأمرائه والخواص من مماليكه وأوليائه مـن الذخائر وغيرها . وأخذوا من الجواهر والمصوغات ما لا يحصره وصف. ونكتفي هنا بنقل عبارة مؤرخ الدولتين في كتاب الروضتين قال : «وأخلى دوره (دور العاضد) وأغلق قصوره وسلط جنوده على الموجود ، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود . وأخذ كل ما صلح له ولاهلـه وأمرائه ولخواص مماليكه وأوليائه من اخائـر الذخائر وزواهـر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والـدرة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة والمصوغات التبرية والمصنوعـات العنبرية والاواني الفضية والصواني الصينية والمنسوجات المغربيـة والممزوجات الذهبية والمحوكات النضارية والكرائم واليتائم والعقـود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود والمنعـوت والمنحوت والدر والياقوت والحلي والوشي والعبير والحبير والوثـير والنثير والعيني واللجيني والبسط والفرش وما لا يعد احصاء ولا يحد استقصاء ، فوقع فيها الفناء وكشف عنها الغطاء وأسرف فيها العطاء ، وأطلق البيع بعد ذلك في كل حدث وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال

ورخيص وغال وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول ، واستمر البيع فيها عشر سنين وتنقلت في البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين» .

اما اهل الخليفة فنقلهم صلاح الدين الى دار برجوان في الحارة المنسوبة اليه . واختص سيدة الملك بالاكرام والحفاوة .

وكانت مصر الى ذلك اليوم خلافة مستقلة يدعي على منابرها لخليفتها الشيعي العاضد لدين الله . فأمر صلاح الدين ان تتحول الخطبة للمستضيء بالله الخليفة العباسي كما كان نور الدين قد طلب منه على يد ابيه نجم الدين . وكان قد اعتذر له في التأجيل خوف الفتنة والواقع انه أجلها ليستعين بذلك على نور الدين اذا اراد ان يأخذ مصر منه بالقوة . فيأخذ هو جانب لعاضد ويتقوى به وبالمصريين على دفع عسكر الشام. فلما تأكد ضعف العاضد وتحقق اشتغال نور الدين عن مناهضته عزم على اقامة الخطبة العباسية مظهرا بها الطاعة لنور الدين . فلم يجسر احد من العلماء ان يبدأ بذلك الا رجل أعجمي اسمه الامير العالم تصدى للخطبة. فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر ودعا للمستضيء العباسي فوافقه الناس ولم يظهروا معارضة ، فكتب بذلك الى سائر بلاد مصر . وكان هذا في اثناء اشتداد المرض على العاضد وتوفي ولم يعلم به . فأصبحت مصر بذلك تابعة لبغداد من حيث الخلافة من سنة ٥٦٧ هـ. ومنعوا ابناء العاضد وسائر الرجال من اهله عن الزواج حتى لا يعقبوا نسلا يطالب بالخلافة .

اما سيدة الملك فلما رأت نفسها في قصرها الجديد في دار برجوان اكبرت ذلك الانتقال . ولما بلغها تحول الدعوة للعباسيين تحققت ذهاب دولة العلويين فشق ذلك عليها كثيرا علاوة على وفاة اخيها . وقضت اياما وهي منزوية في غرفة من قصرها لا تكلم احدا الا ياقوتة تتردد اليها لتخفف عنها ، ومهما يكن من مشاغلها المتقدم ذكرها فان امرها مع

عماد الدين كان غالبا عليها . وقد فارقته في تلك الليلة المهولة وهي بين الشك واليقين من امره . وكانت وهي في ابان احزانها تود ان تفاتحها ياقوتة بحديثه لعلها تسمع ما يقوي املها بلقائه ، وياقوتة لا تفعل ليس عن تهيب ولكنها كانت ترى اشتغال سيدتها بحب ذلك الشاب من قبيل العبث وتود ان تنساه وتتحول عنه ، فلا ترى من الحكمة ان تفاتحها بذكره او ان تجعل ذكره من اسباب اطمئنانها وراحتها .

على انها كانت قد استأذنت صلاح الدين في الخروج للتنزه في البساتين ولم يكن يؤذن لسواها بذلك من اهل الخليفة ، ولكن صلاح الدين كان كثير العناية بسيدة الملك والاحترام لارادتها قياما بعهده لاخيها. وكان ذلك من اكبر اسباب تعزيتها على مصائبها . على انه اشتغل عنها مدة بالحروب في الشام وتوفي في اثناء ذلك ابوه (سنة ٥٦٨ هـ) وحدثت أمور اخرى شغلته عنها لكنه كان يوصي بهاء الدين قراقوش بها .

مضت مدة لم تسمع فيها شيئا عن عماد الدين ولا هي تعرف مقره ولا مصيره . ولا ترى بابا للسؤال او البحث ، فضاق صدرها واستولى عليها القنوط وتغلبت عليها السويداء وأصبحت لا تفرح بنزهة ولا ترتاح الى حديث . وقل طعامها وتكاثر أرقها فأخذت في الهزال وياقوتة تبذل جهدها في تسليتها وكلما رأت ضعفها وانقباضها تحيرت في امرها . وكانت تظن طول غياب عماد الدين ينسيها اياه ، ولما لم تعد تسمعها تذكره ظنتها نسيته لكنها ما لبثت ان ادركت خطأها ذات ليلة وهي نائمة في غرفة مستطرقة الى غرفتها اذ افاقت على صوت سيدة الملك وهي تناديها : «ياقوتة ياقوتة ! »

فوثبت من فراشها الى فراش سيدتها فرأتها قد قعدت على السرير وشعرها منفوش وتغيرت سحنتها فترامت عليها وصاحت «مولاتي حبيبتي ماذا تريدين ؟»

فقالت : «عماد الدين ، عماد الدين ! اين هو ؟» سمعتهم ينادونه» .

فقالت : «اين هو يا سيدتي ؟» انه ليس هنا ، انك ترين حلما . ألا تعلمين انه مسافر ؟»

فأزاحت شعرها عن جبينها وتفرست فيما حولها وعيناها تدلان على اضطرابها وارتيابها وقالت : «انه مسافر ؟ آه ما أطول هذا السفر اني سمعت اسمه في الحلم ، يا ليتني ظللت نائمة لعلي أسمع ذكره مرة ثانية او ربما تراءى لي طيفه» . قالت ذلك وأغرقت في البكاء .

فأكبت ياقوتة عليها وأخذت تخفف عنها وتقول : «لماذا تفعلين ذلك يا سيدتي ، ماذا اصابك ؟ اين تعقلك وحكمتك ؟»

فاجتذبت نفسها من بين‌ذراعيها وهي تقول : «لا تذكري التعقل والحكمة . لا محل لهما مع الحب يا ياقوتة .. يا لله ماذا جرى لي ، ويلاه لم اعد اخشى التصريح بما في قلبي ، لكنني حبسته زمانا حتى كاد يقتلني ، تدبري الامر وأسعفيني ، آه يا عماد الدين» . وعادت الى البكاء .

فجثت ياقوتة بين يديها وقالت : «هوني عليك يا مولاتي واتكلي علي . لماذا لم تفاتحيني بهذا الامر من قبل ؟»

قالت : «وما الفائدة من الكلام ؟» ها اني قد كلمتك اخبريني اين عماد الدين ما العمل العمل للوصول اليه . ألم تعلمي مقره . ألم تسألي احدا عنه ؟ قولي» .

قالت وهي تمسح دموع سيدتها بمنديلها : «نعم سألت عنه وقد علمت من الاستاذ بهاء الدين قراقوش انه سار بمهمة سرية اذا نجح فيها صار رجلا عظيما يليق بسيدة الملك ، وهذا امر ذو بال يا سيدتي . لان بنت الخليفة وأخت الخليفة لا يليق بها ان تتزوج بواحد من عامة الناس و.. و .. »

فقطعت كلامها قائلة : «لا تقولي خليفة ولا عامة ، انني اسيرة في هذا القصر وهو طليق ، وقلبي اسير ايضا ولا ادري اذا كان قلبه كذلك» . وشرقت بدموعها .

فأخذت ياقوتة تضمها وتمسح دموعها وتقبلها وتقول : «خففي عنك يا سيدتي ، وارجعي الى رشدك . واصبري . لنرى ماذا نعمل» .

قالت : «ماذا نعمل قد طال غيابه ولا ادري ما اصابه» .

قالت : «لم يصبه شيء ولا بد من عودته ظافرا ويصير من كبـــار الرجال . واذا علم صلاح الدين بميلك اليه زاده رفعة وتقدما ، يظهر انك نسيت هذه النعمة . نسيت التفات صلاح الدين اليك ومعاملته اياك معاملة الاخ لاخته ؟»

قالت : «كلا لم آنس ذلك ولولاه لقضيت حزنا وكآبة.. ولكن ما الدي أسمعني اسم عماد الدين في هذه الليلة ؟»

قالت : «لعل ذلك فاتحة القرب تمهلي الى الغد لنرى ما يكون» . وأشارت اليها ان تعود الى الرقاد فأطاعتها ونامت وانصرفت ياقوتة الى غرفتها وهي تفكر في سيدتها وقد ندمت لسكوتها عن ذكر عماد الدين كل هذه المدة على انها اعتقدت ان سيدتها لم تسمع اسم عماد الدين عبثا وانه لا بد من شيء يحدث بشأنه .

وقد تحقق ظنها في صباح اليوم التالي اذ جاءها قراقوش يقول : «ان السلطان صلاح الدين قادم بعد قليل لمقابلة سيدة الملك» .

فبغتت لكنها توسمت في تلك المقابلة خيرا ــ وصاحب اليأس يتوسم في كل جديد فرجا ــ فقالت: «هل يطلب مولانا السلطان ان يقابل سيدتي ويخاطبها ؟ انه يفعل حسنا لانها منقبضة النفس وهي تستأنس برؤيته ، انا ذاهبة لاخبرها بقدومه» . ومضت اليها .

* * *

وكانت سيدة الملك قد نهضت من الفراش وهمت ان تستدعي ياقوتة فلما دخلت عليها قرأت البشر في محياها فخفق قلبها وقالت : « مـــا وراءك ؟ »

فقالت وهي تبتسم : «لعل الفرج قريب •• ان السلطان صلاح الدين آت لمشاهدتك » •

قالت : «هو طلب ذلك من تلقاء نفسه ؟» وتوردت وجنتاها من البغتة•

قالت : «نعم يا سيدتي فلعل عنده خبرا يسرك • قومي والبســـي ثيابك » •

فنهضت وساعدتها ياقوتة في اللبس فارتدت ثوبا بسيطا وأصلحت شعرها وخمارها ، وخرجت الى قاعة الاستقبال وركبتاها ترتعشان مـــن التأثـــر •

وبعد قليل سمعت وقع خطوات في الدار واذا ببهاء الدين قراقوش قد دخل وهو يقول : «ان مولانا السلطان قادم» •

فتهيأت سيدة الملك لملاقاته • ثم دخل صلاح الدين وهو يتلطف في القاء التحية فهمت بالنهوض له فأشار اليها ان تقعد وهو يبتسم وقال : «اجلسي يا اختي ، قد ابطأت في زيارتك هذه المرة لغيابي عن مصر ، كيف انت ؟ ارجو ان تكوني في خير» •

فلما سمعته يناديها بالاخوة انبسطت نفسها وقالت : «طالمـــا كنت مشمولة برضاء السلطان صلاح الدين فأنا في خير ، والحمد لله» •

قعد صلاح الدين على وسادة بين يديها وهو يشير الى قراقوش ان يقعد • وظلت ياقوتة واقفة • فقال صلاح الدين يخاطب سيدة الملك : «ارجو ان تكوني حائزة اسباب الراحة في هذا القصر» •

قالت : «نعم اني من نعم السلطان لا ينقصني شيء من اسبـــاب الراحة لان الاستاذ بهاء الدين لا يدخر وسعا في هذا السبيـــل •••

ويكفيني من اسباب السعادة ان يدعوني السلطان صلاح الدين اخته» .

قال : «فاذا كنت راضية عن هذه الاخوة لم يبق باعث لوضع هذا النقاب على محياك» . وضحك .

فأزاحت النقاب عن وجهها وقالت : «نعم صدقت» . وأطرقت حياء.

فرأى صلاح الدين الضعف في وجهها فقال : «اراك منحرفة المزاج يا سيدة الملك هل تشكين من شيء ؟»

فسكتت وظلت مطرقة فالتفت الى ياقوتة فعلمت انه يستفهمها عن سبب ذلك النحول فقالت : «انها لا تشكو ألما ولكنها منحرفة المـزاج قليـلا » .

قال : «لا بأس عليك يا اختي . وأرجو ألا اكون قد أثقلت عليك بهذه الزيارة .. وانما حملني عليها حب مصلحتك . ولكي اسألك عن امر لا احب ان يطلع عليه سواك وأظنك أعلم الناس به» .

فتطلعت الى معرفة ما يقوله وقالت : «اني رهينة ما تريد يا سيدي» وشخصت في وجهه لترى ما يريده .

فالتفت يمينا وشمالا كأنه يتحقق خلو المكان من الغرباء وقال : «انت تعلمين ان اخاك رحمه الله اوصاني بك وبسائر اهلك خيرا وأظنني قمت بواجب الوصية» . فأشارت بعينيها ورأسها ان «نعم» . فقال : «وأظنني لم أقصر ايضا في توخي كل وسيلة لاسعاد حال هذه البلاد من كل وجه فرفعت كثيرا من المظالم التي كانت في عهد الدولة الماضية وقد اتاها الذين كانوا محيطين بالمرحوم اخيك . وكنت اظن هذا كافيا لاجماع اولئـك القوم على الطاعة» . وسكت .

فقالت : «أظنهم مجمعين ، لان مولانا السلطان لم يدخر وسعا في تخفيف الضرائب واجراء العدل» . قال : «وكان في امكاني لما تحولت هذه الدولة الى يدي ان أقتل كل من كان من الامراء والوزراء على رأي

الدولة الماضية لكنني لم افعل ذلك رغبة في ان يعرفوا لنا هذا الفضل» •

فاستغربت قوله وتوسمت من ورائه شيئا جديدا وأشارت بعينيها كأنها تستنهم عما حدث فقال : «ولكنني علمت ان هؤلاء الامراء والاعيان يتآمرون علينا» • فرفعت بصرها وقالت : «يتآمرون على السلطان ؟» •

قال : «نعم ، ولو تآمروا فيما بينهم فقط لهان شرهم لكنهم يستعينـــون علينا بالاعداء • انهم يخابرون اعداءنا الافرنج في ساحل الشام وصقلية يحرضونهم على مناوأتنا ليتاح لهم القيام علينا او تخرج هذه البلاد من أيدينا» • قال ذلك وقد بان الغضب في غنة صوته •

فأجفلت وقالت : «يتواطأون مع الافرنج على سلطانهم ؛ يا لها من خيانة !» وأطرقت لحظة ثم قالت : «هل وثق سيدي من هذا الخبر ؟»

قال : «اني واثق تمام الثقة مما اقول ، لان خبرهم جاءني من رجل أثق به وثوقي بنفسي • قبحهم الله ، اذا كانوا يعدون خروج الدولة من الخلافة العبيدية الى العباسية شرا وكلتاهما اسلاميتان فكيف بانتقالها الى الافرنج وهم اعداؤنا الالداء مذهبا ووطنا ؟•• فبدلا من ان تتعاون على صيانة بلادنا منهم ندلهم على عوراتنا ونحرضهم على فتح بلادنا • هل رأيت أضعف رأيا من هؤلاء ؟• ألا يحل قتل الساعين في ذلك ؟» • قال هذا وقد ارتفع صوته وأبرقت عيناه برغم ما حاوله من تلطيف غضبه بين يدي سيدة الملك وقد عبث بعثنونه وأخذ يحكه •

اما هي فانها شاركته في الغضب وأحست بنوع من الخجل لان الذين قاموا بتلك المؤامرة من رجال اخيها فقالت : «نعم ، انها خيانة عظيمة، ولكنني أستغرب وقوع مثل هذا العمل من قوم عقلاء •• فربما كان الساعون فيه من بعض العامة الجهلاء» •

قال : «انهم من اكبر الامراء والاعيان وفيهم رجل يزعم انه من سلالة العبيد بين اقربائكم • ولم نوفق الى القبض عليه مع من كان في القصر

منكم ، وحسبناه اكتفى بالنجاة من القتل واختفى لكنه الان من اكبر المحرضين على الخيانة ، أظنك عرفته •• ولولا دخوله في هذا الامر لم أتعبك في شرح هذه الواقعة • وانما اردت الاستعانة بك في استطلاع حاله لعلك تعرفين عنه شيئا لانه اقرب المقربين لاخيك رحمه الله ، حتى انه كان طامعا في ولاية العهد بعده ، أظنك عرفته» •

فعلست سيدة الملك انه يعني ابا الحسن فامتقع لونها غضبا وقالت : «نعم عرفته ، أظنك تعني ذلك الشريف الكاذب ، انه يدعي النسب فينا وليس هو منا . ألا تعني ابا الحسن ؟»

قال : «اياه أعني ، انه من اكبر المنافقين الخائنين لانه جاءنا والمرحوم العاضد على فراش الموت وتوسل الينا في نقل ولاية العهد اليه على ان يكون عونا لنا في كل شيء فلم نوافقه • فانقلب الـى دس الدسائس ونصب الحبائل فأطاعه جماعة من المارقين وسينال كل منهم جزاءه ، وانما ألتمس منك ان ترشدينا عما تعلمينه من مكان ابي الحسن» • قال ذلك وهو يتلطف في السؤال بخفض صوته •

فظلت ساكتة وقد تمنت ان يكون ما يقوله صلاح الدين صحيحـا ليقع ابو الحسن في شر اعماله وتتخلص منه ، وأحبت ان تتحقق صحة تلك الدعوة فقالت : «نعم أعرف نقص هذا الرجل وسوء خلقه ومطامعه وسأبحث عن مكانه ، ولكنني ارجو ان يكون سيدي على ثقة من الخبر واذا شاء ان يزيدني بيانا فانه يعينني على البحث» •

قال : «ان هذا الخبر تلقيته من عدة مصادر فشككت فيه حتى اتاني بشأنه كتاب من رجل لا أشك في صدقه كتب الكتاب بخطه وقد وصل الي في فجر امس سرا مع وفد ارسله الافرنج الموالون لاولئك الخائنين بحجة انهم يحملون الي هدية من بعض ملوكهم وهم انما يحتالون في مقابلة تلك العصابة ليتسوا المكيدة ، وهذا هو الكتاب اذا طالعته أغناني

عن زيادة الايضاح» . قال ذلك ومد يده الى جيبه واستخرج لفافة دفعها الى قراقوش ليقرأها .

ففتحها بهاء الدين وأخذ يقرأ : «أكتب هذا الكتـــاب الى مولاي السلطان وأنا في أعماق السجن في بيت المقدس . لا يسعنـــي الوقت لتفصيل سبب سعيي فان الكلام فيه يطول وانما اسرعت الى كتابتـــه لانقل الى مولاي خبرا مهما عرفته من ثقة وأخاف اذا تأخر وصوله ان ينتهي بما أكره وقوعه ــ علمت بعد خروجي من مصر بموت العاضـــد وانتقال الدولة الى مولاي السلطان ، وسمعت وأنا في السجن ان بعض رجال تلك الدولة يجتمعون سرا في الفسطاط يتآمرون على اخراج هذا الامر من حوزته . وقد خابروا الافرنج في هذه الديار ان يهاجموا مصر بجند كثيف يجمعونه من هنا ومن صقلية وان اهل مصر يكونون معهم على جندكم . وان اولئك المؤتمرين يرأسهم رجل من العلويين اسمـــه ابو الحسن وهو الذي اغرى الناقمين على هذه الدولة فوافقـــوه واستنجدوا الافرنج . وقد وافقهم الافرنج وأخذوا يتأهبون لهذه الحملة، لكنهم هيأوا جماعة بصورة وفد يحمل هدية الى السلطان صلاح الدين من ملك الافرنج وهم في الحقيقة يريدون الاجتماع بتلك العصابة واتمام المؤامرة . وقد وفقني الله بواسطة صديق لي هنا ان أطلع على ذلك وان ارسل هذه الرسالة مع حامل هذا الكتاب وهو بحسب الظاهر من جملة خدم الوفد او هو دليلهم في الطريق ، فدفعت اليه هذا الكتاب ، فاذا وصل اليكم فادفعوا الى حامله مائة دينار وأكرموه . اما انا فما زلت هنا وسأبقى حتى يتاح لي الخروج للقيام بالمهمة التي وقفت حياتي للقيام بها في خدمة مولاي السلطان ، وأنا ظافر بها باذن الله فاما ان اعود اليكم فائزا منصورا او اموت في هذا السبيل فداء لمولاي لان حياتي وحياة

كل رجاله مبذولة في خدمته» .

* * *

كانت سيدة الملك تسمع الكتاب ونفسها تحدثها في اثناء ذلك ان الكتاب يتعلق بعماد الدين . فلما سمعت قوله في الفقرة الاخيرة يذكر المهمة التي انتدب لها خفق قلبها وتبادر الى ذهنها ان يكون هذا الكتاب من عماد الدين نفسه خصوصا لانه يقول انه برح مصر قبل وفاة اخيها، فبدت البغتة في وجهها وتسارعت دقات قلبها ولم تتمالك عند الفراغ من تلاوة الكتاب ان قالت : «هل يأمر السلطان ان أعرف من هو صاحب هذا الكتاب ؟»

قال : «ينبغي لنا حفظ اسمه لكنني نظرا الى ما بدا لي من غيرتك وصدق لهجتك لا ارى مانعا من ذكره انه شاب جمع بين المروءة والحماسة وصدق المودة ، كنا انفذناه لامر هام لا يجسر عليه سواه لا أظنك تعرفينه» . ووقع نظر صلاح الدين وهو يتكلم على نظر بهاء الدين قراقوش فقرأ في وجهه شيئا يستدعي التوقف عن التصريح لكنه لم يدرك السبب ولا استطاع التوقف بعد ان وعد بالتصريح ونظر الى سيدة الملك فرآها متطاولة بعنقها وعيناها شاخصتان الى شفتيه تكادان تحتلبان الكلام من فيه احتلابا فقال : «ان صاحب هذه الرسالة اسمه عماد الدين» .

لم يكد يلفظ باسمه حتى صاحت سيدة الملك : «عماد الدين ؟!» . وأغمي عليها !

فدهش السلطان ونهض وأسرعت ياقوتة الى الماء وأخذت ترش سيدتها به وتفرك يديها ، واقترب بهاء الدين من صلاح الدين فأصغى اليه فقال له: «كنت اشرت الى مولاي ألا يذكر هذا الاسم» .

فقال : «وما الذي يعنيها من امره ؟ هل تعرف شيئا عن ذلك ؟»

فقال همسا في أذنه : «عرفت شيئا منه قبل سفره لكن ضياء الدين الهكاري منعني من ابلاغه لمولاي مخافة ان يفسد سعيه يومئذ في خطبة هذه السيدة» . وضحك .

فقال صلاح الدين : «وما هي علاقتها به ؟ يظهر انها تحبه» .

فأومأ اليه ان يتبعه الى غرفة اخرى ريثما تفرغ ياقوتة من معالجة سيدتها فتبعه فلما خلا به قص عليه ما كان من امر عماد الدين ليلة مجيئه الى القصر في السرداب وكيف وشى به ابو الحسن ولم يتمكنوا من القبض عليه الى اخر الحديث .

فوقف صلاح الدين يفكر فيما اتفق وقوعه في تلك الجلسة وقد سر لاطلاعه على ذلك السر لانه يحب عماد الدين ويريد اكرام سيدة الملك . وشكر الله لانه لم يوفق الى خطبتها فقال لبهاء الدين : «لقد سرني اطلاعي على ذلك فيجب علينا ان نسعى في جمع شمل هذين المحبين ، والحمد لله ان سعي ابي الحسن لم يتكلل بالنجاح» .

فقال قراقوش : «ويمكننا ان نتخذ سعينا في مصلحتها وسيلة الى سعيها في مساعدتنا على كشف تلك المؤامرة ، لانها من أقدر الناس على ذلك فاذا اخلصت الخدمة في هذا السبيل ساعدناها على مرامها» .

فضحك صلاح الدين وقال : «لله درك يا بهاء الدين ، انك لا تنظر في خير لاحد ان لم يعد جانب منه عليك ، احسنت» .

قال : «انما يهمني القيام بخدمة مولاي أعزه الله» .

ثم تحول صلاح الدين نحو باب القاعة وسأل عن سيدة الملك فقيل له انها افاقت ، فدخل فرآها جالسة على وسادة وقد اطرقت خجلا وبان التعب في محياها وذبلت عيناها فتقدم نحوها وقال : «قد علمت امرك ، وسرني ما علمته من علاقة حبيبنا عماد الدين بك ، واعلمي انـي باذل

اقصى الجهد في تقصير مدة غيابه ، ولا يكون الا ما تريدين وقد اوصيت صديقي بهاء الدين ان ينظر فيما كنا فيه ، أستودعك الله» .

فوقفت لوداعه والخجل غالب عليها ولم تجب بلسانها لكن عينيها أدتا واجب الشكر ، على انها لم تستطع السكوت عما يخالج فؤادها من الخوف على عماد الدين فقالت وصوتها يرتجف : «ولكنه في أعماق السجن يا مولاي» .

قال : «انه سيأتي باذن الله ، واذا ظل في السجن فاننا نفتح بيت المقدس لنخرجه منه وان في فتحه تعزيزا لدولة الاسلام . لا تخافي» . وابتسم ومشى مشية الاسد وهي تشيعه ببصرها وتزداد اعجابا بعلو همته، وكبر نفسه ، ورأت انتقال السيادة اليه وذهاب دولة اخيها امرا طبيعيا لا بد من وقوعه لما كانت تعلمه من ضعف نفوس رجال اخيها وفساد آرائهم وتنازعهم على التافه من الامور شأن الدولة في اواخر عمرها .

وبعد خروج صلاح الدين تقدم بهاء الدين اليها فقال : «سأعود اليك بعد قليل ريثما ترتاحين كوني مطمئنة» .وضحك .

* * *

لم يبق هناك الا سيدة الملك وياقوتة . ووجهها مشرق : «الحمد لله صدق ظني ونلت ما كنت أريده» .

فتنهدت سيدة الملك وقالت : «ما الذي نلناه وقد تبين لي من نص ذلك الكتاب ان عماد الدين في أعماق السجن عند الافرنج وانه مصمم على مهمة يظهر انها غاية في الخطر وانه اذا لم يفز بها ظل هناك او ..» وغصت بريقها .

فقالت : «ألا يكفي يا مولاتي اننا علمنا بوجوده حيا ؟ وان صلاح

الدين عون لك في الوصول اليه ؟ وسيقتص من ذلك الخائن ؟ هيا بنا الى الطعام واتكلي على الله» .

فنهضت وقد سرى عنها وتناولت طعامها وحديثهما في اثناء ذلك عن المؤامرة وأبي الحسن . وبعد الطعام اتى قراقوش ـ وهو يدخل المكان بلا استئذان ـ وقال : «يا سيدة الملك أهنئك برضا السلطان صلاح الدين فانه اوصاني بك خيرا .. انما ينبغي لنا ان نكشف عن مكان المؤامرة فهل تعرفين عنه شيئا ؟»

فأطرقت تفكر ثم قالت: «انى لي ذلك وأنا لا اعرف شارعا من شوارع هذا البلد لاني قضيت عمري محبوسة في القصور» .

فتصدت ياقوتة للكلام وقالت : «ان كشف هذا المخبأ علي» .

فقال قراقوش : «اين هو ؟»

قالت : «لا أعلم ولكني ارجو البلوغ الي خبره .. ألا تعرف الغلام جوهر ؟ »

قال : «اعرفه .. ألم يكن من غلمان القصر ؟»

قالت : «نعم . وهو جاسوس ذلك الخائن كان يحمل اليه اخبارنا ويطلعه على اسرارنا» .

قال : «وما الفائدة من معرفته اذا كان هذا شأنه وهو خائن لنا ؟»

قالت : «ان الخائن لا يثبت في الامانة لاحد . كان في الامس عينا لابي الحسن علينا وهو الان سيكون علينا لنا عليه» .

قال : «اين هو ؟» . قالت : «هو في هذا القصر وقد اخبرني بعض الغلمان انه غاضب على ابي الحسن لانه اساء معاملته ولم يبق له فيه وطر بعد خروج مولاتي من ذلك القصر ودخولها في حياطة مولانا السلطان. فنفر منه وجاء يتزلف الينا .. هل أستقدمه اليك الان ؟» . قال «افعلي».

فأمرت احد الغلمان ان يستقدمه ، وعادت فرأت سيدتها قد ابرقت

عيناها من السرور وقالت لها : «بورك فيك يا ياقوتة انك ساحرة» .

قالت : «لا بد ان يعود كيد الخائن الى نحره» . ثم جاء جوهر وعيناه ترقصان في وجهه من الاضطراب . وكذلك بصر المنافق لا يستقر في مكانه .

فنظر اليه قراقوش نظر المتفرس وقال له : «يا جوهر بلغنا ان ابا الحسن خدعك حينا حتى اخرجك عن طاعة مولاتنا .. لكن سرني انك رجعت الى الصواب وعلمت انك لا تنال خيرا الا بصدق الخدمة في مصلحة مولاتنا سيدة الملك ومولانا السلطان ..»

فأكب جوهر على يد بهاء الدين يقبلها ويتظاهر بالندم والاخلاص وقال : «يعلم الله اني كنت مغشوشا فان ذلك الرجل خدعني وأوهمني انه يد الامام المرحوم ويفعل ما يشاء . ثم علمت انه يريد به شرا وأنا قد ربيت في خدمة مولاي فلا يليق بي ان آغدر به . فلما تحققت سوء قصد ابي الحسن تركته لاني آكره الخيانة . ولاسيما لمن أحسن الي وأنا صنيعته وعبده» . فقال قراقوش وهو يظهر انه صدقه: «بارك الله فيك.. واعلم اني حسن الظن بك وسأزيد في عطائك ولا اسألك عما مضى . وانما اطلب اليك امرا واحدا هو هين عليك وفيه انتقام لك من ذلك الخائن ، فهل تطيعني ؟» . فلم يصدق جوهر انه نال هذه الرعاية بعد خياناته الماضية فقال : «اني رهين الاشارة يا سيدي» . قال : «اطلب منك ان تخبرني عن المكان الذي يجتمع فيه ابو الحسن وأقرانه هل تعرف اين هو ؟»

قال : «ذلك هين يا سيدي .. نعم أعرفه وأعرف الذين يجتمعون معه قبحهم الله ، كنت عازما ان أطلعكم على ذلك وان لم تسألوني عنه فانه فرض علينا ، وكان يمنعني الخجل من خطئي الماضي» .

فربت على ظهره وضحك وقال : «عافاك الله هل المكان بعيد من

هنا ؟» • قال : «هو في الفسطاط يا سيدي» •

قال : «الان تحققت صدقك لاني كنت عالما انه هناك • فأنا واضع ثقتي فيك من هذه الساعة • وأنت تعلم ان ثقتي هي ثقة مولانا السلطان ولا يخفى عليك ما يستفيده صاحب هذه الثقة • اصلح من أفسدته يا جوهر وقد اوصتني مولاتنا سيدة الملك خيرا بك وأخبرتني كم كنت مخلصا في خدمتها قبلا • ولكن ذلك الخائن اغراك بهذه الخيانة • مضى ما مضى تعال معي» • قال ذلك وتحول وتبعه جوهر • وقد بادر الى العمل قبل ان يحدث ما يغير عزم ذلك الغلام المتقلب • وصمم ألا يفارقه قبل الوصول الى المطلوب • على انه تذكر امرا احب ان يقوله لسيدة الملك قبل الذهاب فرجع اليها وقال : «ينبغي لك يا سيدتي ان تتكلي علي في كل ما يخطر لك ، ولا بد انك تذكرين اطلاعي على مجيء عماد الدين الى قصرك واحمد الله على انه نجا سالما» • فاغتنمت تقربه اليها وتلطفه في طمأنتها وقالت : «اما وأنت معي وقد رأيت السلطان راضيا عني فالي اتقدم اليك ان تزيدني بيانا عن حال عماد الدين» • قال : «لا اعرف عن حاله الان غير ما في كتابه الذي تلوته عليك الساعة» • قالت : «أعني هل عليه خطر هناك ومتى تظنه يعود ؟»

قال : «لا أعلم متى يعود ، اما الخطر فلا اخافه عليه لعلمي بشجاعته وتعقله ولا بد من الاتكال على الله •• كوني مطمئنة في كل حال» • قال ذلك ومشى •

فهرع جوهر في أثره وقد سره ما يؤمله من الفوز بالمكافأة ، لا يهمه ما يترتب على عمله من قتل النفوس وخراب البيوت • ان أمثال هـذا الخائن ينقصهم الشعور الحي الذي يسمونه الضمير • فهم ينظرون في الاعمال من حيث ما يعود عليهم من النفع ولا يشعرون بغير ذلك • والدنيا عندهم لها وجهان وجه منفعتهم وهو ما ينبغي بقاؤه وأما الوجه الاخر

فهو كالعدة في نظرهم فلا يبالون ان يمحى من الوجود او يساق اصحابه الى المجازر • وقد يسرهم ما يرونه في الاخرين من الاذى وان لم ينالوا هم منه خيرا لانفسهم • فكيف اذا كان لهم منه نفع • نعوذ بالله مـــــن هؤلاء • لكنهم بحمد الله قليلون ولو كانوا كثارا لخربت الدنيا من عهد بعيد •

* * *

مشى قراقوش وجوهر في خدمته وكان جوهر مملوكا حبشيا وفيه ذكاء لكنه لم يكن له ضمير كما علمت فالتفت قراقوش اليه في اثنـــــاء الطريق وقال : «يا جوهر ما العمل الان ؟» • قال : «الامر لمولاي» • قال : «انا متكل عليك في الوصول الى الغرض ، أريد ان أطلع على مجتمع القوم وأسمع حديثهم هل يتيسر ذلك الليلة ؟»

قال : «نعم يا سيدي نذهب بعد الغروب اذا شئت» • قال : «الى اين ؟» قال : «الى الفسطاط ،لان القوم يجتمعون في بيت هناك أعرفه ولا يمكن ان يهتدي اليه سواي ، في دار خربة لا يتوصل اليها الا من أزقة ضيقة مظلمة ، ولا بد من التنكر» •

قال : «وماذا ترى ان نفعل ؟» • قال : «ارى ان يتنكـــــر مولاي الاستاذ بلباس طبيب نصراني وأنا اكون في خدمته احمل له جـــــراب العقاقير وأقود بغلته» •

قال : «هذا هين» •

ووصلا بعد هنيهة الى منزل قراقوش فدخلا وأمر قراقوش ألا يدخل البيت احد من الناس ولو انه السلطان صلاح الدين نفسه • وأمر جوهر ان يعد ما يلزم للتنكر وسأله عن محل الاجتماع اين موقعه في الفسطاط

فقال : «قرب جامع عمرو» • وعين النقطة ، فتركه يهيىء ما يلزم وأخذ في اعداد فرقة من الجند تسبقه لتتربص في خان قرب ذلك المجتمع.ودبر الوسيلة للاحاطة بالمنزل عند ابتداء الاشارة •

أعد كل شيء قبل الغروب ولم تغب الشمس حتى كان قراقوش قد تزيى بزي اطباء النصارى ، الزنار على وسطه والعمامة على رأسه وأعدت له البغلة • ومشى جوهر في ركابه ولا يشك من يراهما انهما الطبيب وغلامه •

برحا القاهرة عند الغروب وقطعا المسافة بينها وبين الفسطاط بسرعة، ثم أطل قراقوش على الفسطاط من مرتفع فرأى آثار الحريق ما زالت ظاهرة فيها وقد خربت اكثر ابنيتها بأمر شاور منذ بضع سنين (سنة ٥٦٤ هـ) اذ خاف شاور الوزير من وصول الصليبيين اليها واستيلائهم عليها فأمر اهلها بالخروج منها الى القاهرة وألقى النار فيها وأمر بنهبها • فانتقلوا ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت أموالهم • وظل الحريق عاملا فيها ٥٤ يوما فاختلطت الازقة حتى اشتبهت على المارة • ولولا جوهر ومعرفته الشوارع جيدا لاستحال على قراقوش الوصول الى المكان المطلوب • ولكن ذلك الحبشي كان يقود البغلة ويتخطى الخرائب كأنه ماش في داره • ودليله الأظهر مئذنة جامع عمرو فانها كانت بارزة في الفسطاط دون سواها •

لم يتجاوزا جامع عمرو حتى خيم الغسق وأظلمت الدنيا وقل الناس في الشوارع • والمتأمل في الفسطاط يجد فرقا كبيرا بينها وبين القاهرة فان هذه اكثر عمارة وسكانا وأضخم خانات وأعظم آثارا • سكن الامراء فيها لانها خاصة برجال الدولة ، وأما الفسطاط فانها مقر الباعة والصناع ويكثر فيها السوقة والملاحون لقربها من النيل وقد زادها الحريق حقارة •

ولما توسط قراقوش المدينة ورأى نفسه منفردا هناك مع جوهر خطر له ان ذلك الحبشي ربما ينوي الغدر به وهو خائن لا يركن اليه فالتفت نحوه وقال : «اين نحن يا جوهر يظهر اننا قد بعدنا عن المكان الـــذي ذكرته وتجاوزنا جامع عمرو ؟»

قال : «ثق يا مولاي انني ذاهب بك الى المكان المطلوب ، وقـــد تجاوزناه الان حقيقة كما قلت ولكنني أريد ان تشرف عليه من منزل اخر بابه في شارع اخر . ألا تريد ان ترى القوم مجتمعين وتسمع ما يدور بينهم ؟ »

قال : «بلى ، ولكن تمهل قليلا» . قال ذلك وتفرس فيما يجاوره فعلم انه على مقربة من الخان الذي اوصى الجند ان يتربصوا فيـــه فقال : «اخبرلي يا جوهر اين هو البيت الذي يجتمعون فيه ؟ دلني عليه باصبعك من هنا» . فأشار هذا باصبعه قائلا : «ألا ترى هذا النور المعلق على تلك السارية» . قال : «رأيته» . قال : «أترى وراءه بيتا خربا ؟» . انهـــم يجتمعون في داخله» .

فتحول قراقوش ببغلته الى الخان فلقيه قائد الفرقة بالباب فأوصاه ان يفرق جنده حول ذلك البيت من كل ناحية بحيث لا يشعر به احد ولا يظهر احد من رجاله في الطريق ثم قال : «اذا رأيتم مصباحا يتحرك فوق احد هذه الاسطح حركة رحوية فاهجموا على هذا البيت من كل ناحية واقبضوا على من فيه» . وعاد فأدار شكيمة بغلته وجوهر يقودها حتى دخل الزقاق المطلوب ووصل الى باب فدقه وقراقوش لا يزال على البغلة ففتحت خوخته وأطل رأس الشيخ قد تدلى سالفاه على خديه وقال : «من الطارق ؟ »

فتقدم جوهر وقال : «الطبيب سمعان ، افتح» .

قال : «وماذا يريد الطبيب منا ليس عندنا احد مريض» .

قال : «لم يأت للتطبيب لكنه يريد المبيت هنا وهو من اهل القاهرة وقد جاء للسفر في النيل فوجد السفينة التي يريد السفر عليها قد اقلعت فأراد المبيت في الفسطاط الى الصباح حتى يبكر الى الشاطيء ويركب سواها . افتح يا عماه» .

قال : «لماذا لم يذهب الى الخان انه قريب من هذا المكان» .

قال : «لا يريد المبيت في الخان ، وهو لم يتعود ذلك وأنا اتيت به الى هنا خدمة لك» ، وهمس في أذنه قائلا : «يظهر انك لم تعرفني يا معلم حاييم» .

فتفرس فيه الشيخ وقال : «عرفتك يا جوهر ، عفوا اذ لم أعرفك من قبل» .

قال : «لا بأس ، وأنا جئت بهذا الطبيب ليبيت هنا وهو كريم الخلق كثير المال لا يبالي كم تأخذون منه . الاحسن ان تخلوا له البيت برمته واطلبوا عن كل حجرة منه دينارا واذا قال لكم انه يحتاج الى حجرة واحدة فقط ، قل له انك لا ترضى الا بتأجير البيت برمته» . ففرح حاييم بهذا الرأي ولم يكن في بيته كله ما يساوي الا دينارين من الاثاث . فلما قال له جوهر ذلك رفع صوته وقال : «لا نقدر ان ندخل رجلا غريبا يبيت معنا فاذا شاء الطبيب ان نؤجره البيت من بابه فعلنا».

فقال جوهر : «أجرته ؟». قال : «ان فيه خمس غرف وأجرته خمسة دنانير» .

فتظاهر جوهر انه يخادع قراقوش بالمساومة وقال : «ان خمسة دنانير كثيرة يا معلم حاييم . ألا يكفي اربعة ؟» . وضغط على اصبعه ألا يقبل .

فأجاب : «كلا اذا لم يعجبكم فهذا الخان قريب من هنا» .

فأظهر انه رضي وقال : «لا بأس ، ان مولانا الطبيب كريم . وأنتم

اين تنامون ؟»

قال : «ليس عندي الا امرأتي العجوز فنبيت عند صهرنا وهو قريب من هنا» .

فتحول جوهر الى قراقوش وقبض منه الدنانير ودفعها الى الشيخ وهو يقول له همسا : «هذه هي الدنانير ، لكن ينبغي ان تختصني منها بدينار تدفعه الي غدا صباحا ، فهمت ؟»

قال : «حسنا» . وكان ينوي ألا يدفع اليه شيئا بل اعتزم ان ينتحل حجة في الصباح يقبض بها دينارا سادسا فيدعي انهم اضاعوا شيئا من الاثاث او نحو ذلك .

ثم تحول الشيخ الى الداخل وعاد بعد قليل والمصباح بيده ومعه امرأته وهي تقول : «يظهر ان هذا الضيف عزيز عليك حتى أخرجتني من البيت لاجله» .

فقال : «كيف لا ؟» . وأشار الى بهاء الدين ان يتفضل . فتحول بهاء الدين عن بغلته فأدخلها جوهر تحت قنطرة بجوار المنزل شدها الى حلقة دقت هنالك لمثل هذه الغاية . ودخل ودفع حاييم المصباح الى جوهر وانصرف وهو يوصيه بالبيت خيرا .

* * *

دخل قراقوش البيت مع جوهر غير مبال بما يتصاعد من ممراته من الروائح القذرة ، ثم أقفلا الباب وأوصداه ، ومشى جوهر بالمصباح بين يدي قراقوش وهما يسترقان الخطى لئلا يسمع لهما صوت . ولم يمشيا طويلا حتى سمعا ضوضاء عميقة فقال جوهر : «نحن بجانب مجلس القوم ليس بيننا وبينهم الا الحائط . اصبر قليلا» .

وكان قراقوش منذ خروجه من منزله يتحفز للدفاع عن نفسه ويده على خنجره ليغمده في صدر جوهر اذا آنس منه خيانة ، فلم يلحظ منه شيئا ، فلما استمهله وقف وهو يحدق فيه فاذا هو يشير اليه ان يصعد على سلم ضيق يؤدي الى سقيفة اعلى الغرفة . فصعد معه ومن هناك اتصلا الى السطح من باب ضيق . ورأيا السماء فوق رأسيهما ونظر بهاء الدين الى ما يحيط بهما فاذا هما والاسطح حولهما . فقال جوهر بصوت ضعيف لنترك المصباح على السقيفة ونمشي في الظلام لئلا يفتضح امرنا» .

فأطاعه ومشى والضوضاء تزداد وضوحا حتى انتهى به الى حائط فقال : «هذا حائط اخر من حوائط قاعة الاجتماع» .

فرأى بهاء الدين في اعلى الحائط كوة قد انبثق النور منها فتقدم نحوها فسبقه جوهر وقال : «انظر هنا» .

فنظر فرأى قاعة غاصة بالناس قعودا على وسائد مصفوفه في الغرفة فوق بساط . وقد عات الضوضاء ووقف بالباب رجل أسنده بظهره كأنه يمنع من شاء الدخول ، فهمس في أذن بهاء الدين قائلا : «هل ترى جيدا ؟» . قال : «نعم ، لكنني لم أعرف احدا منهم غير ابي الحسن ، من هذا الجالس الى جانبه ؟» . قال : «ان الذي تراه الى يمينه عمارة بن ابي الحسن الشاعر اليمني ، والى يساره القاضي العويرس ، وبعده داعي الدعاة ، والى الجانب الاخر عبد الصمد الكاتب وآخرون . وكلهم من الشيعة كما تعلم . انظر في وسط الغرفة ماذا ترى ؟»

قال : «ارى سيفا ومصحفا أظنهم يحلفون عليهما» . قال : «نعم» .

وأخذ قراقوش يتفرس في الحضور ليعرفهم عند الحاجة . واذا هو بأبي الحسن اشار بيده يطلب الاصغاء فأنصتوا فقال : «أبشركم ايها الامراء ان اعمالنا تكللت بالنجاح وجاء وفد الافرنج في هذا الصباح

يحمل الهدايا الى ذلك الكردي ، وقد فرح بالهدية وفاته ما وراءها ، وجاءتنا كتب اصحابنا في ساحل الشام بأنهم على أهبة الرحيل عند اول اشارة فأبشروا بنيل المراد» .

فتصدى عمارة اليمني وهو شاعر مشهور ووجه نظره الى القاضي العويرس وداعي الدعاة وهما من اصحاب المناصب الرفيعة في الدولة وقال : «ان مولانا الشريف ابا الحسن اهل لما بايعناه عليه من الخلافة لنسبه الشريف ولأن مولانا الامام المرحوم قد اوصى له بولاية العهد كما سمعتم ذلك من الجليس الشريف قبل الان . فيجب ان نخلص له الطاعة لنعيد بناء هذه الدولة ورونقها ، وكانت قد فسدت بمن دخل في أمورها من الاعاجم بسوء رأي المحيطين بالخليفة السابق ، وهم الذين اشاروا عليه باستنجاد نور الدين صاحب الشام فكان ذلك سببا في صيرورة الامر الى يوسف هذا (صلاح الدين) ولكننا متى تم لنا ما دبرناه وقبضنا على أزمة الامور صرنا تتجنب هذا الخطأ في المستقبل . ولا نولي المناصب الا الذين نثق باخلاصهم وتفانيهم في الدعوة العلوية من العرب ، اننا عرب والقرآن عربي فلا ينبغي ان نشرك في امرنا غير العرب كما فعل غيرنا » .

فقال عبد الصمد الكاتب : «بارك الله فيك يا اخا اليمن ، قد مضى زمن الضعف والحمد لله . ان خليفتنا هذا (وأشار الى ابي الحسن) جمع بين الحزم والدهاء ووزيرنا هذا (وأشار الى العويرس) لا مثيل له في اصالة الرأي و ...»

فقطع كلامه رجل كان جالسا منذ ساعة لا يتكلم كأنه يفكر في امر مهم لا يلتفت الى ما يدور بينهم فلما سمع كلام عبد الصمد بشأن الوزارة رفع رأسه وقال : «ان الوزارة لم يتم الاتفاق عليها بعد . وأنا مع احترامي للقاضي الأجل لا ارى له حقا في الوزارة وانما هي لسلالة

الوزراء آل رزيك فانهم تولوها في عهد الأئمة السالفين ولهم عليها فضل فلا يليق نقلها الى سواهم» .

فتصدى رجل اخر كان نهض في اثناء ذلك وأخذ يهمس في أذن ابي الحسن وأبو الحسن يهز رأسه له هزة الرضا والاستحسان فقطع كلام الرجل قائلا : «مهلا لا تتنازعوا على منصب هو حق لنا وكان في قبضتنا بالامس» .

فضحك صاحب وزارة بني رزيك وقال : «تريد ان ترجع الوزارة لبني شاور ؟ ألم تكن هذه المصائب كلها من وزارته ؟ ألم يكن هو الذي احرق هذه المدينة بسوء تدبيره ؟» ان الوزارة لا تكون لغير آل رزيك ونحن اصحابها الاولون » .

فتكلم ابو الحسن وهو يبش ويتلطف وقال : «خففوا من غضبكم وارجعوا الى صوابكم ، لسنا الان في معرض التنازع على المناصب انما نحن في الاتحاد على اخراج هذا العدو من بلادنا ومتى اخرجناه نعمل ما يتفق عليه الرأي» .

فقال صاحب وزارة آل رزيك : «طبعا ان ابا الحسن لا يهمه البحث في المناصب الان لانه ضمن لنفسه الخلافة بسبب نسبه في العبيديين .. ولم ينازعه احد في صحة نسبه لان الجليس الشريف شهد بصحته بناء على ما سمعه من الامام المرحوم» . وضحك ضحكة استخفاف .

* * *

وكان قراقوش مصغيا لما دار وقد شاهد كل حركة ، وجوهر واقف بين يديه يتطاول ليرى ما يراه ، فاكتفى قراقوش بما سمعه وشاهده والتفت الى جوهر وقال بالاشارة : «اين المصباح ؟ الي به» .

فنزل جوهر الى السقيفة وأتى بالمصباح فتناوله قراقوش وصعد الى مرتفع وأداره بيده بحركة رحوية كما اتفق مع رجال الفرقة . ثــم نزل وأخفى المصباح وعاد الى الكوة والقوم يتحاجون ويناقشــــون . واذا بالضوضاء قد تعاظمت ولم تمض الا دقائق قليلة حتى صار رجال قراقوش داخل القاعة وأخذوا في القبض على من فيها . وليس فيهم من يستطيع دفاعا لانهم لم يكونوا قد أعدوا من وسائل الدفاع غير ألسنتهـــم وأصواتهم .

ووجه قراقوش التفاته خصوصا الى ابي الحسن فلم يجـــده بين المقبوض عليهم فظنهم اخرجوه الى خارج القاعة . ولما ايقن بفوز رجاله بالقبض على المتآمرين اشار الى جوهر بالنزول للرجوع الى القاهرة . فنزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتبعه ولم تطأ رجله السقيفة حتـــى سمع وقع أقدام مسرعة في ارض البيت فأجفل ، وتفرس قراقوش على النور الضعيف فرأى شبحا بالعمامة والجبة فلم يعرفه فقال له جوهــــر همسا : «هذا ابو الحسن هلم اليه» . فبادر الى اطفاء المصباح حتى لا يعرف مكانه وأسرع في النزول ليقبض على ابي الحسن وهو يحسبه دخل هذا المنزل بتواطؤ سابق مع صاحبه لمثل هذه الساعة على ان يبيت ليلته ثم يفر في الصباح .

نزلا الى ارض البيت وجوهر يقود قراقوش لانه يعرف مداخل المكان وأصاخا فلم يسمعا خطوا ولا صوتا كأن ذلك الشبح كان ظلا وزال ؛ فأراد قراقوش ان ينير المصباح ليرى المكان في النور فأشار الى جوهر ان يفعل واستل خنجره وتهيأ للهجوم على من يظهر امامه. ولم يكد جوهر يبدأ بالاشعال حتى سمعا صرير باب الدار فركضا اليه فوجدا البـــاب مفتوحا وليس هنالك احد فأضاءا المصباح وأخذا في البحث عن ابي الحسن في كل مكان فلم يجداه فتأكدا انه نجا ، وقال قراقوش : «هل انت متأكد

يا جوهر انه ابو الحسن ؟» . قال : «يغلب على ظني يا سيدي انه هو ومع ذلك فقد يكون سواه ، هلم بنا للبحث عنه في الاماكن المجاورة فاذا لم نجده فلعله في جملة المقبوض عليهم والا فانه قد نجا قبحه الله» .

فخرجا وركب قراقوش بغلته وأخذا في البحث عنه في تلك الدار وما يجاورها فلم يقفا له على أثر فذهبا الى القاهرة وبهاء الدين يخاف ان يكون ابو الحسن قد نجا وكان خوفه في محله .

اما سائر المقبوض عليهم من المتآمرين فحكم عليهم بالصلب وفي مقدمتهم عمارة اليمني المتقدم ذكره فصلبوه في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ. وارتاح بال صلاح الدين من هؤلاء لكنه ما زال يفكر في ابي الحسن سبب تلك الدسائس .

اما سيدة الملك فانها في اليوم التالي للقبض على المتآمرين كانت ياقوتة بالبحث عما تم. فلما أنبأتها بالقبض عليهم فرحت لكن ساءها فرار ابي الحسن وهو مصدر متاعبها . وتعلم انه لا يبالي ماذا يفعل في سبيل غرضه ، لا يرعى ذمة ولا يتجنب حراما . فنظرت الى ياقوتة قائلة : «ان صلاح الدين قد فاز بما يريد» .

فقالت ياقوتة : «ان نجاة ذلك الخائن كدرتني كثيرا ولكن ما العمل. لا بد ان يرجع كيده في نحره لان الله غريمه . ولم يعد يهمنا امره ونحن في حياطة صلاح الدين . والآن جئتك بشيء يعزيك على هذه المصيبة».

فبغتت سيدة الملك وقد اصبحت تبغت لكل جديد تتوقعه لفرط قلقها على عماد الدين فقالت : «ما وراءك ؟» . فضحكت وقالت : «اني عاتبة عليك بالنيابة عن عماد الدين ، كيف تعلمين بمجيء رسول من عنده رآه قبل سفره وخاطبه وعلمنا من كتابه انه سجين ولا تسألين عن ذلك الرسول الكي تستزيديه ايضاحا او تحمليه رسالة ؟» . فتنهدت سيدة الملك وقالت : «آه يا ياقوتة قد اقلقتك بكثرة الاسئلة ، هل تتوهمين اني

غفلت عن هذا الفكر ؟• ان رسول عماد الدين يؤنسني اذا رأيته ، وكنت عازمة على استدعائه اين هو ؟» • قالت : «اخبرني بهاء الدين الان ان ذلك الرسول يطلب ان يراك وان عماد الدين كلفه بذلك» •

فتوردت وجنتاها وقد اخذها الفرح ولم تتمالك ان صاحت : «عماد الدين كلفه ان يراني ؟! الحمد لله انه يفكر في ، هو اذن يحبني !» • ثم تراجعت وقد ندمت على تلك اللهفة وخجلت وآدارت وجهها الى حائط عليه ستارة موشاة بالالوان الجميلة تشاغلت بالنظر اليها •

فقالت ياقوتة بصوت ضعيف : «يالله من الحب ! كيف يجعل سيدة الملك سلالة الخلفاء ونزيلة السلاطين يستخفها الفرج اذا سأل عنها شاب من ••»

فقطعت سيدة الملك كلامها قائلة : «لا تقولي شيئا عن عماد الدين انه عندي فوق الخلفاء والسلاطين ، صدقت ان الحب يفعل كثيرا •• والآن اين ذلك الرسول دعيه يدخل» •

فخرجت ياقوتة وعادت بعد قليل ومعها شاب في زي اهل بيت المقدس الذي يلبسونه في الاسفار • حول رأسه الكوفية كالخمار وقد ارتدى السروال القصير وحول خصره منطقة عريضة من الجلد غرس في مقدمتها خنجرا صغيرا ولف حول ساقيه لفافة من النسيج تسهل عليه المشي السريع •

فلما دخل وقف متهيبا متأدبا فأرسلت سيدة الملك خمارها ورحبت به قائلة : «ما اسمك يا غلام ؟» • قال : «اسمي جرجس» • قالت : «انت مسيحي اذن ؟» • قال : «نعم يا سيدتي» • قالت : «من اين انت آت ؟» قال : «جئت من بيت المقدس برسالة الى السلطان صلاح الدين وقد أديتها بالامس ، ولكن صاحب تلك الرسالة أسر الي امرا خاصا كلفني به يتعلق بسيدة الملك» •

قالت : «وما هو ذلك الامر ؟ انت بين يدي سيدة الملك الان» .

فأطرق احتراما وقال : «أيتكما هي ؟»

فتقدمت ياقوتة وقالت وهي تشير الى سيدتها : «هذه مولاتنا سيدة الملك قل ما عندك . وأرجو ان تكون صادقا فيما تقول» .

قال : «وما الذي يحملني على الوقوف بين يديها ان لم اكن صادقا في مهمتي خصوصا ان الامر الذي جئت به سر لم يطلع عليه احد سواي» .

قالت ياقوتة : «صدقت يا شاب بارك الله فيك» . ورأت ان تتولى هي السؤال عن عماد الدين فقالت : «كيف فارقت عماد الدين ؟» . قال: «لم يبق اسمه عماد الدين يا سيدتي بل هو يسمى عبد الجبار» . قالت: «ونعم الاسم . كيف عرفته ؟ ومن عهد اليك في هذه المهمة ؟»

قال : «عرفته في أحرج المواقف وما لبثت ان تعشقت اخلاقه وصرت أفديه بروحي ، انه شاب نادر المثال بالمروءة والحمية» .

ولما سمعت سيدة الملك اطراءه أشرق وجهها وخفق قلبها وتطاولت لتسمع بقية الحديث . اما ياقوتة فأجابته وهي تظهر السذاجة قائلة : «امر غريب يظهر انك عاشق له ، قل كيف وقع ذلك ، وما هي المهمة التي جئت بها ؟» . فقال : «كان عماد الدين مارا ببيت المقدس في طريقه الى نواحي حلب في امر لا أعلمه ، فقبض عليه الافرنج خداعا وسجنوه . وكنت انا مسجونا مثله فتعارفنا في السجن فرأيت فيه اخلاق الملوك ، وتجاذب قلبانا فأحببته وأخلص لي وتكاشفنا في أمور كثيرة ، فلم يذكر لي شيئا يتعلق بسيدة الملك ، ثم أتيح لي الخروج من السجن وتقربت من صاحب بيت المقدس الافرنجي وأصبح همي انقاذ صديقي من السجن فلم يسعدني الحظ بعد . لكنني كنت أتردد عليه دائما وأتفقده بما يخفف عنه . وسمعنا في اثناء ذلك بما حدث هنا من موت الامام رحمه الله وتغيير الاحوال وانزال اهل الخليفة في هذا القصر بالاكرام ، وكنت أقص عليه

كل ما أعلمه وفي جملة ذلك المؤامرة التي تعلمينها ، وقد بعثني صاحب بيت المقدس دليلا للوفد الذي جاء لتقديم الهدايا ، وجئت لوداع صديقي فكلفني بايصال كتاب الى السلطان صلاح الدين • ثم أسر الي ان ابحث عن سيدة الملك وأطمئنه عن حالها ، وها اني بين يديها» •

فقالت ياقوتة : «وما الذي اطلعك عليه من علاقته بها ؟»

قال : «لم يذكر لي تفصيلا كثيرا لان الوقت لم يأذن بالتطويل • ولكنني فهمت من عرض الحديث انه يجل سيدة الملك كثيرا • وقد خطر له انكم لا تصدقون قولي فدفع الي هذه الجوهرة على سبيل الامارة» • ومد يده الى جيب في منطقته واستخرج جوهرة دفعها الى ياقوتة فتفرست فيها واقتربت من سيدة الملك فحالما رأتها قالت همسا : «هذه احدى جواهر العقد الذي اعطيناه اياه تلك الليلة» • والتفتت الى الشاب وقالت: «صدقت ، قد تأكدنا الان انك رسول منه • كيف هو ومتى يخرج من السجن ، واذا خرج ألا يأتي الى هنا ؟» • قال : «سيخرج قريبا ان شاء الله وهو في خير ، واذا خرج فلا أظنه يأتي توا الى هنا ، لان لديه مهمة لا اعرفها • وقد كلفني ان اقول لك انه سيعود الى هنا متى فرغ منها» •

فانقبضت نفسها وأطرقت ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «اذن هو في خير وهذا يكفي • واذا دفعنا اليك أمانة هل توصلها اليه ؟»

فوضع يده على رأسه وقال : «كيف لا يا سيدتي اني أتمنى اي خدمه أؤديها له» •

فأشارت الى ياقوتة فدنت منها فأمرتها ان تستخرج بعض الجواهر تبعث بها اليه وأن تكتب اليه كتابا تؤكد له فيه بقاءها على حبه وانها تتوقع رجوعه بفارغ الصبر •

ففعلت ووضعت الجواهر والكتاب في كيس خاطته ودفعته الى الرسول ، ودفعت اليه صرة فيها خمسون دينارا وقالت : «هذه اجر

الطريق» . فأخذها وشكر وانصرف ، وظلت سيدة الملك برهة بعد ذهابه وهي تخاطب ياقوته في شأن عماد الدين وياقوتة تصبرها .

- ٨ -

السلطان نور الدين

وكان ابو الحسن قد نجا تلك الليلة من القبض عليه لانه كان لفرط دهائه وحذره يحتاط لكل شيء . وكان قد أعد منفذا من قاعة الاجتماع الى بيت ذلك اليهودي حتى اذا داهمهم مداهم فر من هناك لا يبالي بما يصيب رفاقه .

قضى بضعة ايام مختبئا في بعض المنازل حتى علم ما كان من عاقبة رفاقه المتآمرين وكيف قضي عليهم بالصلب فيئس من مصر ورجالها . ولكن مطامعه ما زالت تريه المحال ممكنا — والمرء اذا رغب في شيء وان كان بعيدا فان رغبته فيه تريه اياه قريبا — فأعمل فكرته في سبيل اخر يسعى فيه للانتقام من سيدة الملك . وقد علم في اثناء تربصه انها هي التي استعانت بخادمه جوهر على كشف امرهم ، فازداد حنقا عليها ، وخطر له بعد التفكير ان يستعين بالسلطان نور الدين صاحب الشام . يحمل اليه اسرارا هو مطلع عليها تتعلق برغبة صلاح الدين في الاستقلال بمصر وما صرح به ضد نور الدين . فيشي به الى نور الدين لكي يحمله على محاربته واخراجه من مصر عنوة . وان يشهد هو ذلك الفتح فيجعل غنيمته منه سيدة الملك واستسهل كل صعب في هذا السبيل ورآه قريب

المنـــال .

فلما اقتنع بصحة رأيه احتال في الفرار من مصر طالبا دمشق الشام، وواصل المسير وجد فيه ، فوصل الى دمشق متنكرا بثوب تاجر مصري، ونزل في احد خاناتها على مقربة من القلعة وهي يومئذ مقر السلطـــان نور الدين . ودمشق زاهية بذلك السلطان العظيم وأهلها فرحون بما ناله من الانتصارات المتوالية على الافرنج في مواضع مختلفة من بـــلاد الشام . لكنه لم يكد يستقر به الجلوس في الخان حتى سمع لغط القوم بانحراف صحة السلطان منذ ايام وقلق الناس على حياته لانـــه أصيب بالخوانيق . فأخذ ابو الحسن يفكر في وسيلة يتصل بها الى مجالسته والمداولة معه في امر مصر .

وسأل عن طبيبه الخاص فعلم انه الرحبـــي وهو من حذاق الاطباء وكانت له به معرفة . فسار اليه فوجده في منزله فاستقبله الطبيب احسن استقبال ، وكان قد لقيه بمصر وعرف منزلته من الخليفة العاضد ، فسأله ابو الحسن عن حال السلطان فقال : «انه مصاب بالخوانيق ، وقد اشتد عليه المرض لانه ابى الفصد» . فأظهر اسفه وقال : «ألا يتيسر لي ملاقاته لعلي أقنعه بالفصد . ولي معه حديث اذا اطلعته عليه سرى عنه» .

فرأى الطبيب ان يستعين به على ذلك وهو مطلع على قلق السلطان نور الدين من جهة مصر ، فظنه يرغب في استقبال ابي الحسن لعلـــه يستطلع منه امرا جديداً فيأذن في مقابلته ولو كان مريضا ، فاستمهلـــه الطبيب الى صباح اليوم التالي .

وجاء الرحبي في الصباح فقال له : «ان مولانا السلطان احسن حالا الان وقد ذكرتك له فأحب ان يراك» .

ففرح ابو الحسن بذلك ، وركب مع الطبيب الى القلعة . وكـــان السلطان مقيما في غرفة من غرفها اصابه المرض وهو فيها فبقي هناك .

فدخل الطبيب اولا واستأذن لابي الحسن ، فأذن له ، ودخل وهو يتلطف في التحية والاحترام . وكان قد عرف السلطان من قبل واجتمع به غير مرة وعهده به قوي البنية مشرق الوجه فرآه قد تغيرت حاله . وكان السلطان نور الدين اسمر طويل القامة ليس له لحية الا تحت فمه ، وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين ولكن المرض ذهب بلمعانهما ، وقد امتقع لونه ، فلما رأى ابا الحسن داخلا ابتسم على عادته في المجاملة . فأكب ابو الحسن على يده كأنه يريد تقبيلها ، فامتنع نور الدين عن ذلك وأشار اليه ان يقعد . ولم يكن في تلك الغرفة شيء من الرياش لانها ليست القاعة التي يقابل الناس فيها وانما اتفق وجوده هناك عند الاصابة .

جلس ابو الحسن على وسادة وقال : «كيف مولانا اليوم ارجو ان يكون في صحة لان سلامته سلامة الدولة وفي شفائه شفاء الاسلام . وأرجو الا اكون قد اثقلت عليه بقدومي» .

فقال نور الدين وصوته ضعيف من الخوانيق : «الحمد لله على كل حال وأما قدومك فقد سرني لعلمي انك قادم من مصر وفيها حبيبنا ووزيرنا الملك الناصر كيف فارقته ؟»

فلما سمعه يلقب صلاح الدين بالحبيب تشاءم ، لكنه عزم على المراوغة فقال : «هو في خير بظل مولانا السلطان الملك العادل» .

قال : «كيف فارقت مصر ؟» . قال : «فارقتها وأهلها يتشوقون الى طلعة مولانا السلطان أعزه الله ويتمنون انه لو شرفهم بالزيارة ليرى مملكته الجديدة» .

فأشرق وجه نور الدين وسره ان يسمع ذلك من امير مصري كان من المقربين للدولة الماضية فقال : «ولكن بلغنا ان بعضهم تآمروا على خلع الطاعة ، فهل ذلك صحيح ؟»

. فقال : «نعم يا سيدي انهم تآمروا ولكن ليس على خلع طاعة السلطان نور الدين» .

قال : «وكيف اذن ؟» . وبدت البغتة في عينيه ونسي مرضه وأخذ يعبث بجانب لحيته وتفرس في عيني ابي الحسن ليرى ما يبدو منه .

فقال ابو الحسن : «ان اهل مصر من اقرب الناس الى الطاعة ولكن» . وبلع ريقه وتنحنح وأظهر انه يكتم امرا لا يحب التصريح به .

فقال نور الدين : «ما بالك ؟ . ولكن ماذا ؟»

قال : «لا احب ان ازعج سيدي السلطان بأمور لا أظنها تسره» .

فبدا الغضب في وجه نور الدين وقال : «قل . تآمروا على خلع من؟»

قال : «انهم تآمروا على خلع السلطان صلاح الدين» .

قال : «أليست طاعته طاعتي ؟»

قال : «بلى ، هكذا يجب ان يكون ولو طلب طاعتنا باسم السلطان نور الدين لما وجد مخالفا» .

قال : «وكيف طلبها اذن ؟» . قال : «يظهر ان اصحاب البريد يخفون الحقيقة عن مولانا السلطان فاذا أذن لي تكلمت» . قال : «قل . قد أذنت لك» .

فالتفت ابو الحسن الى الطبيب كأنه يستشيره في هل يضر الغضب صحة السلطان . فتقدم الطبيب الى السلطان وقال : «ارى مولانا السلطان قد بان الغضب في وجهه وهو مريض ، ألا يؤجل هذا الحديث الى وقت اخر ؟» . فقال : «كلا ، اني في خير ، فليقل ما يشاء» .

فاعتدل ابو الحسن في مجلسه وقال : «ان وزيرك صلاح الدين لم يطلب طاعة المصريين باسمك ، ولكنه طلبها باسمه وزعم انه هو صاحب الامر وليس للسلطان نور الدين شيء منه ، وقد قاومناه وتآمرنا عليه لاننا لا نريد ان نعرف غير مولانا نور الدين سلطانا . وأنا أستغرب كيف

لم يبلغ ذلك مولانا السلطان ، وقد صرح به صلاح الدين في جلسة علنية . حتى ان أباه نجم الدين انتهره وأمره بالكتمان ؟» . قال ذلك وسكت .

وكان نور الدين حسن الفراسة فأطرق هنيهة يفكر فيما سمعا وهو يعبث بلحيته فلم تعجبه تلك الوشاية من عدو طبيعي لهما ، ولاسيما بعد ان سمع اعترافه بأنه كان من المتآمرين على صلاح الدين وأدرك انه لو كان صادقا في طاعته لم يكن ليساعد على خلع الطاعة بتلك الصورة بل كان عليه ان ينقل خبر صلاح الدين اليه . فترجح لديه كذبه فقال : «وماذا ترى الان ؟» . قال : «ارى ألا يستخف مولانا السلطان العادل بمطامع وزيره فانه قد جاهر باستقلاله بمصر قبل موت الامام العاضد فكيف به الان ؟ فما على السلطان الا ان يخضعه وأنا في خدمته أفديه بدمي » .

فحملق السلطان فيه بعينيه السوداوين ، وكاد الشرر يتطاير منهما لشدة الغضب وقال : «لو كنت صادقا في نصحك لحملت الينا هذه الوشاية من قبل . فصبرك عليها حتى الان حجة عليك وعلى اصحابك المتآمرين . انما انتم تآمرتم على خلع طاعة نور الدين ، بل اردتم نقض بيعة الامام العباسي لانه سني ، وطمعتم في استرجاع السيادة لانفسكم!»

وكان يتكلم وهو مستلق ، وأخذ يرتعد من الغضب فاعتدل يريد الجلوس فأعانه الطبيب على ذلك وندم على الاذن له في الكلام . فأخذ ابو الحسن يتنصل من تلك التهمة وقال : «لم أحسن التعبير عن مرادي يا سيدي . اني أصدقك الخبر . ان ما قلته هو الصحيح . نحن طائعون للسلطان نور الدين و ..»

قال : «لو كنتم صادقين لأطعتم وزيري ونائبي صلاح الدين ، لكنكم تعودتم التملق والتذبذب ، ما الذي اساءكم به صلاح الدين ؟ ألم ترساوا

الينا شعور نسائكم تستغيثون بنا فأنفذنا اليكم عمه شيركويه وقـــد انقذكم ؟ وهذا صلاح الدين اخمد العصيان وأصلح البلاد وأبطـــل الضرائب • فكان ينبغي ان تعرفوا فضله • ولكن قوما يبلغ بهم الذل ان يستشفعوا بشعور نسائهم لا يرجى منهم وفاء ، ما زلت أذكر سوء وقع ذلك في مجلسنا يوم اتتنا تلك الشعور في المناديل وقد عقد المجلس للنظر في طلب امامكم ، وكان بين الغلمان شاب صغير لم يملك حين رأى تلك الشعور ان تقدم الي لكي اعطيه خصلة منها حمراء ذهبية ، وكان مقربا من صلاح الدين فدفعتها اليه لأرى ما يبدو منه • فلما تفرس فيها قال: ان صاحبة هذا الشعر الجميل لا تمتهن وهي اما بنت الخليفة او اخته فاني معيده اليها • فأذنت له بالخصلة فأخذها في منديلها ولا ادري اذا كان قد وفق الى ما اراد ، فكيف ترجو ان أتوقع منكم وفاء وقد جئتني الان تريد الايقاع بيني وبين نائبي ؟• هب انه اراد الاستقلال بمصر فليأخذها هو فان البيعة واحدة ولا ترجع لكم» • ولما بلغ الى هنا بان التعب عليه وحول وجهه عن ابي الحسن باحتقار ، وأدار له ظهره وعاد الى الرقاد وهو يلهث من التعب •

اما ابو الحسن فجمد الدم في عروقه من الفشل وأحس كأنما صب عليه ماء بارد • وأخذ يرتعد وقد وقع خبر خصلة الشعر عليه وقـــوع الصاعقة لعلمه انها من شعر سيدة الملك • فأشار اليه الطبيب ان يخرج حالا لان السلطان أصابته لكسة بسبب الغضب • فخاف ابو الحسن ان يأمر السلطان بالقبض عليه فخرج مسرعا واختفى في مكان لا يعرفه فيه احد ريثما يرى ما يكون •

وفي الصباح التالي طاف المنادون في المدينة ينعون السلطان نور الدين (توفي في ١١ شوال سنة ٥٦٩) وتناقل الناس عن سبب وفاته بعد ان تحسنت صحته انه غضب من بعض الناس فأصابته نوبة ذهبت بحياته •

فأسقط في يد ابي الحسن وعمد الى الفرار وقد تولاه اليأس وأظلمت الدنيا في عينيه .

خرج من دمشق وهو يرغي ويزبد من شدة الغضب والخادم في ركابه لا يجسر على النظر اليه . حتى اذا مر بالغوطة وصل الى عين ماء جارية يظللها ويحيط بها اشجار التفاح والسفرجل والمشمش وسائر انواع الفاكهة وقد دخل الربيع وتفتحت الازهار وتغنت الاطيار . والطبيعة باسمة ضاحكة ، ولكن ابا الحسن ، لم يكن يرى شيئا غير الفشل نصب عينيه . وانما نبهته البغلة الى الوقوف هناك لانها رأت الماء جاريا فهاجها العطش فمالت الى قناة الماء لتشرب . فانتبه ابو الحسن وقد صارت الشمس في الضحى وهو في الخلاء لا رقيب عليه . فلاح له ان ينزل هناك ليستريح فترجل وسلم البغلة الى الخادم يهتم بأمرها . وتغلغل بين الاشجار على غفلة من خدم البستان لانهم لا يتوقعون نزول الناس هناك في مثل تلك الساعة .

اما ابو الحسن فلما خلا بنفسه قعد الى جذع شجرة مشمش تدلت اغصانها تحمل نوعا من المشمش يفاخر به اهل الشام سائر المشرق ويعرف الان بالمشمش الحموي ينضج في ابان الربيع ، والناس يقصدون الغوطة للتمتع بمنظره وطعمه .

على انه لم يخطر ببال ابي الحسن شيء من ذلك ، لكن اشراق الطبيعة أذكره ماضيه وأوضح له ما هو فيه فازداد انقباضا . ومكث برهة يفكر وهو في غفلة عن زقزقة العصافير وتطايرها ومداعباتها ، وليس فيها من يخاف الفشل لانها لا تطلب من الطبيعة غير ضروريات البقاء وهي ميسورة . أما الانسان فمن مطالبه ما لا ينال الا بالجهد والعناء وهو لا يبالي ان يرتكب في سبيل نيله انواع المحرمات .

وبعد السكوت مدة نبهته حشرة السابت بجانبه بين العشب فالتفت

الى ما يحدق به من جمال الطبيعة وبهائها فاتضحت له الظلمة التي هو غارق فيها . ومر تاريخ حياته في خاطره مرور السهـــــم فلم يزدد الا انقباضا ، وتبين ان سبب هذا الشقاء انما هو رفض سيدة الملك لـــه فاشتدت نقمته عليها واغتنم غياب خادمه وأخذ يحدث نفسه قائلا : «ويل لتلك اللعينة !. تفضل ذلك الغلام علي ؟ اما كان الافضل لها ان يكون ابو الحسن زوجها ويبقى هذا الملك لنا . كنت قادرا ان أقتل صلاح الدين ولم أفعل لاني اريد ان أستثمر تعبي لنفسي لا ان يستغله سواي . علمت انها تشك في صحة نسبي ولا تعتقد اني من بني عبيد الله . نعم لست منهم ، ولكن شرف النسب ليس سوى وهم . انما الرجال بالاعمال وقد انتحلت ذلك النسب لان الناس يحترمونه . وظننته يكون وسيلة اليها والى الملك فلما اوشكت ان اصل الى الغرض عرقلت مساعي بغطرستها وتعلقها بذلك الخادم !»

ثم اجفل لسقوط مشمشة وقعت على الحشيش اليابس فاحدثت حفيفا فتحولت افكاره الى مجرى اخر فتذكر صباه فقال : «وانت يا راشد الدين قد آن الوقت لاستعين بك على هذه الفاجرة ، لا لاتزوجها بل لاذيقها العذاب ثم اريها رأي العين سوء تصرفها فتندم حين لا ينفعها الندم» . وكانه عزم على امر توسم النجاح فيه فارتاح باله وانقشعت عنه السويداء، وقد أحس بالجوع فالتفت الى ما حوله فلم يجد احدا فصفق الخادم وناداه فأتى فأوعز اليه ان يأمر البستاني ان يهيىء له طعاما وفاكهة ، وبعد ان اكلا عاد الى تدبير ما عزم عليه .

* * *

علمت من سياق الحديث ان عماد الدين لاقى في سفره عذابا ؛ اذ قبض عليه الافرنج بقرب بيت المقدس لاعتقادهم انه جاسوس وسجنوه

مدة تعرف في اثنائها الى جرجس كما تقدم . ولم يكن جرجس مسيحيا كما قال وانما هو من كبار الفدائيين الاسماعيليين واسمه الحقيقي عبد الرحيم بعثه راشد الدين لقتل اموري الافرنجي صاحب بيت المقدس. فتنكر باسم جرجس واحتال حتى جعلهم يقبضون عليه ويسجنونه ليتمكن في اثناء سجنه من التعرف الى صغار اهل البلاط ويطلع على خفايا القصر بحيث يسهل عليه الوصول الى غرضه . وعدة اولئك الفدائيين في تنفيذ امر مولاهم راشد الدين ان احدهم اذا كلف بقتل احد الملوك جعل نفسه من اصغر خدمه . والغالب ان يجعل نفسه سائسا لجواده ليتيسر له الاقتراب منه عند الركوب والنزول فيغتنم غفلة منه ويغرس في قلبه خنجره .

ففي اثناء اقامة عبد الرحيم (او جرجس) هذا في السجن تعرف الى عماد الدين وأحبه وتمكنت العلائق بينهما فكاشفه عبد الرحيم بحقيقته وكيف انه مسلم وانه احتال بالسجن ليتوصل الى غرضه ويقتل صاحب بيت المقدس باشارة مولاه راشد الدين ، وأخذ يرغبه في هذه الطائفة وقبالة مقاصدها وشدة تأثيرها ، فحمد عماد الدين السبب الذي جره الى ذلك السجن لانه كان وسيلة الى هذا التعارف وسهل عليه مهمته . فأظهر ارتياحه لذلك الرأي ووعده بأن ينتظم في سلك الاسماعيلية بعد خروجه من السجن ، وهو يضمر ان يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التي جاء من اجلها لقتل راشد الدين . وبذل جهده في اكتساب ثقة عبدالرحيم وأطاعه في تغيير اسمه فجعله عبد الجبار .

ولما كانت ايام السجن طويلة لانها خالية من العمل فيمل المسجونون الفراغ ويضطرون لقضاء الوقت بالاحاديث او الالعاب فقد اخذ عبدالرحيم يقضي معظم الوقت في التحدث عن راشد الدين وكراماته ومقدرته وكيف انه يعلم الغيب ويتنبأ عن المستقبل ويحدث الاحجار ويأتي

بالمعجزات . واله يفعل ذلك لا لطمع في الدنيا وانما هو ينصر الاسلام . واستشهد على صحة قوله بالمهمة التي اتى فيها لقتل صاحب بيت المقدس. وكان كلما ذكر راشد الدين ثارت الحمية فيه وهاجت عواطفه وأصبح كله ألسنة تنطق بفضائله . فكان لاقواله مع التكرار تأثير في عماد الدين فأصبح يرى وجود راشد الدين قوة عظيمة يمكن الاستعانة بها على الافرنج اذا تمكن من اكتساب صداقته . على ان ما سمعه من معجزات ذلك الرجل وكراماته وعن جنته وسمائه حبب اليه الاطلاع على حقيقة ذلك .

تمكنت هذه الصحبة بينهما ، ثم انتهت ايام عبد الرحيم في السجن وخرج وأهل البلاط يحبونه ويرون في وجوده نفعا لهم لانه مسيحي يعرف لغة البلاد وعاداتها . فقربوه وهو يبذل جهده في مرضاتهم توصلا لغرضه ، فلما دارت المخابرة بين الحزب العبيدي في القاهرة وبين الافرنج وانتهت بارسال الوفد اختاروه ليكون دليلا . فذهب لوداع عماد الدين، وعهد اليه هذا فيما تقدم ذكره ، فبذل جهده في خدمة صديقه رغبة في ادخاله سلك الاسماعيلية لانه آنس فيه من الشجاعة والذكاء ما يندر مثاله وهم في حاجة الى الشجعان .

فلما عاد من تلك المهمة توسط في اخراج عماد الدين من السجن ، وأبلغه ثمرة كتابه الى صلاح الدين وكيف اله قبض على المتآمرين وقتلهم صلبا الا أبا الحسن فانه نجا . ثم دفع اليه كتابا من صلاح الدين يثني فيه على حميته ، وصدق مودته .

ثم أطلعه على ما عرفه عن سيدة الملك ودفع اليه كتاب ياقوتة والجواهر ، فتناولها وأعطى جانبا منها الى صديقه عبد الرحيم فازداد تعلقا به — وليس من شيء كالسخاء يحبب صاحبه الى الناس مهما يكن فيه من العيوب . حتى جرى على ألسنة العامة قولهم «ما من عيب الا

والكرم غطاه» . فكيف اذا كان الكريم قليل العيوب او لا عيب فيه ، ولو علم الاغنياء ما يغطيه الكرم من عيوبهم لكرهوا البخل وبعدوا عنه ، وكما يذهب الكرم بعيوب الاغنياء فالبخل يلصق بهم عيوبا ليست فيهم .

وأسرع عماد الدين الى كتاب ياقوتة فقرأ فيه قولها :

«سلام عليك يا عماد الدين . جاءنا صديقك وسرنا انك في عافية ، ولكن ساءنا ما اصابك في السجن . على ان ما عرفناه من حب هـذا الصديق لك وما يظهر فيه من المروءة والشهامة طمأننا عليك . اننا نقيم الان في دار الاضياف في رعاية صلاح الدين . انه شهم وقد أكرمنا غاية الاكرام . ويسرني ان أخبرك بأنه جعل مولاتي سيدة الملك اختا له وهو يعاملها معاملة الاخت من كل وجه . وجاء ذكرك مرة امامه فأكثر من الثناء عليك وصرح بما يرجوه لك من المستقبل السعيد . انما ساء سيدتي انك في السجن على ان صديقك جرجس بشرنا بقرب خروجك منه سالما معافى ولكن عظم عينا انك ستبطىء في المجيء الينا . عجل ولا تقطع اخبارك وعليك السلام» .

فلما قرأ الكتاب أحس بشيء جديد لم يشعر به من قبل . وقد كان الى تلك الساعة مضطرب الافكار من جهة سيدة الملـك لعلمه ان صلاح الدين خطبها لنفسه . ورأى من الجهة الثانية ما اظهرته من الميل اليه حتى اوشكت ان تقول له صريحا انها عاشقة له تتفانى في حبه . فوقع في حيرة وانما شغل عن ذلك بالاسفار وملاقاة الاخطار ليرى ما تأتي به الاقدار . فلما اطلع على كتاب ياقوتة وعلم ان صلاح الدين لا يريـد الزواج بسيدة الملك ورأى عطفها عليه في ذلك الكتاب مع اختصاره ، أحس انها له وحده واضطرمت نيران الحب في قلبه مرة واحدة ، كأن لواعج تلك المدة كلها اجتمعت في ذلك اليوم ، فأصبحت صورة سيدة الملك نصب عينيه أينما توجه ، وتذكر منظرها في تلك الليلة وهي واقفة

تودعه وتتعجل نزوله في السرداب • ولم يكن يومئذ يشعر بشيء من تلك العواطف • كما تذكر خصلة الشعر الحمراء وكيف تجاسر على طلبها من نور الدين ، وكيف أذن له نور الدين في ان يأخذها • ثم كيف وفق للاجتماع بصاحبتها وهي في أشد الخطر فأنقذها ودفع اليها الخصلة • مر ذلك كله بذهنه في لحظة فتحقق ان المقادير أعدت له هذه النعمة فاذا وفق الى اتمام مهمته بلغ أوج السعادة • فبدأ يشعر بالسعادة من ذلك الحين!

لقد اختلف الناس في تعريف السعادة فجعلها بعضهم في المال ، وآخرون في الشهرة ، وآخرون في الصحة ، وذهبوا فيها مذاهب شتى• لكن المحبين يعلمون ان السعادة في تبادل المحبة بين حبيبين يرجوان ويخافان ، يلتقيان ويفترقان ، وهما ــ في كل حال ــ في سعادة الاجتماع اما بالفعل واما بالامل • سواء أرافقهما الغنى ام الفقر ، والشهرة ام الضعة • انهما سعيدان في كل حال !

شعر عماد الدين بعد تلاوة الكتاب بما لم يشعر به قبل • وأصبح شديد الرغبة في سرعة الرجوع الى القاهرة • وكان عبد الرحيم خلال ذلك واقفا يراقب حركات صديقه مخافة ان يكون في ذلك الكتاب ما يبعثه على تغيير خطته وهو يحب ان يدخله في طغمة الاسماعيلية • وانتبه عماد الدين لنفسه فرأى صديقه قاعدا بجانبه فقال له : «اني اشكرك ايها الصديق على هذه الخدمة الثمينة جزاك الله خيرا» •

قال : «هذا واجب أديته لا فضل لي به ، وهل اذا أتيح لك ان تخدمني مثل هذه الخدمة تتأخر ؟»

فثارت النخوة في رأس عماد الدين وقال : «افديك بروحي» • ولم يقل ذلك حتى أحس بشيء في داخله يعترض ذلك القول لانه شعر من تلك الساعة ان روحه ليست له ، وأنه يود البقاء ليرجع الى حبيبته ويتمتع باللقاء •

اما عبد الرحيم فأعجبه ذلك التعبير منه وقال : «سترى من هو أولى مني بالفداء . ان الشيخ راشد الدين امامنا ومولانا نفديه كلنا بأرواحنا. وستذوق هذه اللذة متى صرت واحداً منا . هل انت عازم على الدخول معنا في هذا الامر ؟ ام غيرك هذا الكتاب ؟» . وضحك .

قال : «لم يغيرني شيء لكن ما هو السبيل الى ذلك ، كيف اذهب والى اين وما هي الطريقة ؟ ارجو ان تساعدني وترشدني» .

فرح عبد الرحيم وقال : «اني طوع ارادتك . سأعطيك كتاب توصية الى الشيخ دبوس نائب مولانا الشيخ الاكبر وهو يقيم معه في قلعـــة مصياف من جبل السماق من أعمال حلب ثم ألحق بك بنفسي . يمكنك السفر اليوم . هل تعرف الطريق ؟»

قال : «أعرفها جيدا لاني ربيت في هذه البلاد» .

فأخذ عبد الرحيم ورقا وكتب توصية الى الشيخ دبوس نائب شيخ الجبل ، فتناولها عماد الدين وودعه وركب جواده قاصدا جبل السماق. وهو جبل عظيم من اعمال حلب يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع كلها للاسماعيلية ، وفيه بساتين ومزارع ، لكن المياه الجارية فيها قليلة الا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع خاصة ومع ذلك تنبت فيــه جميع اشجار الفواكه وغيرها حتى المشمش والقطن والسمسم .

وقد اشتهر جبل السماق بالقلاع التي فيه لطائفة الاسماعيلية وهي عديدة اشهرها مصياف وكهف والخوابي وعليقة ومرقب والرصافـــة وغيرها ، ويهمنا هنا مصياف وفيها يقيم زعيم الاسماعيلية راشد الدين وهي على مسافة ١٢ ساعة غرب حماة .

* * *

وقد اشتهرت هذه القلعة في زمن الاسماعيلية باقامة شيخ هـــذه الطائفة فيها وهي واقعة على جبل مصياف ، وهو جبل شامخ يحيط به من الشرق والغرب مستنقعات واسعة ، وينتهي من الشمال بقمة عالية فوقها قلعة منيعة هي مقر شيخ الاسماعيلية ۰ ومن اسباب مناعتها انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها ۰ وتشرف على ما يحيط بها مـــن المستنقعات من كل ناحية ومن جملة ذلك واد يقيم فيه بعض الفلاحين يزرعون الحنطة والشعير ۰ وعلى مسافة من الجبل بلدة مصياف يسكنها طائفة من العامة ۰

اما القلعة فانها محاطة بسور سميك ليس له الا باب سقفه عقد متين اذا دخل الرجل منه سار في ممر كله معقود يصل من الداخل الى قمـــة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف وكلها مبنية من الحجر الصلد ۰ وعلى السور أبراج متلاصقة تقيم بها الحامية ترمي الهاجمين عليها بالسهام او الحجارة قبل وصولهم الى الباب بمسافة بعيدة بحيث يستحيل اخذها بالهجوم الا بعد قتل المئات والالوف ۰

برح عماد الدين بيت المقدس على جواده ، وكان يعرف عدة طرق الى جبل السماق لكنه احب ان يمر بدمشق مرتع صباه وقد اشتاقت نفسه الى رؤيتها ومشاهدة بساتينها ؛ فوصل اليها بعد بضعة ايام ۰ وكـــان وصوله قبل وصول ابي الحسن بيومين وظل متنكرا لم يطلع احدا على حقيقة حاله ۰ لكنه طاف المدينة وزار القلعة وشاهد كثيرين ممن يعرفهم۰ واتفق رجوع السلطان نور الدين من الميدان فرآه عائدا على جـــواده وحوله الامراء والاعوان ففرح برؤيته ولكنه بذل جهده في التنكر لئلا يشعر به احد وهو يعلم ما بين نور الدين وصلاح الدين من الفتور ويود زواله لكنه يميل ان يكون مولاه صلاح الدين هو الرابح ۰

قضى معظم النهار في دمشق ، فأكل من طعامها وفاكهتها وتمتـــع

بمناظرها ، ومر عند خروجه بغوطتها ولعله مر في نفس المكان الــذي اجتازه ابو الحسن بعد يومين • وبات في تلك الليلة في قرية بضواحي دمشق • وقام في اليوم التالي قاصدا جبل السماق ، وبات الليلة الثانية في بعض الخانات ، وقضى معظم اليوم التالي في الطريق • وكان في امكانه الوصول الى مصياف في أصيل ذلك اليوم لكنه فضل الوصول اليها في الصباح التالي •

فبات في بعض القرى وركب في الصباح وبعد ساعتين أطل علــى جبل مصياف وعلى قمته القلعة تناطح السحاب ، فهاله ما رآه مـــن مناعتها ورسخ في اعتقاده انها أمنع من عقاب الجو • ترجل هناك فجاءه شيخ من الفلاحين يعرض عليه خدمة يؤديها وقد ظنه من كبار الاسماعيلية وهم يعهدون فيهم الشدة والقسوة • وكثيرا ما شهدوا القتال بينهم وبين من جاء لمهاجمتهم من الجنود الشامية او الجبلية او المصرية فضلا عما يتناقلوله من كرامات الشيخ راشد الدين وهم يلقبونه بشيخ الجبــل اسوة بالحسن بن الصباح مؤسس هذه الطغمة • حتى اوشكوا لفرط ما استولى عليهم من الاعتقاد بكرامته ألا يحدث حادث غريب مخيف الا نسبوه اليه ولو كان من العوارض الطبيعية كالمطر والرعد والبرق وأصبح فزاعة لاعدائه وتعويذة لمريديه •

وكان هم عماد الدين عند وصوله ان يلقى الشيخ دبوس ويدفع اليه كتاب التوصية الذي يحمله من عبد الرحيم فلما جاءه ذلك الفلاح الشيخ سأله عماد الدين عن راشد الدين اين هو •

فأجفل الرجل وتفرس في عماد الدين وقال : «يظهر انك غريب عن هذه الديار يا سيدي ؟» • قال : «وما الذي جاء بك الى هنا وماذا تريد من شيخ الجبل ؟» • قال : «اني احمل كتابا الى نائبه الشيخ دبوس» • قال : «دبوس ؟!• ظننتك تطلب الشيخ راشد الدين نفسه فانه لا يطمع

احد في رؤيته • حتى اصحابه وأعوانه انهم لا يرونه الا في بعض الاحوال الخاصة» •

فقال عماد الدين : «ومن انت يا عماه لعلك من رجاله ؟»

فقطع الشيخ كلامه قائلا : «حبذا ذلك ، ان مثلي لا يطمع في هذا المشرف ، ويكفينا من جواره ان نقوم بخدمته بما نغرسه من الحنطة او نرعاه من الماشية له ولرجاله في مقابل بقائنا في قيد الحياة» •

قال : «والآن احب ان أقابل الشيخ دبوس فهل ذلك ميسور ؟»

قال : «لا ادري • اعطني الكتاب اذا شئت لاوصله الى بعض رجاله فيوصله اليه ثم آتيك بالجواب» •

فدفع اليه الكتاب فتناوله وركض نحو الجبل ومكث عماد الدين في انتظار عودته وقد امسك زمام فرسه بيده وأدار بصره فيما يحيط به من السهل الفسيح وذلك الجبل الشامخ القائم في صدره وفوقه قلعة مصياف وقد أحدق بها السور والابراج • ولم يقدر ان يتبين طريقا يصل بها اليه ، كأن اهلها يصعدون اليها على اجنحة النسور او في المناطيد • فهاله ذلك وتمثل له الخطر المحدق بمن ينوي براشد الدين شرا • لكنه ازداد رغبة في استطلاع احوال ذلك الرجل ، فاما ان يفتك به ، واما ان يقرب ما بينه وبين صلاح الدين •

* * *

قضى في ذلك ساعة ثم رأى الشيخ الفلاح راجعا ومعه شاب في لباس السعاة ، حاسر الرأس حافي القدمين عاري الصدر كأنه من العفاريت • فلما وصل الى عماد الدين حياه ثم سأله عن غرضه فقال : «احب ان أقابل الشيخ دبوس» •

فمد يده وفيها كتاب التوصية وقال : «هذا هو كتابك ، ما هـــو اسمك ؟» . قال : «عبد الجبار» . قال : «اتبعني» .

فتبعه ماشيا يقود فرسه والشاب يسير بين يديه وهو يتلفت اليــه يجيل نظره فيه كالمتفرس . فاستغرب عماد الدين تلفته وتفرسه ، ولو كان جبانا لوقع الرعب في قلبه ولكنه كان شجاعا لا يعرف الخوف .

وبعد قليل وصلا الى قاعدة الجبل فأشار اليه الشاب ان يترك الجواد هناك ويتبعه فتردد عماد الدين لحظة فقال له : «لا بد من ترك الجواد هنا والا فارجع من حيث اتيت» .

فاطاعه ومشى في أثره في طرق متعرجة بعضها منقور في الصخور وبعضها سلالم من الحجر يصعب تسلقها . والرجل يقفز بين يديه كالنمر لا يبالي بالتعب وعماد الدين يجاريه لئلا يظهر عليه الضعف وهو ابـــي النفس .

وبعد الصعود ساعة في تلك الطرق المتعرجة وصلا الى باب القلعــة وهو غليظ متين . فوقف الشاب وأشار الى عماد الدين ان ينتظر ، وتقدم هو الى الباب ودقه دقات خاصة ففتح وكان لفتحه صريــــر شديد . فدخل وأغلق الباب وراءه وظل عماد الدين واقفا ينظر الى ذلك البناء المنيع وهو لا يرى منه غير السور الغليظ وعليه الابراج . ولمح مـــن شقوق الابراج او نوافذها الضيقة أناسا يذهبون ويجيئون كأنهــــم الحامية .

وبعد قليل عاد الرسول وقد لطف لهجته وأشار الى عماد الدين ان يدخل ، فدخل من ذلك الباب تحت العقد الغليظ ومشى في ممر طويل متعرج سقفه معقود وأرضه من الصخر الخشن . وقد وقف الى جانبيه الحراس بالحراب والسيوف كأنهم أصنام لا يتحركون . فهاله ذلك المنظر لكنه تشدد وتجلد وصمم على الصبر الى النهاية .

سار في ذلك الممر مسافة وانتهى منه الى منفذ يستطرق الى ساحة حولها ابواب مغلقة فأشار اليه الرسول ان يتبعه ففعل حتى وصل الى باب منها فطرقه . ولما فتح تقدم الرسول الى عماد الدين ودفع اليه كتـاب التوصية وتراجع وأشار اليه ان يدخل . فتقدم فرأى نفسه في حجرة ببابها حراس اشاروا اليه برؤوس حراب بأيديهم ان يدخل فدخل . ثم وقف وتلفت فاذا هي غرفة واسعة قد فرشت بالسجاد وغطيت جدرانهـا بأنواع الاسلحة . وفي جوانبها ضروب من آلات العذاب كالقيـود والاغلال . وحول جدرانها مقاعد من الحجر المنحوت في ذلك الصخر فوقها غطاء من جلد الدب والاسد . ولم يكن في تلك الحجرة حينئذ احد غير الشيخ دبوس جالسا في صدر الحجرة على جانب من ذلك المقعد وعليه جبة تكسوه كله ، وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة فحياه عماد الدين وقال : «لعلي في حضرة الشيخ دبوس ؟»

فأشار الشيخ برأسه ان «نعم» وأومأ اليه ان يتقدم ويعطيه الكتاب ففعل ، فتناوله وفضه وقرأه . ولما فرغ من قراءته اومأ الى عماد الدين ان يجلس وهو يقول : «ان ولدنا عبد الرحيم يوصينا بك خيرا ، تفضل يا عبد الجبار اقعد» .

فقعد على طرف المقعد وهو ينتظر ما يكون فقال له دبوس : «يقول لنا عبد الرحيم انك تطلب لعمة القربى من شيخنا وامامنا راشد الدين» .

قال : «نعم يا سيدي فهل هذا ميسور لي ؟»

فأطرق يفكر ثم قال : «انه ميسور على شروط» . قال : «وما هي يا سيدي ؟» . قال : «اعلم يا عبد الجبار انك قبل كل شيء ينبغي ان تنقي قلبك وتصفي نيتك وتستسلم الى هذا الامر . هل انت فاعل ؟» . قال : «نعم» .

قال : «احذر ان تخدع نفسك فاني لا اقدر ان اعرف خفايا قلبك ،

ولكن المولي الشيخ الاكبر لا تخفى عليه خافية . انه فاحص القلوب اذا نظر في عينيك عرف مكنونات قلبك . فاذا كنت في شك من نيتـــك واستسلامك فارجع من هنا ولا تعرض نفسك للخطر . اني أنصح لك بناء على ما قرأته في كتاب التوصية من الثناء على شجاعتك وصداقتك . وأما اذا كنت قد اوتيت النعمة وألهمت الانتظام في هذا السلك والحصول على العهد فقد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة . وأنا تاركك يوما كاملا تفحص فيه ضميرك وتخبرني بما يستقر عليه رأيك» .

فوقع كلام الشيخ من نفسه وقعا شديدا وغلب عليه التردد ، وقام في اعتقاده صدق ما سمعه عن شيخ الجبل من استطلاع خفايا القلوب . ولكنه تجلد وأظهر الثبات في عزمه وقال : «اني على عزمي ، وسأصبر يوما اخر على حسب امرك وأجيبك» .

فهز رأسه استحسانا وقال له : «اخلع ما عليك من السلاح وهات ما عندك من الادوات او النقود او غيرها ، تلك عادتنا في مثل هـــذه الحال ولا يخامرك شك فيما أفعل فان هذه الاشياء تبقى عندي باسمك» .

فعظم هذا الطلب عليه وعنده الجواهر . وقد شق عليه ان يفـــارق خنجره ويبقى أعزل فتوقف حينا ولم يجب .

فقال له دبوس : «اعلم يابني ان طالب الحصول على عهد مولانـــا الشيخ لا بد له من الاستسلام لكل ما يؤمر به بلا تردد . وقد خيرتك عملا بتوصية عبد الرحيم لانه ذو مقام عندنا . فاذا رأيت العدول عن عزمك رددنا اشياءك اليك» .

فلم ير بدا من الطاعة لانه لم يوفق الى دفاع ، فمد يده واستخرج خنجره من منطقته ودفعه اليه . ثم استخرج ما كان عنده من الجواهر والنقود ودفع كل ذلك الى دبوس وقد أحس بالخوف من الخديعة ، لكنه اطمأن نوعا لما رأى الشيخ يبش له وقد وضع اشياءه كلها فـــي

منديل وأخفاه في حفرة بأسفل المقعد . وأومأ اليه ان يخرج الى غرفة اخرى يستريح فيها . فخرج وقاده احد الحراس الى حجرة خلا فيهـا بنفسه وأخذ يفكر فيما سمعه فتحقق الخطر الذي أوقع نفسه فيه وأصبح لا يعرف ماذا يعمل : أيعدل عن مهمته بعد ان وعد صلاح الدين بها ام يعرض نفسه للخطر بالدخول ؟. وتذكر ما سمعه من صديقه عبد الرحيم عن كرامات راشد الدين وما هو شائع من هيبته واقتداره ، فوقع فـي حيرة لان رجوعه عنها يحط من قدره عند صلاح الدين وعند حبيبته . او على الاقل ينحط قدره عند نفسه فانها لا تطاوعه على الجبن . ودخوله يعرضه للقتل او لخيانة صلاح الدين .

وكان يفكر في ذلك وهو يمشي في تلك الحجرة وليس فيها شيء من الاثاث سوى حصير وبساط قديم فأطل من نافذة صغيرة فأشرف على ما يحيط بجبل مصياف من المستنقعات والسهول والروابي والاودية الـى مسافة بعيدة . واستغرق في افكاره حتى نسي موقفه . ثم أجفل لانه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى رجلا كالخادم اتاه بالطعام ودعاه الى الاكل وخرج . فأشار عماد لدين شاكرا وعاد الى تفكيره ونفسه لا تطلب الطعام لفرط اهتمامه وقلقه . وحانت منه التفاتة وهو يجيل بصره في ذلك الفضاء الى سور عال يحيط ببناء لا يظهر منه شيء فظنه قلعة او حصنا يلجأ اليه الاسماعيليون عند الاضطرار .

وعاد الى هواجسه وهي تتعاظم وتتكاثف حتى ضاق صدره من كثرة التردد ، وكان الى تلك الساعة لم يذق طعاما ، وأحس بالجوع فتحول نحو الطعام الذي اتوه به وهو مؤلف من بعض الثمار وشيء من الخبز واللحم . فمد يده الى الرغيف وكأن شيئا أرجعها عنه وخطر له سوء الظن فقال في نفسه .. «قد يكون هذا الطعام مسموما» . ثم تذكر صديقه عبد الرحيم وتوصيته لدبوس فغلب عليه حسن الظن وأكل ما يسد رمقه

واقتصر على الثمار .

وفيما هو يأكل سمع ضوضاء في الساحة فنهض ونظر من الباب فرأى جماعة من اهل القلعة وفيهم الحراس والاجناد يتهامسون ويتضاحكون والبشر ظاهر في وجوههم . فخاف ان يكون لذلك علاقة بوجوده هناك او ربما كان عليه خطر . فأصاخ بسمعه واذا هم يتكلمون لغات مختلفة لان رجال الاسماعيلية اخلاط من أمم شتى وفيهم العربي والتركي والفارسي والكردي والشركسي يتكلمون كل هذه اللغات وانما تغلب العربية على ألسنتهم .

وبعد الانصات واعمال الفكرة سمعهم يذكرون السلطان نور الدين وكأنهم يذكرون موته فغالط سمعه ولم يعبأ به لانه فارق السلطان منذ يومين في صحة تامة ورآه عائدا من الميدان على جواده كالاسد . واعتقد انهم يشيعون ذلك رغبة في اجتماع كلمتهم . لكنه ما لبث ان جاءه رسول من الشيخ دبوس يدعوه اليه فأسرع في اثره الى مجلس دبوس فرآه قاعدا في صدر الغرفة وبين يديه جماعة من الامراء بلباس متشابه وعلى رؤوسهم العمائم تقرب من عمامة دبوس . فغلب على اعتقاده انهم من رجاله .

فلما وقف عماد الدين امامهم خاطبه دبوس قائلا : «أأنت قادم من بيت المقدس ؟» . قال : «نعم» .

قال : «ألم تجعل طريقك على دمشق ؟» . قال : «بلى» .

قال : «كيف كان سلطانها الاتابك نور الدين هل شاهدته ؟»

قال : «نعم شاهدته على جواده عائدا من الميدان نحو الظهر» .

قال : «ومتى كان ذلك ؟» . فأطرق عماد الدين وهو يحسب الوقت ثم قال : «منذ يومين وبعض اليوم» .

قال : «لكنه مات في هذا الصباح رحمه الله» . فأجفل وبانت البغتة

في وجهه وقال : «مات ؟ هل انتم على ثقة من ذلك ؟ لا اظـــن الخبر صادقا ، ثم كيف يموت في هذا الصباح ويصل خبره الى هنا الان وبيننا وبين دمشق اكثر من يومين ؟»

فضحك دبوس ضحكة استخفاف وضحك الجلوس معه وهم يتلفتون بعضهم الى بعض ثم قال دبوس : «لا لوم عليك يابني وأنت لا تعرف مصدر هذا الخبر . انه لم يأتنا بالبريد وانما هو وحي هبط على مولانا الامام الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته وكراماته . كذلك فعل يوم مات الامام العاضد بمصر فقد جاءه علمه في يوم موته ، ومصر ابعد مـــن دمشق . وكذلك خبر المؤامرة التي قتل فيها عمارة وأصحابه» . ثم نظر الى الجلوس كأنه يستشهدهم فبدت على وجوههم امارات الايــــان بما قال .

فدهش عماد الدين ومع ذلك ما زال يظن ان في الامر خداعا للايهام وان نور الدين لم يمت وقال في نفسه: «اذا ثبت موته بورود المرسوم من دمشق على العادة فان لهذا الشيخ لشأنا عظيما» .

ولحظ الشيخ دبوس تردده ودهشته فقال : «لا تستغرب ما تسمعه يابني ، انك اذا تمت النعمة عليك ووفقت الى الدخول في طريقتنا رأيت أعجب من ذلك . ان مولانا الشيخ الاكبر يخاطب الحجارة فتجيبه حتى الميت اذا كلمه اجابه في الحال» . والتفت الى القوم وقال : «وأزيدكم بيانا ان مولانا الشيخ حرسه الله اخبرني عن سبب موت هذا السلطان قال انه توفي بعلة الخوانيق» . ثم حول نظره الى عماد الدين وقال : «وسترى في الغد ما يحقق ذلك حينما يأتي المرسوم» .

فوقع عماد الدين في حيرة عظيمة مما سمعه ورآه وأوشك ان يعتقد صحة كرامات راشد الدين . وقال له دبوس : «تفضل يابني الى غرفتك حتى يستقر رأيك وانما دعوتك لعلمي انك قادم من دمشق لعلك علمت

شيئا من مقدمات موت نور الدين • ولتعلم ايضا ان صديقك عبد الرحيم اخلص النصح لك • أتم الله نعمته عليك وعلي لانه هو ايضا مرشــح للارتقاء في هذه النعمة اذ ينال المجتهد فيها نصيبه • هذا كلام لا تفهمه الان ولكن سوف تفهمه تفضل» • وأشار اليه ان ينصرف •

فعاد الى غرفته وهو كالغائب عن الرشد لا يعرف كيف يعلل مــــا يشاهده من الغرائب المدهشة • وعزم في سره اذا صحت نبوءة الشيخ عن موت نور الدين ان يلتمس الدخول في تلك الطغمة بلا تردد • وود لو كان صديقه عبد الرحيم هناك ليوضح له بعض ما أشكل عليه ويزيده بيانا •

* * *

بات عماد الدين في تلك الليلة كالتائه في البحر ، وتوالت عليــه الاحلام وأفاق في الصباح على نقر باب حجرته • فذعر وجلس فـــاذا بصديقه عبد الرحيم واقف بين يديه فشعر عند رؤيته بارتياح عظيم وقد خف قلقه واطمأن باله كأنه لقي أباه او اخاه واستأنس به كثيرا فأكب عليه وعانقه وأوشك الدمع ان يتساقط من عينيه اشدة التأثر•

فعانقه عبد الرحيم وهو يبتسم وقال له : «يظهر من تلهفك لملاقاتي انك كنت في ضيق» • قال : «لم اكن في ضيق ولكنني متردد في أمور ولا ارى لي فرجا الا على يدك • وأشعر انك اخي او ابي وألقي اتكالــي عليك وهناك اشياء احب ان أستشيرك فيها» • فهش له عبد الرحيــم مطمئنا ، فأشار اليه عبد الجبار (عماد الدين) قائلا : «اقعد ، من ايـــن انت آت ؟ »

فقعد وهو يقول : «اني آت من عند الشيخ دبوس وقد قص علي ما أعجبه من ذكائك وشجاعتك • وانه تلطف في معاملتك وأمهلك حتى تفكر

في امرك» .

قال : «نعم . وهذا ما احب الاستفهام منك عنه ، لقد ادهشني امر لم أقدر على تفسيره» . قال : «وما هو ؟» . قال : «اخبرني الشيخ دبوس ظهرُ امس ان السلطان نور الدين صاحب دمشق مات في الصباح. وأنا رأيته بعيني قبل ذلك بيومين راكبا على جواده سليما معافى والصحة تتجلى في وجهه بعد ان قضى يومه مع سائر رجال دولته في السباق».

فقال عبد الرحيم : «هذا كله صحيح ، نعم انه عاد من ذلك الميدان صحيحا معافى لكنه لم يصل الى القلعة حتى أحس بألم في حلقه ظهر بالفحص انه الخوانيق» .

فأطرق عبد الجبار (عماد الدين) وقد بانت الدهشة في عينيه وهان عليه ان يصاب نور الدين بالخوانيق على أثر رؤيته اياه على جواده فقال: «يظهر ان المرض جاءه شديدا فلم يمهله طويلا . لكن اذا فرضنا وقوع ذلك فعلا ومات نور الدين صباحا فكيف وصل الخبر الى هنا قبل الظهر ؟ »

فضحك عبد الرحيم وقال : «ان ذلك يا عبد الجبار من كرامات مولانا الشيخ الاكبر نفعنا الله ببركته . ألم اقل لك شيئا من ذلك ونحن في بيت المقدس ؟ انه طالما انبأنا بالاخبار حال وقوعها ولو كان بيننا وبينها مسافة ايام وليس هذا أعجب كراماته . وهل تظن سطوته وقوة نفوذه لا اساس لهما ؟. كيف يخضع له الالوف من الناس وفيهم العقلاء والحكماء ان لم يروا فيه ما يستحق ذلك ؟ أتعلم ان أتباعه اليوم يزيدون على ستين الفا من نخبة الناس وفيهم الشجعان والابطال والقواد ، وكل منهم طوع ارادته يبذل نفسه في طاعته . أتظن ذلك يقع عفوا بلا استحقاق ؟ »

فقال عماد الدين : «انت تشير علي اذن بأن ابقي على عزمي ؟»

قال : «هذه نصيحتي لك» .

قال : «انهم اخذوا مني نقودي وسلاحي» .

قال : «لا خوف عليها. فاذ رجعت عن هذا الامر فأنا أضمن ارجاعها اليك . ولا أظنك راجعا عنه ولاسيما بعد ان ترى الشيخ الاكبر نفسه وتسمع اقواله وتختبر كراماته . انها كثيرة انما ..» . وسكت كأنه اراد ان يقول شيئا وندم عليه .

فقال عماد الدين : «اراك تتردد في نصحي» .

قال : «معاذ الله يا اخي ، انت تعلم اننا تحابينا وتصادقنا لغير غرض سوى تقارب القلوب . ولما كانت جماعتنا هذه تضم خيرة الشجعان وذوي البسالة فقد رأيتك اهلا للانتظام في سلكها . وسوف تحمد مغبة نصحي. لكنني أتردد في امر احببت ان ابوح به لك تخفيفا من قلقك . لكنه محظور علي . فسكت» .

قال : «اذا اطلعتني على شيء يخفف قلقي ضاعفت فضلك ولا يعلم به احد ، أعاهدك على ذلك» .

قال وهو يخفض صوته : «متى رضيت الدخول فانهم يمتحنونك بأشياء لا يصبر عليها الا الشجاع ثابت الجأش وأنت كذلك . لكنني احببت ان أزيدك اطمئنانا ، ان ما يظهر لك من تلك التجارب خطرا او مستحيلا ليس هو في الحقيقة الا ظاهرة لا طائل تحتها . وانما يراد بها امتحان شجاعة الطالب . فمهما يطلب منك ان تعمله فاعمله ولا تخف . لا اقدر ان أفصح لك اكثر من ذلك» .

فقال عماد الدين : «يمتحنون شجاعتي ؟ فليمتحنوا لانني لا أبالي وأنت تعلم ذلك ، ولكنني احب ان اعرف شيئا اخر . هل تطلعني على حقيقته ؟ »

قال : «قل ما تريد لعلي استطيع» . قال : «كل ما اعرفه من أمر هذه الطائفة ان زعيمها راشد الدين رجل حكيم ذو كرامات ، وان أتباعه

يطيعونه طاعة عمياء ويبذلون انفسهم في طاعته . لكنني لا أعلم ما يناله اولئك الاتباع من المكافأة . وهل هم درجة واحدة او درجات فقد رأيت بعضهم كالخدم او الجند وآخرين كالامراء، وهذا دبوس كالملك فما هو نظام هذه الطائفة او الدولة انها غريبة في بابها ا»

قال : «صدقت ان نظامها غريب لم ينسج على منواله ، ولا بأس من ان أقص عليك خبر هذا النظام باختصار . اعلم يا عبد الجبار ان جماعتنا هذه التي ارعبت العالم بتدبيرها وبسالة شبانها مؤلفة من طبقتين : الفدائيين ، والمستنيرين . وفوقهما الزعماء وأصحاب الاسرار الحقيقية. وأول ما يدخل الاسماعيلي يكون فدائيا فاذا استحق الرقي صار مستنيرا . انا لا ازال الى اليوم من الفدائيين (الفداوية)» .

فقطع كلامه قائلا : «اذا دخلت انا غدا ، هل اكون مثلك ؟»

قال : «نعم . لكنني الان مرشح لنيل العهد فأصير مستنيرا عن قريب . لان مهمتي التي ذهبت بها الى بيت المقدس كانت اخر تجربة في سبيل الترقي ، وقد جئت الى هنا لكي أتلقى السر الجديد في طبقة المستنيرين » .

قال : «بماذا استحققت هذا الترقي ؟»

قال : «استحققته بصدق الخدمة في مصلحة الجماعة وبذل النفس في سبيل الطاعة . ولا بد لكل فدائي ان يفعل ذلك قبل ان يصير مستنيرا . وأما انت فأرجو ان يسرع ترقيك لانك اهل لذلك بما فطرت عليه من المروءة وعلو الهمة . وليس في طلاب الانتظام كثيرون مثلك ولذلك ارجو ان ترتقي على عجل» .

فأطرق عماد الدين (او عبد الجبار) حينا يفكر في امره وفي اصل مهمته وما خلفه وراءه في مصر من البواعث التي تقضي بسرعة عودته ولاسيما سيدة الملك . فانها اصبحت منذ رجوع رسوله من عندها لا

تبرح من باله . لكنه اطمأن عليها وهي في كنف صلاح الدين . ولحظ عبد الرحيم تفكيره فقال له : «لا حاجة الى التردد ، ان دخولك في هذا السلك اصبح امرا مقضيا ولا بأس عليك منه . لكنني احب ان تؤخره الى مجيء المرسوم من دمشق بموت السلطان نور الدين وتتأكد كرامة امامنا . وكن مطمئنا الى انك اذا عدلت عن الدخول فلن يصيبك اذى، ومولانا الشيخ الاكبر لا يقبل كل من يطلب الانضمام واذا شئت ان تتحقق قولي فتعال لاريك جماعة من اولئك الطلاب» . قال ذلك ونهض فتبعه عماد الدين وسارا الى ساحة سمعا فيها عربدة وغوغاء بلغات مختلفة وغنات متفاوتة . ثم مشى به حتى أطل من وراء حائط على بقعة ازدحم فيها الرجال جماعات بين جلوس يتسامرون او وقوف يتخاصمون. فقال عبد الرحيم : «انظر يا اخي . هؤلاء هم طلاب الدخول وأنت ترى الوحشية والعربدة وسفك الدماء في ملامحهم . وقد اشتهرت جماعتنا هذه بالفتك فكل من يهون عليه قتل الابرياء ويضيق به الرزق يأتي الينا. ولكن غرضنا اسمى من ذلك وان كنت الى الساعة لم أطلع على سره الحقيقي . فهؤلاء يعدون بالعشرات كما ترى . وهم هنا منذ ايام لم يحفل الشيخ دبوس بهم» .

وفيما هما في ذلك رأيا رجلا كرديا من اولئك وقف وبيده جمجمة صب فيها خمرا وتمايل عجبا ثم شربها وهو يزدري رفاقه ويفاخرهم ببسالته وخشونته . فغضب واحد من رفاقه الاتراك فهزأ به ولطم تلك الجمجمة بقفا يده فرماها وتناثر ما كان فيها من الخمر على الارض فضحك الرفاق وقهقهوا وقد اعجبهم عمل ذلك التركي ، فلم يصبر الكردي على الاهانة واستل خنجره وطعن التركي طعنة قضت عليه . فهم الاخرون ان ينتقموا له فصاح بهم عبد الرحيم وأوقفهم وهددهم وأشار الى بعض الحرس ان يقبض على القاتل .

ولم يزدد عماد الدين بذلك الا دهشة مما رآه وسمعه • فرجع الى حجرته وذهب عبد الرحيم لشأنه • وأتاه في اليوم التالي وقد جـــاء المرسوم من صاب الشام بوفاة نور الدين بالخانوق في الوقت الذي رواه شيخ الجبل • ولكنه صمم على الدخول في ذلك السلك • اذ لا بد له من ذلك للقيام بالمهمة التي جاء من اجلها ، وقد تبرع بين يدي صلاح الدين بقتل راشد الدين ، وربما علمت سيدة الملك بعزمه فكيف يعود بخفـي حنين ؟ على ان ما شاهده من مقام الرجل وكراماته جعل مهمته شاقة •

- ٩ -

عند زعيم الحشاشين

اصبح عماد الدين في اليوم التالي وهو على موعد للدخول علـى الشيخ الاكبر لينضم الى جماعة الفدائيين • وكان كلما فكر في ذلك اختلج قلبه في صدره • وبعد قليل جاءه صديقه عبد الرحيم وهو يهش له تشجيعا وطمأنه فقال عماد الدين : «هل اذهب الان الى الشيخ الاكبر ام الى الشيخ دبوس ؟»

قال : «لا بد من الذهاب الى الشيخ الاكبر بواسطة الشيخ دبوس ، فهل انت متأهب لذلك ؟»

قال : «نعم» • وأكبر ان يظهر الوجل ، فقال عبد الرحيم : «هلم بنا الى الشيخ دبوس» •

فمشيا حتى دخلا عليه وأطلعه عبد الرحيم على الغرض • فوجه كلامه

الى عماد الدين قائلا : «هل انت مصمم يا عبد الجبار على الانضمـــام الينا ؟» . قال : «نعم يا سيدي» .

فأمره ان ينزع ثيابه التي عليه ويرتدي ثوبا ابيض كالقميص الكبير دفعه اليه . فلبسه فجلله الى عقبيه . ثم أمره فنزع عمامته وحل شعره وكان طويلا فأرسله على كتفيه . وأشار عبد الرحيم اليه ان يتقدم الى الشيخ دبوس ويقبل يده ففعل . ثم اومأ اليه ان يتبعه فمشى في ممرات وطرقات والحرس وقوف في جوانبها بالحراب حتى أطل على رواق يؤدي الى باب كبير عليه ستر وبجانبه حارسان عظيما الهامة كأنهما من الجان. فلما اقترب عبد الرحيم منهما اومأ اليهما بالاشارة (لانهما أخرسان) ان يأذنا له في الدخول وهما يعرفانه فأذنا له ، واستبقيا عبد الجبار خارجاً. فوقف وهو مطرق يتردد بين الندم والعزيمة واذا بصديقه قد عاد وقال له: «ان الشيخ مشتغل بمحاكمة الكردي القاتل لكنه أذن لنا في الدخول».

ومشى فتبعه عماد الدين فدخلا قاعة مظلمة في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه الشيخ الاكبر والى جانبيه رجال من خاصته وقد غطـوا وجوههم ما عداه . ولم يستطع عماد الدين ان يتعرف الوجوه هناك الا بعد قليل ريثما تعود النظر في الظلام فرأى ذلك الكردي واقفا وهـــو موثق اليدين . وفي وسط القاعة جثة القتيل ملطخة بالدماء . فأشار عبد الرحيم الى عماد الدين ان يقف معه في ناحية ففعل وأخذ يتفرس في راشد الدين فاذا هو يرتدي ثوبا اسود يغطيه كله الا وجهه وقد بانت الشيخوخة في ذلك الوجه بتجعده وبياض لحيته لكن عينيه تبرقـــان كالسراجين ويكاد الشرر يتطاير منهما . وما عتم راشد الدين ان صاح بذلك الكردي قائلا : «أتجسر يا هذا ان تقتل نفسا في جوارنا ؟»

فصاح الرجل : «اني لم اقتله يا مولاي وانما هم يتهمونني زورا».

قال : «وتكذب ايضا ؟». أتحسب ان ذلك ينطلي علينا ، ألا تعلم اننا

نفحص القلوب ونعرف اسرارها ؟»

فعاد الرجل الى الانكار وقال : «انهم يتهمونني يا سيدي زورا ، فاذا شئت فاني آتي بالشهود ، او أقسم لك ببراءتي» .

قال : «لا حاجة بنا الى شهود او قسم ، انا اسأل هذا القتيل وهو ينبئني بالحقيقة» .

فلما قال ذلك أجفل عماد الدين ، ونظر فرأى راشد الدين قد وقف وانتصب كالصنم ثم خطا خطوة نحو القتيل وصاح به وهو يشير اليه باصبعه كأنه يهدده : «ألم يقتلك هذا الكردي ؟ قل !»

كان السكوت مستوليا على الحضور وقلوبهم تخفق تطلعا الى مــا يكون فسمعوا القتيل يقول بصوت ضعيف : «بلى هو قتلني !»

فسأله ثانيا : «بماذا قتلك ؟»

فأجاب : «بخنجره !»

فلما سمع عماد الدين ذلك اقشعر بدنه . كيف لا وقد سمع الميت يتكلم وهو على ثقة من تلك الحادثة لانه رآها بنفسه . اما راشد الدين فرجع الى مقعده وأشار الى بعض الوقوف بين يديه من رجاله ان يذهبوا بالرجل الى السجن وأن يدفنوا القتيل ففعلوا . وقد استولت الدهشة على الحضور ولاسيما عماد الدين .

وبعد قليل اشار راشد الدين الى الواقفين في مجلسه بالانصراف ولم يبق غير بعض خاصته الملثمين ، وأومأ الى عبد الرحيم ان يقدم عبد الجبار فقاده بيده حتى اوقفه بين يديه فوقف وركبتاه ترتعدان من التهيب وقد عظم امر راشد الدين في خاطره .

فوجه هذا كلامه الى عماد الدين قائلا : «وأنت يا عبد الجبار ارجو ان تصدقنا ولا تفعل كما فعل ذلك الكردي ، انت كردي ايضا لكنني اقرأ في وجهك الصدق . انت تطلب الانضمام الى رجالنا ؟» . قال :

«نعم يا سيدي» .

قال : «وهل تعلم ما انت مقدم عليه من الامر العظيم ؟» . قال : « نعـــم » .

قال : «لا تخدع نفسك اذا كنت مترددا او خائفا ارجع من حيث اتيت . ونحن انما نطلب رجالا اهل بسالة وصدق . وهل تعرف الخطر الذي يحدق بك ؟»

قال : «نعم» .

فتنحنح وقال : «وما الذي حملك على هذا الامر ؟» . قال : «ان أتشرف بخدمة مولانا الشيخ الاعظم» .

قال : «من اين اتيت ؟» . قال : «من بيت المقدس» . وخاف ان يسأله عن حقيقة غرضه فيكشف امره ويقع في خطر الموت . فارتعدت فرائصه لكنه تجلد وصبر .

فقال له راشد الدين : «انا اعلم انك قـــادم من بيت المقدس الان ولكنني احب ان تخبرني عن المكان الذي جئت منه قبل بيت المقدس» .

فتحير في الجواب وسكت وهو يفكر في هل يصدقه ام لا . وخاف ان تكون كرامة راشد الدين دلته على حقيقة غرضه الذي جاء من اجله فتلعثم لسانه . فلم يصبر راشد الدين عليه فقال : «يظهر انك خائف . لا تخف يا بني . انك شاب شهم ولست من طبقة اولئك الزعانـــف الجهلاء . انا لا أكلفك ان تقول شيئا ، وانما أستفهم شعرة من شعرك وهي تنبئني» . وأشار الى عبد الرحيم ان يأتيه بشعرة من ذؤابـــة عماد الدين فجاءه بها فتناولها بين السبابة والابهام وجعل يخاطب الشعرة قائلا : «يا شعرة عبد الجبار قولي لي اين كان صاحبك قبل بيت المقدس؟»

فسمع عماد الدين الجواب آتيا من ناحية الشعرة ضعيفا كأنه صادر عن وتر رنان وهو : «من القاهرة !»

فقال : «قولي لي اين كان صاحبك هناك ومن هو ؟»
فقالت : «كان عنديوسف صلاح الدين وهو من رجال خاصته» •
فلما سمع عماد الدين ذلك اوشك ان يسقط على الارض من الارتعاد وأطرق لا يحير جوابا • وخاف ان يواصل الاسئلة ويطلع على سر قدومه الى هناك • مرت عليه دقيقتان هما اطول من سنة • ثم رأى راشد الدين تنهد عند سماع اسم صلاح الدين ورمى الشعرة من يده وقـــال : «صلاح الدين يوسف ؟• اطال الله بقاءه» •
فاستغرب عماد الدين قوله وانتعشت آماله لكنه ظل ساكتا • فقال راشد الدين : «كيف فارقت صلاح الدين ، هل هو في صحة وسلامة ؟» قال : «نعم يا سيدي» •
قال : «الحمد لله على ذلك» • ولحظ عماد الدين تغيرا في وجـه راشد الدين لم يفهم سببه • لكنه ما زال خائفا من افتضاح امره حتى سمع راشد الدين يخاطبه قائلا : «احمد الله على سلامة صلاح الدين ؛ والآن هل انت مصمم على الانضمام الى رجالنا ؟» • قال : «نعم يـــا مولاي » •
قال : «أتعلم ماذا يطلب منك ؟» • قال : «لا ، لكنني طوع امـــر مولاي فيما يريد» •
فابتسم راشد الدين ابتسامة لم تغير شيئا من انقباض سحنته وقال : «أعجبني جوابك يا عبد الجبار• وأنت اذا أتيح لك ان تكونمن رجالنا كسبت الدنيا والآخرة • لكن ذلك ليس بالامر الهين » • قال ذلـك ووقف وأشار اليه ان يتبعه فتبعه وهو يسترق النظر الى عبد الرحيـم استئناسا برأيه ولو بالاشارة • فرآه يشجعه ويطمئنه • حتى وصـــل راشد الدين الى جانب من جوانبتلك القاعة الواسعة المظلمة فوقف وقال لعماد الدين : «انظر هنا» وأومأ باصبعه الى حفرة بين يديه •

فنظر فاذا هو على شفا هوة لا قرار لها . فقــال له : «اذا كنت صادقا فيما تقوله فألق بنفسك في هذه الهوة !»

ونظر عماد الدين الى الحفرة فلم يشك في انه اذا اطاعه فسيقتل لا محالة . فالتفت الى عبد الرحيم خلسة فاذا هو يشجعه ويشير اليه بعينيه ان يخطو . وهو واثق بصدق صديقه لكنه خاف ان يكون في الامــر دسيسة وان راشد الدين اطلع على حقيقة مهمته فأراد الانتقام منه على هذه الصورة . على انه تذكر ما نبهه اليه عبد الرحيم من قبل وهو لم يتعود الخوف او التردد فسبقت قدمه الى الوثوب نحو فوهة تلك الهوة مدفوعا بوعده وشجاعته . فاذا هو قد تلقته عارضة برزت وغطت تلك الفوهة . وفتحت فوهة اخرى في المكان الذي كان واقفا عليه . فلم يصدق انه لا يزال حيا .

أما راشد الدين فأمسكه بيده وهو يقول : «الان تأكدت صدقك . ولو لم تصدقني لقتلت لان فوهة الهوة تحولت الى موقفك الاول» . وأشار اليه ان يتحول نحو القاعة وهو يقول : «استحققت النعمة التــي تطلبها . انك منذ الان من ابنائي الصالحين» .

وعاد راشد الدين الى مجلسه وأشار الى واحد من الخدم الوقوف بين يديه بالاشارة ان يتبعه بقدح فأتاه به فتناوله وصب فيه سائلا من اناء بجانبه وقال : «هذا ماء الحياة وطريق النعيم اذا كنت صادقا وهو سم قاتل اذا كنت كاذبا . فاذا كنت على وعدك بالطاعة وصدق النية فاشربه» .

فتناوله وتردد لحظة وهو ينظر الى صديقه عبد الرحيم فرآه يشجعه فشرب ما في القدح وأومأ اليه الشيخ ان يقعد . فقعد وأحس بعد قليل بالخدر ثم غاب عن رشده .

* * *

ولا تسل عن دهشته لما أفاق من غيبوبته وفتح عينيه فرأى نفسه في حديقة كالجنة بما يصفونها به من جري الانهار وتعانق الاشجار وتجاوب الاطيار من صادح وسابح . وأول ما نبهه من رقاده نسيم مر على وجهه ويد لمست جبينه . فاذا هي يد غادة او حورية كأنها البدر عليها ثوب يجللها لكنه لا يكسوها لشفافته . وبيمناها مروحة من ريش النعام تروح له بها . وقد وضعت يسراها على جبينه كأنها تمسح عرقه فظن نفسه اول وهلة في حلم وخاف اذا نهض ان يفقد تلك المناظر البديعة فصبر قليلا فاذا بتلك الحورية تخاطبه بصوت رخيم قائلة : «انهض يا حبيبي الى متى الرقاد ؟»

فنهض ونظر الى نفسه فرأى عليه ثوبا يشبه اثواب الامراء لم ير على السلطان صلاح الدين احسن منه . وعلى رأسه عمامة من نسيج مزركش بالقصب . وقد جلس على بساط من اجمل أبسطة عصره عليه الصور المنسوجة بالذهب . وقضى برهة وقد اخذته الدهشة ينظر تارة الى نفسه وطورا الى تلك الحورية وآونة لما بين يديه او لما يقع عليه بصره من الاشجار والازهار وما يسمعه من خرير الماء وتجاوب الاطيار، وما يفوح من الروائح العطرية مما لم ير مثله ولا خطر بباله .

وبينما هو يفكر في ذلك تقدمت اليه تلك الغانية وقد ازاحت نقابها عن رأسها وأرسلت شعرها الذهبي على كتفيها وهي تنظر الى عماد الدين بعينين تكادان تنطقان بعبارات الحب وتشكيان لواعج الغرام . على انه تجلد ونظر اليها وصبر لما يبدو منها فمدت يدها للمصافحة فناول يده وهو ما زال يحسب نفسه في رؤيا فقبضت على انامله وهي تقول : «ما بالك يا عبد الجبار ما زلت تحسب نفسك في منام ؟ أنسيت انك شربت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الاكبر؟ انك في الجنة الان التي لا يدخلها الا المستحقون ؟»

فتذكر القدح الذي شربه من يد راشد الدين فغلب على اعتقاده صدق دعوى ذلك الرجل وانه في الواقع انتقل الى الجنة بأنهارها وأشجارها وأطيارها ، وان هذه المرأة حورية من حورها . ثم تذكر سيدة الملك فأجفل وقال في نفسه : «ما لهذه المرأة تهم بقلبي لتختطفه وهو ليس لي ؟» . وتباعد عنها فتباعدت ، وبان العتب في وجهها وتحولت عنه ثم غابت عن عينيه .

فتركها ومشى على ارض مكسوة بالعشب الاخضر الملون كالبساط المزركش وقد فاحت منه الروائح المنعشة فوقع بصره عن بعد على قناة يجري فيها الماء لامعا كأنه الزلال وعلى ضفتيها اشجار الفاكهة وقد وقعت أشعة الشمس من خلال الاغصان على ذلك الماء وهو يجري فتلون بألوان قوس قزح . فدنا من تلك القناة ووقف على ضفتها ينظر الى الاشعة الواقعة على الحصى في قاعها كيف تتكسر وتتلون . وانه لفي ذلك اذ رأى في الجانب الاخر حورية برزت من بين الاشجار ومشت نحوه وهي تبتسم له . فسره ان بينه وبينها قناة تحول دون وصولها اليه وتوقع ان تقف على الضفة الاخرى وتخاطبه . فاذا هي تجاوزت الضفة ولم تزل ماشية اليه فوق سطح الماء ولم تبتل قدماها .

وتعاظمت دهشته لما رآها وصلت اليه وقدماها العاريتان تتنقلان فوق سطح الماء الجاري لا تقع فيه ولا تعكره او تعيق سيره . فتحقق لديه انه في مكان غير الارض ،وان اولئك الحور من الملائكة . وصلت تلك الحورية اليه والهواء يعبث بشعرها ويلاعب اطراف ردائها . وبسطت يدها نحوه كأنها تستقبله وهو يحارب هواه ويتذكر سيدة الملك وحبها اياه ويهم بالابتعاد ، فرأى في وجه تلك الحورية شيئا يشبه ملامح حبيبته فذعر وتفرس فيها جيدا وحدثته نفسه ان تكون هي بعينها وان مجيئها الى تلك الجنة من جملة معجزات راشد الدين . فوقف ريثما

وصلت الحورية اليه ومدت يدها نحوه فمد يده وتصافحا وهو يتفرس في وجهها فكانت كلما دنت منه بعدت المشابهة بينها وبين سيدة الملك . لكنه استأنس بها وأحب ان يحادثها عما يراه . فلما دنت منه فاحت رائحة الطيب من ثوبها فوضعت يدها على كتفه فاقشعر بدنه فقال لها : «من انت يا هذه وأين انا ؟»

قالت : «ألا تعرف اين انت ؟ انك في جنة شيخ الجبل مولانا الامام الاكبر» .

قال : «وهذه مقر أتباعه اجمعين ؟»

قالت : «نعم . ولكن لا يمكث فيها الا من احسن البلاء في طاعته» .

وأمسكت بيده ومشت فمشى وأومأت اليه ان يتبعها فوق تلك القناة فتردد هنيهة فجذبته بيده وهي تقول : «لا تخف امش» . فمشى فاذا هو يخطو على شيء صلب يفصل بين قدميه وبين الماء . فظن الماء جمد تحت قدميه . ووصل الى الجانب الاخر وسار مع الفتاة وهو شديد الرغبة في معرفة حقيقة ما يراه ، فلما سمع قولها قال : «هل انا باق هنا ؟»

قالت : «انت حديث العهد ، وانما جئت لترى ما أعده المولي لاتباعه ومريديه اذا قاموا بأوامره . وعسى ان تكون من المستحقين» .

فعلم انه هناك الى أجل ولا يلبث ان يعود . فمشى لترويح النفس وعيناه تتنقلان بين الاشجار والرياحين ويرى الاطيار تتنافر بين ايدي تلك الحورية وفيها الكراكي والطواويس بألوانها الجميلة . والبلابـــل والحساسين تتجاوب بالتغريد او الزقزقة . والفتاة تناديها فتأتيها وتقع على كتفيها او على يدها وتنتقل كما تأمرها كأنها تفهم لغتها .

ثم سمع عماد الدين زئيرا علم انه زئير الاسد وكان قد سمعه مرارا فأجفل وقال : «أليس هذا زئير الاسد ؟»

قالت : «بلى ، وهل خفته ؟ ان الاسود لا تؤذي اهل هذه الدار» .

ومشت حتى دنت من مربض لاسد تحت شجرة . فاذا هو مقع وعيناه تبرقان لكنه لم ينتقل من مكانه فتقدمت الفتاة اليه ومدت يدها الى رأسه وعبثت بشعره كما تعبث بشعر الهر فلم يتحرك ، فاستغرب عماد الدين ذلك ايضا .

وجاء الى السير فوقع نظره في بعض جوانب الحديقة على غرف مفردة تغطيها الازهار والاغصان فسألها عنها فقالت : «هذه مساكن الذين استحقوا البقاء هنا يتمتعون بالملذات والنعيم لا يعكر عليهم ذلك احد».

وبعد المسير برهة بين صعود وهبوط وقفت به الفتاة عند حائط وقالت له : «انظر الى هنا» . فنظر من كوة في الحائط تشرف على واد أجرد لا شيء فيه من الماء ولا الخضرة . فأجفل لما رآه هناك من الثعابين والوحوش المفترسة تسرح بين جماجم البشر فقال لها : «أظن هذه هي الجحيم» .

قالت : «نعم هذه هي ، فلو لم تطع الشيخ الامام لكنت في عداد المغضوب عليهم هنا» .

لم يشأ ان يقف هناك طويلا . فتحول وعادت معه حوريته وهي تلاطفه وتقطف من الثمار وتعطيه وهو كالتائه في أفكاره لا يدري ماذا يرى . واذا هو يسمع صوتا اهتزت له جوارحه وجمد الدم في عروقه لانه صوت سيدة الملك كأنها تستغيث به . فأخذ يتلفت يمينا وشمالا وهو يحسبها على مقربة منه والحورية تنظر اليه بذهول قائلة : «ما بالك ما الذي أوقفك ؟» . قال : «ألا تسمعين شيئا ؟» . قالت : «كلا ، ماذا تسمع ؟ »

فأطرق وهو يصيخ بسمعه فلم يعد يسمع شيئا . فرجح عنده انه مخطىء وانه سمع ما سمعه لفرط تفكيره في سيدة الملك فأتت روحها لزيارته او هو صوتها جاء للسلام . لكنه لم يطمئن الى هذا الفكر

والصوت الذي وصل اليه صوت استغاثة ، وساءل نفسه أهي في شدة؟ واذا كانت كذلك فما أجدره ان يسعى في اغاثتها •

وكان قد شعر بارتياح الى تلك الحورية لحسن ادبها وكثرة ما بذلته في سبيل استرضائه واجتذاب قلبه ، وهو شاب في مقتبل العمر ، فغلب على اعتقاده انه في جنة او مكان يشبه الجنة جاءه بكرامة او معجزة من معجزات راشد الدين ، وأوشك ان يشتغل عن سيدة الملك • فلما سمع ذلك الصوت توهم انه صوت ضميره يناديه بالثبات على حب حبيبته فلا يشتغل عنها بسواها فأحس بانقباض ، وود الخروج من ذلك النعيم •

وفيما هو يفكر في ذلك لا يلتفت يمينا ولا شمالا سمع وقع خطوات غير خطوات رفيقته فالتفت فرأى غلاما كالبدر طلعة وبهاء قد تمنطق بمنطقة من الخز ارسل جانبا منها الى الامام كالمئزر ، وأرسل شعره ضفائر ذهبية وعليه ثوب سماوي اللون ، فلما دنا من عماد الدين انحنى انحناء الاحترام وقال بصوت رخيم : «ألا يتفضل المولى لتناول الغداء» •

فالتفت الى رفيقته كأنه يستزيدها بيانا فابتسمت له قائلة : «تفضل يا مولاي الى الطعام فقد آن وقت الغداء» •

وكان في شغل عن الطعام فلما ذكر له أحس بالجوع • فمشى في طرقة مسواة كأنها فرشت بالزعفران يحف بها من الجانبين سياج من الازهار الجميلة ينتهي في اخره بباب كباب القصر الفخم • وقبل الوصول الى الباب فاحت روائح الطعام الشهي مما لم يعرف مثله الا في قصور الفاطميين في اثناء الاعياد • ولما اقتربوا من ذلك الباب فتح بنفسه ، وتقدم غلامان آخران يرحبان بالقادم ومشيا بين يديه من باب الى باب حتى وصل الى غرفة المائدة وهو يلتفت الى الجانبين ، وقد ادهشه ما على جدران الممرات من الستائر المصورة تمثل البساتين والقصور ومواقف البذخ والرخاء ، وتلفت النظر وتجتذب القلب • وأما غرفة المائدة فقد

ذهبت برشده وأوقفته موقف الحيرة ونسي مكانه لان جدرانها الاربعة مكسوة بالمرايا على طول الحائط . فيظهر الشخص الواحد عشرات من المرات من كل جانب .

فتقدمت الفتاة اولا وأشارت الى عماد الدين ان يتفضل فجلس على مقعد مغشى بالديباج المزركش ، وبين يديه مائدة مكسوة بملاءة من الحرير الوردي ولم تمض دقائق قليلة حتى تواردت الاطباق وعليها الالوان من اللحوم والفاكهة . وجلست تلك الحورية بجانب عماد الدين وهي تلاطفه وتقدم له اللقمة بعد اللقمة وتبالغ في اكرامه ، والغلمان وقوف بين أيديهما للقيام بالاوامر ، فعاد عماد الدين الى نسيان سيدة الملك وقد سحرته تلك الفتاة بجمالها ولطفها . ولاسيما بعد ان دارت الاقــداح وفيها الخمور اللذيذة فأصبح لا يعرف غير تلك الساعة وقام في ذهنه انه في النعيم الحقيقي .

ولما رأت الفتاة ميله ورضاه اخذت في الاعراض عنه وهو يزداد شغفا وقد زادته الخمور اندفاعا حتى اصبح يتزلف اليها ويغازلها وهي تتمنع فلما تحققت افتتانه بها قالت : «لا تخرج عن حدك فأنت انما جئت الى هنا على سبيل التجربة . وليس الوصول الى ما تطمع فيه سهلا . ان من دونه بذل النفس في طاعة الامام الاكبر» .

فشق عليه هذا الاعراض لكنه زاد افتتانا وقال : «قد كنت منذ هنيهة تتقربين وأنا أبعد فهل كنت تخادعينني ؟»

قالت : «كلا ولكن لا بد ان تأتي عملا يؤهلك الى المقام في هــذا النعيم دائما ، وعند ذلك اكون طوع ارادتك ، واذا خاطبت الاطيــار أجابتك ، وتجد النعيم الحقيقي من كل شيء . وليس ما تراه الا مثالا صغيرا من ذلك النعيم فعسى ان تعمل عملا يؤهلك لبلوغه . والحق يقال اني فتنت بجمالك وبسالتك وشعرت نحوك بما لم اشعر به قبلا نحــو

احد • ولكنني لا اقدر ان آتي امرا يخالف رضى مولانا ، ولا اقدر ان اخفي عليه شيئا لانه فاحص القلوب يطلع على خفايا السرائر ، ولكنني تأكيدا لعلائق المودة بيننا ادهن شعرك بطيب خاص بي» • قالت ذلك واستخرجت علبة من بين أثوابها فتحتها ففاحت منها رائحة لم يشم مثلها في حياته • فأخذت بعض الطيب ودهنت به يديه وشعره • فلذ له ذلك وطابت نفسه • ثم قالت : «احفظ هذه الرائحة تذكارا بيننا حتى نلتقي اللقاء الدائم ان شاء الله» • وبان الاعجاب في عينيها فازداد هو تهيبا من ذلك الشيخ العجيب ، فسكت •

وبعد الفراغ من الطعام والشراب أحس عماد الدين بميل الى النعاس فتوسد فراشا من الحرير المحشو بريش النعام وتلك الحورية الى جانبه تداعبه وتعرض عنه ، ولم تمض دقائق قليلة حتى غلب عليه النوم واستغرق في رقاده •

وأفاق في اليوم التالي فاذا هو في قاعة راشد الدين كما كان من قبل وعليه الثوب الابيض وشعره محلول • فجعل يتلفت يمينا وشمالا وينظر في ثوبه فتبادر الى ذهنه اول وهلة انه رأى حلما • ثم ما لبث ان شم رائحة الطيب في شعره ويديه فلم يبق عنده شك انه رأى ما رآه حقيقة • وانتبه بعد قليل لنفسه فرأى راشد الدين جالسا كما تركه ، ورأى صديقه عبد الرحيم بجانبه • فهش له وضمه الى صدره فقال له عبد الرحيم : «ان رائحة الجنة تنبعث من شعرك ، هنيئا لك وعسى ان يتاح لك النعيم الدائم • قم واجث عند قدمي مولانا وقبل ركبته وادع بطول بقائه» •

فنهض وترامى على قدمي الشيخ عن اعتقاد صحيح بكرامته • وقبل ركبته فمنعه ودفع اليه يده فقبلها ثم قال له الشيخ : «انت الان من ابنائنا الفدائيين ويلوح لي انك لا تلبث ان ترتقي الى مصاف المستنيرين•

قم الى غرفتك وقد أوصيت الشيخ دبوس بك خيرا • ولكنني احب قبل خروجك ان أزودك بعهد مني» • قال ذلك ونهض وأنهض عماد الدين معه وهو يحدق في عينيه وعماد الدين يشعر بقوة تنبعث من عيني ذلك الرجل وتوشك ان تغلبه على امره • وقد قبض الشيخ على يـــــدي عماد االدين بيديه قبضا شديدا •

ومكث كذلك عدة دقائق ثم صاح به : «افتح فمك» • ففتحه فتفل فيه وقال : «كن فدائيا مطيعا» • وتركه وأشار الى عبد الرحيم ان يذهب به الى غرفته •

فمشيا الى غرفة الشيخ دبوس وهما صامتان وقد استولت الدهشة على عماد الدين وأصبح كالمأخوذ او من اصابه السحر • فلما وصلا الى الشيخ دبوس بدل عماد الدين ثيابه وهنأه دبوس بما ناله من رضى الشيخ الاكبر ، وأعاد اليه خنجره ونقوده وجواهره وأصبح واحدا منهم •

على انه حالما عاد من دار النعيم التي كان فيها ، عاد الى ذكرى صلاح الدين وسيدة الملك فأصبح همه ان يخلو بعبد الرحيم ليسألـــه سؤالا شغل خاطره بالامس ؛ وهو قول راشد الدين : «أطال الله بقــاء صلاح الدين» فانه لم يقدر على تعليله وهو يعلم تعمده قتله مرارا •

اما عبد الرحيم فاستأذن صديقه عبد الجبار في الغياب تلك الليلة التي عينوها لترقيته الى درجة المستنيرين • فبات عماد الدين على أحر من الجمر وقد تراكمت عليه الهواجس وأخذته الغرائب • وكلما تضوعت رائحة الطيب من شعره تذكر تلك الفتاة وما لقيه هناك من اسبـــاب السعادة •

نام تلك الليلة نوما متقطعا وما كاد يطلع النهار حتى جاء صديقـــه عبد الرحيم والبشر يتجلى في عينيه فنهض عماد الدين وقبله وقال : «قد اصبحت منذ الآن ارقى مني ولا يحق لي ان أناديك اخي كما كنت أفعل» •

فضحك عبد الرحيم وقال : «ان صداقتنا امتن من ذلك كثيرا ، كنا غريبين وتحابينا ونحن الان أخوان على عهد واحد . ولا تلبث انت ان ترتقي الى مثل رتبتي . أتمنى ذلك لك قريبا بل انا أتوقعه عن ثقة» .

ولم يكن ذلك الشرف ليهمه وانما همه استطلاع رأي راشد الدين في صلاح الدين فاذا علم انه ما زال ينوي قتله عاد الى مهمته الاولى . وأما اذا تحقق صدق دعائه له بطول العمر كان له رأي اخر فقال : «اما انا فلا أتوقع قرب الترقي كما تظن . ويكفيني ان تكون لي صديقا . ولا احب ان أحملك ثقل صداقتي اشيء أطمع فيه على يدك ، وانما أتقدم اليك ان تفسر لي كلاما قد سمعته من الشيخ الاكبر بالامس فوقع عندي موقع الاستغراب ولم أصدقه وهو قوله (أطال الله بقاء صلاح الدين) مع اني أعلم انه بعث اناسا لقتله غير مرة» .

فابتسم عبد الرحيم وهو ينظر الى عماد الدين ويهم بالكلام ويمسك نفسه ، فلما رآه عماد الدين يتردد قال له : «اذا كنت تعرف الحقيقة فأرجو ان تخبرني بها لان ذلك يهمني كما تعلم . ولعلك من أعلم الناس بأمري مع هذا السلطان» .

فاعتدل عبد الرحيم في مجلسه وأظهر الاهتمام وقال : «اعلم يا صديقي عماد الدين ان عبارة الشيخ الامام التي ذكرتها كانت مغلقة علي الى مساء الامس ، فلما صرت من المستنيرين دخلت في جملة ما عرفته . وليست هي سرا اؤتمنت عليه مثل سائر اسرار هذه العشيرة لكنني اطلعت عليه عرضا ، ولذلك لا يمنعني الواجب ولا الخوف من ان اجيبك عن سؤالك » .

فتطاول عماد الدين بعنقه وقال : «قل بالله . هل يريد الشيخ الاكبر حقيقة ان يطول بقاء مولاي صلاح الدين ؟»

قال : «نعم انه يتمنى ذلك من كل قلبه وهو يطلبه ليل نهار» .

قال : «يا العجب كيف يبعث من يقتله ثم هو يدعو بطول بقائه !»

قال : «لعلك تعني ما حدث لصلاح الدين قبيل خروجك من مصر اذ نهض في الصباح فوجد الخنجر فوق رأسه ورسالة التهديد بجانبه» •

قال : «نعم هذا ما اعنيه» •

قال : «هذا دليل على رغبة الشيخ الاكبر في طول بقاء صلاح الدين، ولولا ذلك لامر الفدائي الذي تمكن من الدخول عليه حتى غرس الخنجر في وسادته عند رأسه بأن يغرسه في صدره ولم يكن ثمة ما يمنعه • ولكنه أمره ان يكتفي بالتهديد لرغبته في بقائه حيا» •

فاستغرب عماد الدين ذلك وقال : «لكنني لم أفهم الباعث على تلك الرغبة وهذا شيخنا حفظه الله قد اشتهر فتكه بالملوك والسلاطين • ولم يبق فيهم من لا يخافه حتى صلاح الدين نفسه فكيف هو يحب بقاءهم أحياء و ••»

فقطع كلامه قائلا : «لا • لا • انه لا يلتمس طول البقاء لاحد من هؤلاء غير صلاح الدين» •

فقال : «ولماذا ؟ ارجو ان تفصح لي» •

قال : «السبب يا اخي ان شيخنا أيده الله علم بالوحي انه يموت في نفس السنة التي يموت فيها صلاح الدين فمن مات منهما قبل صاحبه لا بد للثاني ان يتبعه في تلك السنة • فهو لذلك حريص على حيـــــاة صلاح الدين حرصه على حياة نفسه • وهل عندك شك في صدق هذا الشيخ العظيم • قد رأيت من معجزاته ما يكفي وان كان قليلا من كثير» •

فأطرق عماد الدين وأخذ يفكر فيما سمعه ، وما لبث ان صدق مـــا قاله راشد الدين بعد ما شاهده بنفسه . فاعتقد موت الرجلين في سنة واحدة . ورأى من مصلحة صلاح الدين ان يطول عمر راشد الدين • فتحولت همته الى المحافظة على حياة هذا الرجل لا قتله • وعد مهمته قد

انقضت وأصبح يميل الى الخروج من ذلك الحصن والاسراع الـــى صلاح الدين لينقل.اليه تلك البشرى ويرى حبيبته سيدة الملك. واعترضت افكاره رائحة الطيب ومناظر تلك الجنة لكن الحقيقة تغلبت على الوهم واشتد ميله الى الخروج ، ولا سبيل الى ذلك الا ان يرسله راشد الدين في مهمة لقتل احد الملوك او الامراء ، فالتفت الى صديقه عبد الرحيـم والامتنان باد في وجهه وقال : «لا انسى صداقتك يا عبد الرحيم ، اني اشعر بصدق مودتك شعورا يكاد يلمس باليد . ولذلك كانت ثقتي بك عظيمة فلا ينبغي لي ان اخفي عليك شيئا فهل تأذن لي في ان أستخدم تلك الثقة ؟»

قال : «قل ما بدا لك فانت في موضع ثقتك» .

قال : «لا حاجة بي الى بيان الاسباب التي تلجئني الى سرعة الخروج من هذا الحصن ، فأنت تعلم علاقتي بمصر ، فأتقدم اليك ان تساعدني في ذلك» .

قال : «خروجك لا يتم الا اذا دبروا لك مهمة تذهب في انفاذهـا لقتل كبير من الكبراء» .

قال : «فليكن ذلك وأنا فاعل ما يأمرون به» .

قال : «امهلني يوما او يومين لاغتنم فرصة تساعدني» .

قال : «اني في انتظار وعدك بارك الله فيك» .

قال : «واسمح لي بالذهاب الان فان علي واجبات تتعلق برتبتـــي الجديدة لا بد من انجازها وسأعود اليك بما أوفق اليه» .

قال : «اشكرك يا اخي» .

ونهض عبد الرحيم وانصرف .

* * *

لما خلا عماد الدين بنفسه بعد ما انتابه من الاهوال وما مر به من

الغرائب ، اخذ يفكر فيما رآه وسمعه فلم يزدد الا استغرابا ، وراجع ما كان يسمعه عن تدجيل ذلك الزعيم فأخذ اعتقاده بكراماته يضعف ولكنه لم يستطع تعليل ما شاهده من المعجزات تعليلا معقولا . كيف يطلع على الوقائع قبل وصول اخبارها ؟ وكيف يكلم الميت فيجيبه ؟ والشعـــرة فتطلعه على السر ؟. وهذه الجنة بما فيها من الطيبات والحور اللواتي يمشين على سطح الماء فلا يتعكر ويخاطبن الاطيار فتطيعهـــن ويلاعبن الاسود فلا تؤذيهن ؟! فاذا تمثلت له هذه الظواهر لم ير مندوحة عـــن الاعتقاد بكرامة الشيخ راشد الدين .

وتعب من التفكير فخطر له ان يتمشى في ذلك الحصن ، ولم يبق ثمة ما يمنعه لانه اصبح من اهله . فنهض ومشى فرأى ارض الحصن وما يحيط به خلوا من النبات الا ما وراء ذلك الجبل من السهول البعيدة: فتذكر ما شاهده بالامس من أمثال النعيم من الاشجار والانهار ، فمال الى استطلاع خبره وأين يمكن ان يكون . فصعد الى بعض المرتفعات لعله يشرف منها على تلك الحديقة فلم يوفق الى شيء من ذلك لكنه وقع نظره وهو يجيل بصره في السهل الذي نزل فيه يوم وصوله الى هناك على ركب لم يستطع ان يتبين وجوههم لبعد المسافة . ولما اقتربوا وجدهم ملثمين وهم بضعة فرسان في ركابهم جماعة من المشاة كالخدم . فلم يهمه امرهم وعاد الى التفكير فيما هو فيه من الهواجس التماسا لسرعـــة الخروج من هناك .

وحدثته نفسه ان يفر فوجد ذلك مستحيلا عليه الا بالتعرض للخطر الشديد وهو في غنى عن ذلك اذا استعان بصديقه عبد الرحيم ، ولا شك عنده انه لا يدخر وسعا في سبيل انقاذه .

وأعاد نظره الى ذلك الركب فرآهم دنوا من الجبل حتى حجبهـــم سفحه عن عينيه . فترجح لديه انهم من ذلك الجبل او النازلين فـــي

جواره • وأحس بالجوع فتحول الى مجتمع الفدائيين فتناول الطعام معهم ولم يجد فيهم من يبلغ مبلغه من علو النفس ورقة الاحساس • فازداد رغبة في الخروج من هناك ولبث ينتظر عودة عبد الرحيم وهو على مثل الجمـــر •

قضى ذلك اليوم واليوم التالي ولم ير عبد الرحيم ، فاشتغل خاطره ولم يعرف سبب تخلفه • وزاد بلباله لما شاهد غياب الشيخ دبوس ايضا عن غرفته في اثناء ذينك اليومين • وبلغه انه في شغل شاغل مع الشيخ الاكبر للمباحثة في أمور مهمة حدثت بعد مجيء اناس وصلوا بالامس • فتذكر الركب الذين رآهم قادمين اول البارحة فمال الى استطلاع حقيقتهم فلم ينبئه منبيء • لان هذه الاخبار لا يتناولها الا الخاصة من المستنيرين• فصبر نفسه حتى يأتي صديقه عبد الرحيم فلما استبطأه استفهم بعـــض الرفاق عنه فقيل له انه مع نخبة المستنيرين في شاغل عند الشيخ الاكبر•

فازداد شوقا الى الاستطلاع لكنه لم ير بدا من الانتظار ، ومضى نصف اليوم الرابع ولم يره ، فضاق ذرعا وأخذ الملل منه مأخذا عظيما وهم بالبحث عنه فاذا هو قادم نحوه ، فاستقبله استقبال الظمآن للماء ، فأكب عليه عبد الرحيم وقبله وأخذ يعتذر عن تأخره قائلا : «اعذرني يا اخي ، كنت في شاغل لم يكن في الحسبان وكلما عزمت على المجيء اليك يحدث شاغل جديد» •

قال : «نسيت قلقي واضطرابي حال رؤيتك • وأشعر اني أسبب لك تعبا ، ولكن يمكنك ان تتخلص من هذا التعب بتدبير مهمة اخرج بها من هذا الحصن • هل وفقت الى شيء من ذلك ؟»

قال وهو يضحك للمداعبة : «وفقت الى نصف الطلب فقط» •

قال : «كيف ذلك ؟»

قال : «انت تطلب امرا بالخروج من هذا الحصن لقتل احد الامراء

وقد استصدرت لك امرا بقتل احد الامراء ولكن بلا خروج من هـذا الحصن » .

فاستغرب عماد الدين قوله وحمله على المزاح فقال : «بالله قل لي الصحيح ألم توفق الى شيء بعد ؟»

قال : «اقول لك الصحيح تماما ، قد صدر امر الشيخ الاكبر لك ان تفتك بأمير هو مقيم في هذا الحصن» .

ورأى الجد في عيني عبد الرحيم فانقبضت نفسه لان رغبته انما هي في الخروج فقط وليس في الفتك والقتل فقال : «افصح يا اخي فانـك ازعجتني بهذه البشارة . وأنت تعلم اني اطلب الخروج قبل القتل» .

قال : «أعلم ذلك ولكن ما الحيلة وقد صدر امر الشيخ ؟» وهي ثقة كبرى فيك لان المهمة التي سيعهد فيها اليك شاقة . وهي ستكون السبب في تعجيل ارتقائك وقد رأيت مولانا الشيخ كثير الرغبة في ذلك» .

فأطرق عماد الدين وأعمل فكرته فيما سمعه ، ولم يجد فيه حيلـة فقال : «هل أعد كلامك هذا بلاغا لي ؟»

قال : «كلا . سوف يستقدمك الشيخ الامام نفسه ويبث فيك روح العزيمة والثبات ويأمرك بما يريد . اما انا فأخاطبك مخاطبة الصديق سرا لعلمي انك في قلق» .

فقطع عماد الدين كلامه وقال : «اسمح لي يا اخي ان اقول لك انك زدتني بهذا الخبر قلقا» .

قال : «ستحمد عاقبة هذا القلق يا عبد الجبار» . وابتسم كأنه يكتم سرا لا يريد ان يبوح به .

فقال : «لم افهم مرادك ، بالله ألا خففت بعض ما بي ولو بالتلميح . انا أعلم فضيلة المحافظة على السر . ولا اطلب منك ان تبوح بسر مقدس اؤتمنت عليه ، لكنني ارجو تخفيف قلقي بعض الشيء . قل لي من هو

الامير او الكبير الذي سيعهد الي في قتله وهو مقيم هنا ؟ اني لا اعرف كبراء هذا الحصن» .

قال : «هو ليس من كبرائنا وانما هو طارق جاءنا منذ يومين» .

فتذكر عماد الدين الركب الذين رآهم قادمين في ذلك السهل فقال: «رأيت ركبا قادما الى هذا الجبل منذ بضعة ايام لعله كان فيه ؟»

قال : «نعم هو جاء في ركب . اعلم اني أسر اليك امرا خطيرا» .

وخفض صوته ، فقال عماد الدين : «علمت ذلك ولكنني أستغرب قدوم هذا العدو ليلقي حياته بين يدي عدوه» .

قال : «ليس هو عدوا للشيخ بل هو من اصدقائه وأخص أخصائه . تفارقا وهما صغيران قبل ان تصير المشيخة الى مولانا راشد الدين . ولعلك تعلم ان مولانا هذا قبل ان صارت اليه الامامة كان يقيم في مكان اسمه (عقر السدن) وخدم شيخ الاسماعيلية في (الاموت) بالديلم ، وتفقه على يده في العلم والدين ، ثم انتقل الى سوريا ونزل في حلب وأخذ يعظ ويعلم واشتهر بالتقوى فتقاطر اليه الناس أفواجا . وكان يجلس على صخر ويعظهم وهو جامد كالصخر . وانما سحر الناس ببيانه فكثر اصحابه ومريدوه . وكان شيخ الاسماعيلية يومئذ رجلا اسمه ابو محمد فخافه على منصبه وبعث اليه من يقتله فاختفى في كهف قرب حلب وما زال مختفيا حتى ضعف امر ابي محمد فخلفه وانتقل الى هذا المكان . هذه خلاصة سيرة مولانا . فضيف اليوم من أعز اصدقائه الذين جاهدوا في نصرته ورافقه الى الكهف ثم شغل عنه بالاسفار . وعاد الان في مهمة لا أعلم ما هي ؛ فلاقاه مولانا احسن ملاقاة واختلى به غير مرة لا ادري ما دار بينهما خلالها ، لكن الشائع بين رجالنا ان مولانا فرح به كثيرا وانه من أعز اصدقائه . ومع ذلك فانه بعث الي بالامس سرا وأخبرني عن تقديره بسالتك حق قدرها وسألني اذا كنت تليق بمهمة

خطيرة فأكدت له اقتدارك على ذلك وانك راغب في مهمة يعهد فيهـــا اليك . ولم أكن احسب انها داخل هذا الحصن . فرأيته أبدى اهتماما كثيرا ووضع في ثقة كبرى وأسر الي بأنه يحب ان يتخلص من هـــذا الصديق القديم على يدك» .

وكان عماد الدين في اثناء حديث عبد الرحيم مصغيا يفكر في دهاء هذا الطاغية وكيف انه عمد الى الفتك بصديق قديم له ، لانه رأى بقاءه حجر عثرة في طريقه . فضعف اعتقاده بكرامته لانه لا يعرف ولاية او كرامة تأمر بخيانة الاصدقاء، وأخذ ظنه يتغير فيه . وأصبح يخافه على نفسه ، ولكنه لم يجسر على التصريح به فقال : «الحقيقة انها ثقة عظيمة في كلينا ، ولكن هل انت واثق ان الرجل المشار اليه كان من اصدقاء مولانا الشيخ ؟»

قال : «اني على ثقة تامة . وقد يخطر لك ان تنتقد عمل الشيخ لانه عمد الى قتل صديقه ولكنك ستحمد عمله بعد حين . فالآن».

فقطع كلامه قائلا : «ربما كان مصيبا بعمله من حيث دفاعه عن سلطته فأعذره عليه . لكنني اصبحت منذ الان اخاف على حياتي وحياتك» . قال ذلك بلحن التصريح عما في الضمير ولو تحت الخطر .

ووافق ذلك التصريح هوى في نفس عبد الرحيم فابتسم ابتسامـة المصادقة وقال : «لا ألومك على هذا الشك لانه خطر لي ايضا . وهناك أمور ظهرت لي بعد انتظامي في سلك المستنيرين ، ربما سنحت الفرصة لبيانها . وأما الان فالمطلوب ان تعلم المهمة التي سيعقد فيها اليك ، فلا تتردد في قبولها ، وسترى اني ناصح لك» .

- ١٠ -

مقتل أبي الحسن

مكث عماد الدين على مثل الجمر وهو يردد ما سمعه عن راشد الدين، وتغلبت عليه الشكوك في كراماته . لكنه ما زال مكبرا اقتداره . وبينما هو في ذلك اذ جاءه خادم للشيخ أصم أبكم مثل سائر خدمه . وانسا يقتني الصم والبكم للخدمة لئلا يفهموا شيئا مما يدور بينه وبين رجاله. فهم يحملون الاوامر بالاشارة . فلما جاء ذلك الابكم يطلبه مشى في أثره حتى دخل به على راشد الدين وهو في غرفة صغيرة ليس فيها سواه. وقد تخفف بعمامة صغيرة وجعل يتمشى ذهابا وايابا ويداه وراء ظهره وفيه عرج قليل .

فلما رآه عماد الدين ، سيطرت عليه الرهبة ووقف وقفة الاحترام . فأشار راشد الدين الى الحارس ان ينصرف . وأقفل الباب وراءه ولم يبق عنده الا عماد الدين . فدعاه الى ان يقترب منه ، وابتسم وقال له : «انظر في عيني» .

فنظر فاذا هما تلمعان ويكاد الشرر يتطاير منهما .

فقال راشد الدين : «ماذا ترى فيهما ؟»

فاستغرب سؤاله وقال : «لا ارى فيهما شيئا يا مولاي غير النور والذكاء » .

قال : «اما انا فأرى في عينيك اشياء كثيرة ، اني اقرأ فيهما ما يكنه ضميرك » .

فخاف عماد الدين ان يطلع راشد على ما خامره من الشكوك فيه فقال : «لا غرابة في ذلك فقد تحققناه من قبل» .

قال : «ويسرني اني تحققت صدق طاعتك واخلاصك ، ولذلك رأيت ان اسرع في مكافأتك وهذا لا يكون الا بمهمة تقضيها . ورغبة فـــي التعجيل جعلت ذلك قريبا هي هذا الحصن . فهمت ؟»

قال : «اني طوع امرك يا مولاي» .

قال : «ان في هذا البيت المنفرد داخل سور هذا الحصن اميرا كبيرا ينبغي ان يذهب منهذا العالم بلا ضوضاء ولا شكوى وان يكون ذلك على يدك . فما رأيك ؟»

فانحنى انحناء الطاعة وقال : «وهل للعبد رأي بين يدي مولاه ؟ انما يأمره فيفعل» .

فقبض على انامل عماد الدين بكفيه وأمره ان ينظر في عينيه ثم قال له : «أريد يا عبد الجبار ان تقتل الشيخ سليمان اللعين . تقتله وتخمد أنفاسه هكذا أريد» .

فأحس عماد الدين عند سماع ذلك الصوت على هذا الشكـــــل بقشعريرة جرت في عروقه . وكأن شرارة كهربائية تطايرت امام بصره . فأغمض جفنيه رغم ارادته . فقال راشد الدين : «قد احسنت يا عبد الجبار (عماد الدين) انك فاعل ما أريد وسوف تنال جزاء أمانتك . واعلم انك منذ الان خادم لسليمان او الشيخ سليمان كما يسمونه . فالبس لباس الخدم وغير قيافتك وابذل جهدك في ارضائه حتى تغتنم منه غرة تقتله فيها ولا يشعر احد بك . وأحب ان يكون ذلك خارج القلعة . وأنت عند ذلك من طبقة المستنيرين» . ثم ادنى شفتيه من اذنه وقال له : «ومع الرجل امرأة بارعة في الجمال ستكون غنيمة لك مع سائر ما يمتلكه من اثاث وغيره . ويمكنك التعويل على صديقك ولدنا عبد الرحيم فـــي بعض التفصيل . وهذا يكفي ، امض الان الى نائبنا الشيخ دبوس وهو يتم تجهيزك بما يلزم » . قال ذلك وترك انامله فودعه وخرج وهـــو

يرتجف من عظم التأثر وأخذ يفكر فيمن عساه ان يكون سليمان هذا . ولم يهمه ان تكون امرأته جميلة وهو لا يرضى من سيدة الملك بديلا .

سار توا الى الشيخ دبوس ولم يحتج في تفهيمه الى كلام لان هذا كان على بينة مما يطلب منه فحال دخوله عليه قال له : «ادخل يا عبد الجبار واقفل الباب» .

فدخل ونهض الشيخ دبوس بنفسه فأعطاه لباس الخدم وأصلح شعره وقيافته بحيث تغير شكله كثيرا ودفع اليه كتابا وقال له : «تأخذ هذا الكتاب الى ذلك المنزل وتكون خادما لصاحبه كما امرك مولانا الشيخ الاكبر ، أفهمت ؟»

فأشار مطيعا وخرج وهو كالخادم تماما . وقبل خروجه نظر الى وجهه في المرآة فأنكر نفسه . ونظر في بطاقة الشيخ دبوس الى سليمان وهو يتردد في ذهابه ويقول في نفسه : «كيف اقتل هذا الرجل ولا ثأر بيني وبينه ؟» . ثم خطر له قول عبد الرحيم انه سيجد في قتله راحة فوقع في حيرة .

وما عتم ان وصل الى المنزل الذي ذكروه له فوجد الباب مقفلا . فأخذ في البحث عن الشيخ سليمان في ذلك الجوار فلم يقف له على خبر ، فقعد على صخر في ظل البيت ينتظر قدومه لعله ذهب في حاجة لا يلبث ان يعود منها . واستغرق في هواجسه وتفقد الخنجر الذي خبأه في ثوبه لاستعماله عند سنوح الفرصة . لكنه ما زال يتردد في امر القتل .

وفيما هو في ذلك اذ رأى رجلا قادما عن بعد وعلى رأسه عمامة خضراء اللون كبيرة الحجم وقد ارسل شعره تحتها حول رأسه الى كتفيه وتزمل بجبة طويلة وعلق في صدره سبحة طويلة وحمل سبحة اخرى بيده يعدد حباتها ويتمتم كأنه يصلي او يدعو كما يفعل المنقطعون عن العالم الى الصلوات والدعوات ، فتحقق انه الشيخ سليمان لا محالة ، فجعل

يراقب حركاته وهو قادم حتى دنا منه فتقدم اليه وهم بتقبيل يديه ودفع اليه بطاقة الشيخ دبوس فتناولها وفضها وقرأها وهو لم ينظر الى عماد الدين بعد . فلما أتم قراءتها رفع بصره اليه وقال : «يقول اخونا الشيخ دبوس ان مولانا الشيخ الاكبر بعثك لخدمتنا» .

قال : «نعم يا سيدي وهل يتم لي هذا الحظ ؟»

قال : «انني في غنى عن الخدم لاني احب الخلوة بنفسي للصلاة والدعاء وطعامنا يأتينا من مطبخ الجماعة . فما هي الحاجة الى الخدم ؟»

وكان عماد الدين يسمع قوله وهو يتفرس في سحنته كأنه رأى ذلك الوجه وسمع ذلك الصوت من قبل . فلما فرغ الشيخ سليمان من قوله اجابه عماد الدين : «قد امرني الاستاذ الاكبر ان اقف بباب مولاي اخدمه بما يحتاج اليه فان كان في شاغل بالصلاة او غيرها فلا شأن لي به ، وانما ألبي امره اذا امرني فأجلب له الطعام او ما يحتاج اليه من الامور» .

قال : «حسنا . ما هو اسمك ؟» . قال : «عبد الجبار» .

قال : «اقعد هنا واني شاكر لاخينا الشيخ فضله . وعلى كل حال لا حاجة لي بك في الليل فاذا غابت الشمس انصرف الى مكانك» .

ومشى نحو الباب وتناول المفتاح ليفتحه وعماد الدين يراقب حركاته ويبحث في ذاكرته عما يعرفه عن ذلك الرجل وأين رآه في دمشق او القدس او مصر فلم يخطر له شخص يعرفه بهذا الاسم .

دخل الشيخ سليمان المنزل وظل عماد الدين جالسا على حجر وقد شغل خاطره بأمر هذا الرجل . ولم يتذكر اين رآه فظن نفسه واهما في تصوره ، فصرف فكره عنه وعاد الى التفكير في صلاح الدين والخروج من ذلك الحصن ليخبره بما علمه وليرى سدة الملك على فراغ واطمئنان .

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فذهب ليأتيه بالعشاء وكانوا

قد أعدوه له في أطباق فحملها فوق رأسه حتى اتى الباب وقرعه وطال انتظاره قبل ان يفتحه له . ولما فتحه تناول الطعام منه وأدخله بيده ودفع اليه دينارا وقال له: «قد جاء الغروب فانصرف الى شأنك يا عبد الجبار».

فتناول الدينار وأظهر الامتنان وانصرف وهو يفكر في امر هذا الرجل وحرصه الشديد على منزله حتى لا يأذن لخادمه بالدخول اليه . وفيما هو في الطريق لقيه عبد الرحيم فسلم عليه وسأله عما جرى فأخبره بما شاهده وما استغربه من حال الشيخ سليمان ، فضحك عبد الرحيم وقال : «لم يسمح لك بالدخول ، لا بأس ؟. ألم تتذكر انك تعرفه من قبل» .

قال : «تصورت اول وهلة اني رأيت ذلك الوجه او على الاقل سمعت ذلك الصوت . لكنني غيرت فكري لاني وجدت نفسي واهما».

فقال وهو يحك عثنونه ويخفي ضحكة : «قد تكون واهما وستبدو لك الحقيقة بعد قليل . لكن كيف اشار بانصرافك الان وهو قد يحتاج اليك في الليل ؟»

قال : «لا ادري ويظهر لي انه يكتم اشياء لا يحب ان أطلع عليها . أظنك عرفت عنه شيئا لم تقصه علي» .

قال عبد الرحيم : «عرفت عنه اشياء كثيرة لا اقدر ان ابوح بها كما تعلم ، لكنني اقدر ان اقول لك بأنه من اصحاب المطامع السياسية وهي التي ستجر اليه حتفه ، ويظهر لي انه اراد ان يشارك شيخنا سلطانه ، او انه طلب منه أمورا لا يوافقه عليها . وهو يعرفه صغيرا فخاف اذا اغضبه ان يشيع عنه أمورا تقلل من هيبته فأحب التخلص منه . هذا هو الذي لحظته الى الان وسترى الحقيقة وأنت أولى مني بكشفها» .

فقال : «هذا اول يوم رأيته فيه وقد صرفني ساعة الغروب وسأعود اليه في صباح الغد» .

قال : «هب الله صرفك فيمكنك ان تبقى قريبا من منزله لعله يحتاج اليك او لعلك ترى فرصة مناسبة للقيام بمهمتك» .

وكانا ماشيين وقد اخذت الظلال تتكاثف وأوشك الظلام ان يسدل نقابه . فقال عماد الدين : «الى اين نحن ذاهبان الان ؟» . قال : «الى حيث تشاء» .

قال : «احب ان أحادثك في بعض الامور» . قال : «تعال الى غرفتي انها على مقربة من هذا المكان» . ومشى حتى دخل الغرفة وفيها مصباح ضعيف اضاءه له بعض الخدم . فقال عماد الدين : «احب ان نكـــون في خلوة» .

فأومأ عبد الرحيم الى خادمه بالانصراف وقعد . وآشار الى صديقه ان يقعد فقعد وهو يتنهد . فقال له عبد الرحيم : «مالك يا صاحبي لماذا تتنهد ؟ »

قال : «أتنهد يا اخي لاني اشعر كأني في قفص لا ارى لي منـــه مخرجا وقد أطعتك في كل شيء كما رأيت ولا يسكنني ان انكر صدق نصيحتك لي كل مرة . لكنك تعلم ايضا اني لا أقدر على البقاء هنـــا طويلا ولي في مصر اناس ينتظرون رجوعي و ...» . وسكت .

فأدرك عبد الرحيم ما يعنيه فقال : «أتريد ان تخرج من هذا الحصن؟»

قال : «نعم أريد ذلك . ارجو ان تساعدني عليه» .

قال : «وعدتك اني فاعل ما تريد ولكل أجل كتاب . اني مدبر طريقة لخروجنا كلينا» .

ففرح عماد الدين بهذه البشرى وقال : «وأنت ايضا عازم علـــى الخروج ؟» . قال : «نعم وربما اتفق خروجنا معا» .

قال : «هذا هو الافضل . وقد اطمأن بالي الان . وان كنت لا اعرف سبب رغبتك في الخروج بعد ان صرت من خاصة الاسماعيلية

واطلعت على اسرارها» •

فأشار اليه بسبابته على فمه ان يسكت وقال : «سوف تتكلم عن ذلك في فرصة اخرى • اما من حيث رغبتك في الخروج فتدبيره علي حالما تفرغ من مهمتك • تعال الي فتجدني هنا في اكثر الاوقات وانما يطلب منك ان تسهر على مهمتك المعلومة» •

قال : «حسنا ، اني ذاهب كما قلت» • وأشار الى خصره وقال : «وهذا هو الخنجر الذي سأغمده في صدر الشيخ لغير ذنب لـــــه عندي» • ثم استأنف الكلام قائلا : «ولكن الشيخ راشد قال لي ان للرجل زوجة ستكون غنيمة لي فهل هي معه في هذا المنزل • وقد أوعز الي الشيخ ان أعول عليك في بعض التفاصيل فما هو رأيك ؟»

قال : «رأيي ان تفتك بهذا الشيخ في اول فرصة • اما امرأته التي اشار اليها شيخنا فليست هنا • وانما هي في منزل خارج الحصن بجوار القرية القريبة منه مع سائر اهله وخدمه» •

قال : «وسمعت من شيخنا انه يفضل ان اقتله خارج الحصن • فهل هو يذهب الى هناك ؟»

قال : «قد أذن له في الذهاب متى شاء وهو يذهب كل ليلة تقريبا • فالافضل ان تغتنم وجوده خارجا وتقضي عليه ومتى قتلته اصبحت امرأته وسائر ما يملكه حلالا لك» •

فقال عماد الدين : «اسمح لي ان استشيرك في امر اخر • ما قولك اذا قضيت مهمتي وأنا خارج هذا الحصن في ان ابقى خارجا وأنصرف»•

قال : «نعم الرأي هو • وأنا اتبعك على عجل» •

فقال : «وكيف تعلم اني فرغت من مهمتي ؟» • قال : «متى صرت في اخر هذا السهل أوقد مشعلا مزدوجا وحالما ارى المشعل من هنا اخرج اليك ونذهب معا» •

فانبسطت نفس عماد الدين لهذا الرأي وهم بالانصراف فأمسكه عبد الرحيم وجذبه اليه وقال : «احذر ان تحدثك نفسك وأنت خارج الحصن ان تفر من غير ان تقتل الشيخ سليمان . بل يجب ان تقتله ولو لم تستطع الفرار . اسمع نصحي هذه المرة ايضا» .

قال : «حسنا سأفعل ما تقول ، ولكن هل اقدر على الخروج من باب الحصن بلا اذن ؟»

قال : «اذا داهمك الوقت قبل ان أستأذن لك يكفي ان تقول للبواب كلمة الخروج فيفتح لك الباب» .

قال : «وما هي هذه الكلمة ؟» . قال : «قل له : (حسن بن الصباح في الاموت) فيطلق سراحك» .

قال : «بارك الله فيك ــ قد انشرح صدري الان وسأذكر لك هذا الفضل في جملة افضالك» . قال ذلك ومشى نحو منزل الشيخ سليمان وقد اشتد الظلام . فلما دنا من المنزل رأى ذلك الشيخ خارجا منه وبيده مصباح .

فتقدم كأنه رآه مصادفة وحياه وأكب على يده يقبلها وقال : «كيف تحمل المصباح بيدك وأنا خادمك قد امرني مولانا الشيخ بخدمتك ؟» . قال ذلك وتناول المصباح منه ومشى بين يديه حتى دنا من الباب ففتحوه له . فأحب الشيخ ان يسترجع المصباح منه فأبى ان يعطيه اياه تخفيفا للثقلة عنه وقال : «اذا علم مولانا الشيخ الاكبر اني لم اقم بحق خدمتك غضب علي وعنفني» .

فأطاعه ومشى ولم يعترضه احد لانه ذكر كلمة الخروج للبواب . ومشى بين يدي الشيخ والطريق اكثره منحدر حتى اذا فرغ من الانحدار وقف الشيخ وقال : «بارك الله فيك هات المصباح . انني على مقربة من منزلي» .

قال : «اني اسير بين يديك الى باب المنزل» •

قال : «لا حاجة الى تعبك • هذا هو المنزل» • وأشار باصبعه الى نور ضعيف لا يظهر سواه في ذلك السهل •

فقال : «بل اسير معك حسب امر مولاي» •

فوقف الشيخ ومد يده ليتناول المصباح منه فامتنع عماد الدين عن ان يناوله اياه فغضب الشيخ وقال بانتهار : «هات المصباح يا غلام • وانصرف لسبيلك» •

فقال عماد الدين : «أهذا جزاء من يريد القيام بخدمتك ؟» • قال ذلك واستل خنجره وأغمده في قلبه • فوضع الشيخ كفه على موضع الضربة وصاح : «آه • قتلتني يا لعين • ويلاه آه • ماذا فعلت معك ؟»

فهم عماد الدين ان يثني الضربة فأمسكه بيده الاخرى وهي ترتعد وقال : «هذه الطعنة تكفي لقتلي ، فأغمد الثانية في صدر تلك الخائنة• انظر • اني مسامحك على قتلي ، لاني أستحق القتل ، ولكن هناك امرأة، هناك في هذا المنزل حيث ترى النور امرأة أحق بالقتل مني !• بالله ألا ذهبت اليها وقتلتها ، وخذ ما في جيبي من النقود والجواهر مكافأة لك» • قال ذلك وسقط وعماد الدين يستغرب قوله فأكب عليه وفتش جيبه فوجد فيه اوراقا ونقودا وجواهر استخرجها وتركه يتخبط في دمه •

* * *

مشى وهو يفكر في هل يذهب الى دلك المنزل ام يسير توا الى مصر ومعه النقود • فترجح لديه الذهاب الى مصر مخافة ان يكون في ذهابه الى المنزل ما يعيقه عن المسير او ربما بعث راشد الدين في استقدامه ليعود الى الحصن • وقد كان في عزمه ان يفر قبل قتل الرجل لو لم يلح عليه عبد الرحيم بقتله فأطاعه وهو لا يعلم السبب لكنه استخلصه ورأى في

طاعته خيرا .

فلما رجح الفرار وقف يفكر في الطريق المؤدي الى مصر وقد اشتد الظلام وهو لا يميز الطرق ولا يعرف الجهات . وتذكر وصية القتيل وغرابتها واستنتج منها انه ناقم على امرأة يريد قتلها . فرأى ان يذهب الى المنزل ويستدل من هناك على الطريق . فمسح خنجره وأغمده وأصلح من شأنه وأطفأ المصباح حتى لا يراه احد ومشى نحو النور . ولما اقترب من المنزل جعل خطاه خفيفة كأنه يتلمس الطريق . وأصغى بسمعه وتطاول بعنقه . وخطا خطوات قليلة حتى اوشك ان يدق الباب. فسمع رجلا يخاطب رفيقا له في ذلك البيت قائلا : «ألم تر مصباح الشيخ ؟ »

فأجابه الاخر : «رأيت مصباحا منذ هنيهة على بعد يشبه مصباحه» .

قال : «بل هو بعينه ثم انطفأ . ماذا جرى له يا ترى ؟»

قال : «لا تخف عليه . انه طويل العمر» .

قال : «أراك تحسده على حياته وهو من أشقى خلق الله» .

قال : «صدقت لم أر أشقى حياة منه» .

فقطع الاخر كلامه قائلا : «بل اشقى منه هذه المسكينة التي لا يبرح يعذبها ويضربها و ...» .

فقال : «صدقت ، مسكينة ا. ان قلبي يتقطع عليها احيانا . وكم حدثتني نفسي ان أنتصر لها ..» .

فقال ذاك : «مالنا ولها ؟. انما نحن نلتفت الى مصلحتنا ؛ فاذا وفى لنا بما وعدنا به حصلنا على السعادة الحقيقية . اذ نصير من كبار الامراء ! أليس كذلك ؟»

فقال الاخر : «هل تعتقد كل ما يقوله الشيخ صحيحا ؟»

فقال : «اذا لم يصح الا بعضه فاننا نكون سعداء !. يظهر انك لم

تفهم حقيقة مهمته عند شيخ الاسماعيلية» •

قال : «فهمتها ، كيف لا أفهمها ؟»

قال : «لا • لم تفهمها كما هي • اعلم ان مولانا الشيخ هذا كان صديقا للشيخ راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية الان قبل ان صار رئيسا ، وقد اعانه وارتكب معه أمورا كثيرة حتى تمكن راشد الدين من هذه الرياسة • فحسده صاحبنا فأراد ان يعمل عملا يفوق به على صاحبه فذهب الى مصر وطمع في الخلافة !»

فضحك الاخر وقال : «الخلافة ؟!»

قال : «نعم طمع ان يكون خليفة وسمى نفسه أبا الحسن وادعى النسب الفاطمي وصدقه الناس • ولما مات خليفة مصر العاضد بايعه جماعة من المصريين • ثم انكشف امره لصلاح الدين وقبض على رفاقه ونجا هو بنفسه وجاء الشام • وأنت تعلم ما جرى بعد ذلك ، وكيف كلف بعض الفدائيين الذين يقتلون القتيل بدرهمين فاختطفوا له هذه المرأة من بيتها وهي تكرهه ولا تطيق ان تراه» •

فقطع الاخر كلامه وقال همسا : «احذر ان تذكر الفدائيين بسوء • فاننا في دارهم • وأما هذه المرأة فأنت لا تعرف من هي : مسكينة كم قاست منه قبحه الله ! لا اظن لها نجاة الا بموته» •

فضحك ذاك وقال : «انه طويل الحياة ، لا خوف عليه ولاسيما اذا نجح في مهمته عند راشد الدين ، والحق يقال انه يحب هذه المرأة ويعدها بكل خير اذا احبته • لكنها لا تحبه ، ولذلك يعذبها» •

ففهم عماد من هذا الحديث انه قتل ابا الحسن ، لكنه لم يكن يعرف علاقته بسيدة الملك ، وانما يعرف انه من الخارجين على صلاح الدين وانه نجا من القتل • فرقص قلبه فرحا لانه سيذهب الى صلاح الدين بخبرين مهمين : الاول ذهاب الخطر على حياته من راشد الدين والثاني

انه نجا من ابي الحسن . لكنه سمع في اثناء الحديث انه يعذب امرأته حتى اشفق عليها الخدم . وتذكر ان ابا الحسن امره بقتلها وأجازه على ذلك . وكان عماد الدين قد اصبح بعد تعلقه بسيدة الملك يشفق على كل انثى لاجلها . فأحس بميل الى انقاذ هذه المسكينة . فتقدم الى الباب وطرقه فأجفل الرجلان وصاح احدهما : «من الطارق ؟» وقال ارفيقه : «لعله مولانا الشيخ سليمان الم اقل لك اني رأيت مصباحه ؟»

فقال عماد الدين : «اني رسول من الشيخ سليمان» .

ففتح احدهما الباب ودخل الاخر فأتى بالنور وأدناه من وجه عماد الدين فرأياه ورآهما فلم يذكر انه يعرف احدهما ، لكنه عرف من زيهما انهما من اهل دمشق وكان قد لحظ ذلك من لهجتهما . وكلاهما في حدود الكهولة فتقدم احدهما وقال لعماد الدين : «ماذا تريد ؟»

قال : «بعثني الشيخ سليمان في مهمة ومعي هذا المصباح علامة لصدق الرسالة فانطفأ في اثناء الطريق» .

قال : «صدقت وما الذي تريده ؟»

قال : «أمرني ان آتيه بأمرأته على بغلتها وهو في انتظارها بباب الحصن» .

فالتفت الرجلان احدهما الى الاخر لفتة الاستغراب ولسان حالهما يقول : «كيف يبعث الشيخ يطلب امرأته على بغلتها الى الحصن وما الذي يريده منها هناك ؟» . فقال احدهما : «وهل يطلب امرأته وحدها ؟»

قال : «يطلبها مع ما تريد حمله من متاعها وثيابها» .

قال : «علينا ان نبلغها الرسالة» . ودخل الرجل والنور بيده وظل عماد الدين واقفا وقد اصاخ بسمعه . وأول شيء سمعه قبل وصول الرسول انين وتأوه وصوت ضعيف يقول : «ويلك من الله يا خائن .. ألا تخاف العقاب يوم الدين ؟ اين يا موت . متى تأتي ساعتي وأتخلص

من هذه الحياة .. آه .. ما بالهم يتآمرون علي ؟»

ولما سمع عماد الدين ذلك الصوت اقشعر بدنه لانه كثير الشبـــه بصوت سيدة الملك . وحدثته نفسه ان يتقدم ليراها ولكنه صبر ليسمع ما يدور بينها وبين الخادم . فاذا هو يقول لها : «ان سيدي الشيخ بعث يطلب مولاتي اليه في هذا الحصن» .

فصاحت فيه : «الى اين ؟ من هو سيدك هذا ما بالكم تزعجونني بالاسئلة . دعوني انم لحظة لكي انسى فيها مصائبي» .

قال : «لا تغضبي يا سيدتي ، ان مولاي بعث رسولا خاصا من خدمة الشيخ راشد الدين لكي يحملك اليه بما تريدين حمله من متاعـــك وثيابك و ..»

فقالت : «لا . لا اذهب الا محمولة على خشبة . دعوني منه . لعنة الله عليه . ويا ويله من الله ومن يوم الدين . آه . آه . حملني الى بلاد ليس فيها من يعرفني ولم يشفق على قلبي .. آه .. كل بلائي من هذا القلب !»

وأصبح عماد الدين يرتعد من عظم التأثر لان الصوت صوت سيدة الملك . ولو كان عالما بما بينها وبين ابي الحسن لما شك في انها هي ، لكنه استبعد وصولها الى هناك وهي في ظل صلاح الدين . وانما ارتعد انتصارا لامرأة مظلومة اكراما لحبيبته لانها من جنسها . وزادت نقمته لان صوتها يشبه صوتها . ثم سمع الرجل يخاطبها قائلا : «والآن يـــا سيدتي ماذا تريدين ان نفعل ؟ لا بد لنا من اخذك اليه حسب امره وهذا رسوله واقف بالباب وليس في الامكان رد طلبه ، فالاوفق ان تنهضي راضية » .

فلما سمعت تهديده صاحت صيحة وقف لها شعر عماد الدين قائلة : «أتهددونني بالاخذ قهرا ؟» يريد هذا الشقي ان يحملني على أيـــدي

اللصوص كما خطفني من مصر بأيدي أتباعه قبل الآن ؟» . ثم خفضت صوتها وغصت بدموعها وقالت : «ولكن الله بعث الي في تلك المرة ملاكا شجاعا أنقذني من مخالب الموت وأنقذ شرفي وحياتي» . ثم تنهــدت وقالت : «آه . اين انت يا عماد الدين ؟»

فلما سمع عماد الدين نداءها لم يتمالك عن الوثوب كالاسد الكاسر وقد تحقق ان تلك المظلومة حبيبته سيدة الملك وأجابها : «لبيك . لبيك. يا سيدتي» .

وما لبثت بعد ان سمعت صوته حتى رأته امامها وقد ازاح الخادم يده وتقدم نحوها وهو يقول : «مولاتي سيدة الملك انت هنا في هذا العــذاب ؟ »

فشخصت اليه شخوص الابله كأنها أصيبت بجنة وقد جمــــدت عيناها وعقد لسانها ولم تعد تستطيع النطق ، لكنها تماسكت وتوهمت نفسها في حلم فقالت وصوتها يتقطع وهو مختنق : «عماد الديـــــن ؟ عماد .. الدين ؟! آه .. يا ليت ذلك كان في يقظة !»

وغطت وجهها بكفيها وأخذت في البكاء ، فتقدم عماد الدين نحوها وقد تقطع قلبه لرؤيتها وهي في شدة الضعف ، ولو انه شاهدها بدون ان تناديه لما عرفها ، فأمسك بيدها وقال : «انت في يقظة يا سيدتي . انا عماد الدين . انت في يقظة وروحي فداك فلا تخافي» .

فلما سمعت صوته فتحت عينيها والدمع يغشاهما ونظرت اليه وهو في زي غير زيه . لكنها عرفت صوته وتفرست في وجهه وهي لا ترى شيئا من الدمع فمسحت عينيها بكمها فعرفت عينيه فصاحت: «عماد الدين! انت عماد الدين ؟ من ارسلك الي ؟. لا . لا . لست عماد الدين . انت خادم ذلك الخائن جئت لتأخذني اليه . بالله قل لي ، هــــــل انت عماد الدين ؟» . وضحكت كالابله المعتوه وقالت : «انت عماد الدين ؟.

ان المعجزات لا تتكرر • نعم اتى عماد الدين لانقاذي في مثل هذا الضيق فيا ليته يأتي الان» • ثم سكتت كأنها استرجعت رشدها ومسحت عينيها ثانية ونظرت الى عماد الدين نظر متفرس وهو جاث بين يديها وعيناه شاخصتان في عينيها وقلبه يتفطر • فما لبثت ان تحققت انها تـرى عماد الدين فصاحت ملء فيها : «عماد الدين ! عماد الدين !» • وترامت عليه وقد أغمي عليها • فأنهضها وتراكض الخدم بالماء فرشها به وأخذ يمسح وجهها وعينيها بمنديله ، وسقاها جرعة من الماء فانتعشت وأعادت النظر الى عماد الدين وهي تضحك ضحك طفل استرجع شيئا كان يبكي لفراقه •

لكن تلك الضحكة ابكت عماد الدين وقد شق عليه ان يرى تلك الملكة اخت الخليفة قد ذهب ملكها وصارت اسيرة في حيازة صلاح الدين تم سيقت كرها مع ذلك الشيخ اللعين ، لكنه حالما تذكر انه قتله سري عنه وعاد الى تطمين سيدة الملك وقال : «صدقت اني يا سيدتي عبدك عماد الدين» •

فصاحت : «ألا تزال تقول انك عبدي انت سيدي وتاج راسي • انت منقذي من الموت والعار مرتين • انت روحي • انت حياتي • انت•• آه •• دعني لقد خلعت العذار» • وغطت عينيها خجلا •

فانتبه عماد الدين لوجود ذينك الخادمين وكان قد عرف كرههما لابي الحسن وشفقتهما على سيدة الملك فقال لكبيرهما : «ربما استغربتما ما رأيتماه في هذه الليلة وقد علمت انكما ناقمان على ذلك الشرير ، وان قلبيكما مع هذه ، أليس كذلك ؟» • قال ذلك ومد يده الى جيبه وفيه نقود ابي الحسن وأعطاهما بلا حساب •

فأعجبهما كرمه وأريحيته وأجابه احدهما : «صدقت ، ويظهر انك لست خادما كما ادعيت ، بل انت امير أرسلك الله لانقاذ هذه السيدة ،

انها قطعت قلبينا وأوشكنا ان نأخذ بيدها ونخلصها من ذلك الظالم» •

فقال : «اذن انتما مسروران بنجاتها» •

قال : «ونحن رهينا الاشارة في اي خدمة تريدها منا ولو كانت قتل ذلك اللعين» •

قال : «لا حاجة الى قتله فقد كفانا الله شره في هذه الليلة • وهذه النقود التي كانت معه اعطيتكم بعضها وهذا البعض الاخر» • ودفع اليهما دفعة اخرى •

فزادهما دهشة فقال احدهما : «قتلته ؟• لا رحمه الله» •

وكانت سيدة الملك تنظر الى عماد الدين وهو يخاطب الرجلين نظر الاعجاب والحب وعيناها غائرتان من الضعف والهزال وقد امتقع لونها• فلما سمعت التحدث بقتل ابي الحسن قبضت على عماد الدين واجتذبته نحوها وهي تقول : «قتلته ؟»

قال : «نعم • وكنت أود اني عرفته قبل قتله لاشبعه قتلا وأخبره وهو في حشرجة الموت اني قتلته في سبيل طاعتك انتقاما لفظاعته» •

وقص عليها عماد الدين مهمته لمصلحة صلاح الدين وما قاساه من العناء وكيف انتهت بالفوز وأصبح صلاح الدين في مأمن من الفدائيين، فلما سمعت اسم صلاح الدين أشرق وجهها وقالت : «بارك الله في صلاح الدين انه نادر المثال» • فضحك وقال : «ألم اقل لك ذلك في اخر ليلة رأيتك فيها وأنت ناقمة عليه ؟»

قالت : «لم اكن اعرفه • وفي كل حال فاني أمتدح مروءته وعلو همته • وأما انت فكنت تمتدحه في معرض اخر •• فهو في ذلك المعرض ما زال حكمي عليه كما كان ، ولاسيما اذا قابلته بعماد الدين» •

وضحكت وكانت تتكلم وعيناها شاخصتان فيه تكاد تتلقفه بهما •

ثم جاء الخادمان وقد أعدا الركائب وشدا الاحمال فركبوا جميعا

وقد توسط الليل وأطل القمر من وراء جبل السماق • فتذكر عماد الدين صديقه عبد الرحيم وما اوصاه به فلما أمعن في السهل امر الرجلين ان يوقدا مشعالا مزدوجا ففعلا •

- ١١ -

هناء الحبيبين

وسار الركب وبغلة سيدة الملك بجانب فرس عماد الدين وهما يقصان ما جرى لهما في تلك المدة الطويلة ، والمحب اذا غاب عن حبيبه ساعة عاد ومعه عدة حكايات يرويها ، وهو يرى في ذلك لذة خاصة لا يشعر بها غير المحبين • والغريب ان المحب لا يصبر على كتمان شيء عن حبيبه كأنه يرى في كتمانه خيانة او كأن قلبيهما يطلبان المكاشفة في كل شيء • فكما يتشاكيان ويتعاتبان • فهما ايضا يلذ لهما نقل ما في قلب الواحد الى قلب الاخر من حب او فكر او حكاية او حديث•

وفيما هم في ذلك وقد بعدوا عن جبل السماق سمعوا وقع حوافر جواد وراءهم وكان عماد الدين لا يفتر يترقب سماع ذلك التماسا لمجيء صديقه عبد الرحيم وقد اصبح في شوق لرؤيته ليستطلع منه ما لمح اليه به وهما في الحصن •

فلما سمع وقع حوافر الفرس تباطأ في المسير ووقفت معه سيدة الملك • فأشار اليها ان تبقى سائرة والخادمان يتبعانها فمشت وتأخر هو لحظة فوجد صديقه عبد الرحيم يسوق فرسه كأن وراءه اناسا يطاردونه

فناداه : « عبد الرحيم » . فأجابه : «عماد الدين ؟» . قال : «ما وراءك؟ اراك مسرعا هل عليك بأس ؟»

قال : «كلا . لكنني خفت عليكم» .

قال : «وما الذي اخافك علينا ؟ اننا في أمان» .

قال : «كنت في أثرك ساعة طعنت ذلك اللعين الطعنة القاضية وتربصت بعد ذلك وأنا اراقب حركاتك حتى علمت انك دخلت منزله ثم طال انتظاري ولم أشاهد مشعالك فخفت ان تكون قد أصبت بسوء ، فركبت نحو المنزل من طريق اخر فلم اجد هناك احدا ثم رأيت المشعال فهرعت اليك هل عليكم بأس ؟»

قال : «لا بأس علينا والحمد لله بل نحن في خير وبركة» .

قال : «هلا علمت من هو الشيخ سليمان الذي قتلته ؟»

قال : «نعم علمت انه ابو الحسن صاحب ثورة القاهرة التي ذهبت بسببها الى مصر بتلك الرسالة المباركة وجئتني بذلك الجواب الثمين وقد ظهر لي من الحاحك علي في قتله ان في الامر سرا ، وقد ظهر الان انك اعنتني على التخلص من هذا الشرير ، وهذه بشرى سنزفها الى مولاي صلاح الدين ولك الفضل فيها» .

قال : «وسنزف اليه بشرى اخرى بأن حياته في مأمن من غائلة الاسماعيليين» . قال : «طبعا . وسأزف اليه واليك بشرى هي في نظري اهم مما تقدم» . فقال : «وما هي ؟»

قال : «لم تسألني عن هؤلاء الرفاق من هم ؟»

قال : «كنت عازما على سؤالك ، لكنني تنبأت بأنهم زوجة ذلك الشرير وخادماها وهي الان زوجك طبعا» .

قال : «لا . لا . لم تكن له زوجة قط» . قال : «من هي اذن ؟»

قال : «أتذكر الرسالة التي جئتني بها من القاهرة والسيدة التي

خاطبتك وذكرت لي اعجابك بلطفها وكمالها ؟»

قال بدهشة : «سيدة الملك ، اخت الخليفة ؟»

قال : «نعم ، سيدة الملك • اختطفها هذا الخائن على يد بعض الفدائيين اصحابنا وجاء بها الى هنا تحت العذاب الشديد وقدر لي ان انقذها» • فقال : «هذه الراكبة على البغلة سيدة الملك ؟»

قال : «نعم ، هل تريد ان تراها ؟»

قال : «كيف لا •• ولكن تمهل قليلا ريثما نصل الى مكان ننزل فيه عند الفجر • اذ لا بد من الراحة» •

قال : «هل انت ذاهب معنا الى مصر ؟»

قال : «اذا كنتم تقبلونني» •

فأسرع في الجواب بلهفة قائلا : «ان ذلك يكون من حسن طالعي• كم احب ان تكون معي فنعيش معا لعلي أقدر على مكافأتك ، وسأخبر السلطان صلاح الدين بما كان من فضلك في اتمام هذه المهمة ، وهي بشرى رابعة آزفها اليه • ولكن كيف تركت طائفة الاسماعيلية بعد ان صرت من كبار رجالها وصارت لك هذه الدالة على رئيسها العجيب الغريب • اني لا انسى ما شاهدته من المدهشات في هذين اليومين» •

فتنهد وقال : «لو لم أرتق الى درجة المستنيرين لم يخطر ببالي ان أعتزل هذه الطائفة • ألم تنتبه الى تغيري بعد هذا الارتقاء ، او بقيت فدائيا لظللت مشتاقا الى الارتقاء والاطلاع على الاسرار • فلما اطلعت عليها رأيتني كنت مغشوشا وندمت على دخولي» •

فقال : «يا للعجب • لماذا لم يفعل ذلك الذين ترقوا الى مثل هذه الدرجة قبلك ؟»

قال : «لانهم يرون في بقائهم ما يسد مطامعهم من الملذات وأسباب السعادة البدنية • لا يهمهم ان يتم لهم ذلك بتضحية الشبان الشجعان

والفدائيين أمثالك . اما انا فلا احب هذه العيشة بما فيها من الغدر» .

فأطرق عماد الدين وتشاغل بتمشيط عرف فرسه بأنامله . ثم قال : «ألا تزال تعتقد كرامة الشيخ راشد الدين ومعجزاته ؟»

قال : «كنت أعتقدها حتى ارتقيت وعرفت سرها فأنكرتها ، وفي الدنيا كثير من الظواهر المدهشة اذا عرفت سرها احتقرتها» .

قال : «اني شديد الرغبة في معرفة سر ما شاهدت من معجزات الرجل» .

قال : «اني اعذرك ، وقد كنت أود ان أكاشفك بسرها لولا انني اقسمت الايمان المغلظة على الاحتفاظ بها وأنت لا ترضى لي الحنث باليمين . لاني وان تركت الجمعية وتخليت عنها فلم أتخل عن شرفي وضميري . لكن هذه المعجزات ليس فيها شيء من الخوارق التي لا يقدر عليها الناس ، وليست من قبيل الوحي الالاهي او المقدرة الخاصة كما كنا نظن . والآن قد دنونا من محطة فيها ماء وخان أعرف صاحبه ، فأرى ان ننزل هنا ريثما نستريح ثم نستأنف المسير» .

فأسرع عماد الدين الى سيدة الملك وأخبرها برأي رفيقه عبد الرحيم فوافقت عليه وكان الفجر قد لاح فنزلوا . وتقدم عماد الدين ومعه عبد الرحيم الى سيدة الملك فقدمه لها وأخبرها عن فضله في نجاح مهمته فأثنت عليه كثيرا .

فلنتركهم جميعا يستريحون ولنعد الى القاهرة فقد طال سكوتنا عن اهلها . تركناهم بعد صلب عمارة وأصحابه المتآمرين وخروج رسول عماد الدين (عبد الرحيم) بالكتاب والجواهر الى بيت المقدس . وقد اطمأن بال سيدة الملك وسرها انها خطرت ببال حبيبها . وقد ذكرنا ما كان من نقمة ابي الحسن بعد فشله في دمشق . وانه اصبح همه الانتقام من سيدة الملك بأي وجه كان فأغرى بعض الاشقياء من الفدائيين على

الاحتيال لاختطافها وذهب هو الى مصر • فاغتنموا خروجها مع حاضنتها الى البساتين على مقربة من قصر صلاح الدين واختطفوها كما تقدم وسقطت ياقوتة وقد أغمي عليها ولم تفق الا بعد ساعات • وكان اللصوص قد نجوا بغنيمتهم ، فأخبرت قراقوش بذلك فأطلع صلاح الدين عليه فغضب وأمر بالتفتيش عن سيدة الملك وبث الجواسيس في الاطراف فلم يقفوا لها على خبر • فشق ذلك عليه كثيرا ، وزاد غضبه لانقطاع اخبار عماد الدين وندم على الاذن له في الذهاب لانه أحس بحقيقة منزلته بعد ما رآه من ثبات عزمه على خدمته • وكان يود ليزوجه بسيدة الملك ويفرح به فكان غيابهما سببا لتنغيص عيشه ، وكان يشغل خاطره عن حروبه مع الصليبيين وهي على أشدها في ذلك العهد وقد اخذ يتهيأ لفتح بيت المقدس • وفيما هو في ذلك جاءه قراقوش يقول : «ان رسول عماد الدين الذي جاءنا في المرة الماضية اتى ومعه بشرى مهمة» • فأمر بادخاله ورحب به فوقف متأدبا فقال له : «ما وراءك ، انك لا تأتينا الا بالبشائر الحسنة» •

قال : «ان ذلك بتوفيق الله وبركة مولانا السلطان • اخبر مولاي ان عبده عماد الدين عاد من مهمته سالما ظافرا ، وكان يود ان يحمل هذه البشرى بنفسه لكنه شغل بسيدة الملك فاستأذنته ان احمل هذه البشرى اليكم قبل وصوله» •

فصاح صلاح الدين قائلا : «وسيدة الملك معه ؟»

قال : «نعم يا مولاي» •

فالتفت الى بهاء الدين يلتمس مشاركته في الاستغراب ، فقال بهاء الدين : «ان ذلك غريب • انه في هذه المرة ايضا انقذها من الخطر • أليس ذلك دليلا على انهما خلقا ليقترنا ؟»

قال : «لا شك في ذلك ، وهذا غاية ما أتمناه فابعث من يستقبلهما في موكب يليق بمقامهما» •

فأعد قراقوش موكبا حافلا استقبل القادمين في الخانقاه بجـــوار القاهرة ومعه هودج لسيدة الملك. ولما دنا الموكب من قصر صلاح الدين حولوا الهودج الى قصر سيدة الملك ، وكانت ياقوتة قد علمت بقدومها فاستقبلتها وترامت على يديها تقبلهما وشكرت الله على هذه النعمة . ورأت الضعف ما زال ظاهرا في وجهها فأخذت تداعبها بذكر عماد الدين وانه لا يلبث أن يصير زوجها فقالت لها : «هل رأيت يا ياقوتة ان هذا الشاب يستحق قلبي ؟» انه انقذني من المـــوت والعار مرة اخرى» . وقصت عليها خبرها باختصار .

اما عماد الدين فترجل قبل الوصول الى قصر السلطان ومشى حتى دخل عليه وأكب على ركبته يقبلها ويقول : «اشكر الله لانه اراني وجه مولاي السلطان في خير» . وتقدم اليه الوزراء والقواد وسلموا عليه وهم لا يعرفون الغرض من مهمته ولكنهم جاروا السلطان باكرامه .

ثم خلا صلاح الدين بعماد الدين ، وبهاء الدين ، وسأل الاول عن نتيجة مهمته فقص عليه ما جرى من اوله الى اخره ، فأعجب بهمته وما اظهره من الصبر وما لاقاه من المصاعب والمشاكل وتغلبه عليها جميعا. وكان اغرب ما سمعه قتله ابا الحسن وانقاذه سيدة الملك . فلما وصل الى هنا ابتسم السلطان وقال : «بارك الله فيك . هذه همة عالية . رحم الله والدي انه كان صادق النظر في الرجال توسم فيك مناقب كبـــار القواد ، وقد صدق توسمه لانك اتيت ما لم يستطعه سواك من رجالنا. فأنت الان من كبار قوادنا ورجال خاصتنا» .

والتفت الى بهاء الدين وقال : «يا بهاء الدين هذا هو الشاب الذي فر من بين يديك من قصر النساء . ألا تراه يستحق ان يكون زوجا لسيدة الملك وقد انقذنا من ابي الحسن ؟» . قال : «انه اهل لكل التفات ويكفي ان يكون مولانا نجم الدين قد توسم فيه ذلك » .

قال : «قد آن له الان ان يستريح من وعثاء السفر ــ وأحب ان

تحتفلوا بزواجه احتفالا يليق بالملوك وكبار القواد» .

فأكب عماد الدين على يدي صلاح الدين يقبلهما فقبل صلاح الدين رأسه ثم قال عماد الدين : «أستأذن مولاي في كلمة عن صديقي عبد الرحيم ، فقد سمعت بلاءه في خدمتنا وسيكون عونا لنا في حروب الافرنج لانه يعرف بيت المقدس بيتا بيتا و ...»

فلم يصبر صلاح الدين حتى يتم حديثه فقال : «انه اهل ليكون من خاصتنا وهذا بهاء الدين يعرف له قدره وينزله منزلته . وأحب الان ان ارى سيدة الملك وأهنئها بالسلامة» .

فهرع بهاء الدين الى قصر النساء يبشر سيدة الملك بزيارة السلطان ، فاستعدت لاستقباله ، فلما أقبل عليها حياها وقال : «قد اصبت لانك فضلت عماد الدين علي فانه انقذك من الموت مرتين وخلصنا من شر الاعداء . فهو جدير بك ونعقد له عليك بما يقتضيه مقامك» .

فخجلت سيدة الملك خجلا يمازجه الفرح والاعجاب وأطرقت حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «لم أفضل عماد الدين الا لمناقب تعجب السلطان صلاح الدين وقد رفعه بسببها من عامة الناس الى خاصتهم وجعله جليسه . على اني اذا فضلته من بعض الوجوه فانني انا وهو لا نفضل احدا على صلاح الدين ونحن في رعايته وتحت ظله» .

فأعجبه جوابها فقال : «كنت في رعايتي ولكنك الان في رعاية البطل عماد الدين ويحق لك ان تفخري به كما يحق له الافتخار بك فاهنآ» . قال ذلك وخرج وغادر سيدة الملك وقلبها يرقص فرحا وقد نسيت كل مصائبها الماضية .

واحتفلت مصر بزفافها الى عماد الدين احتفالها بزواج الملوك .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان